دلائل

فصول في النبوة وصحة الإسلام

تأليف

محمد سمير

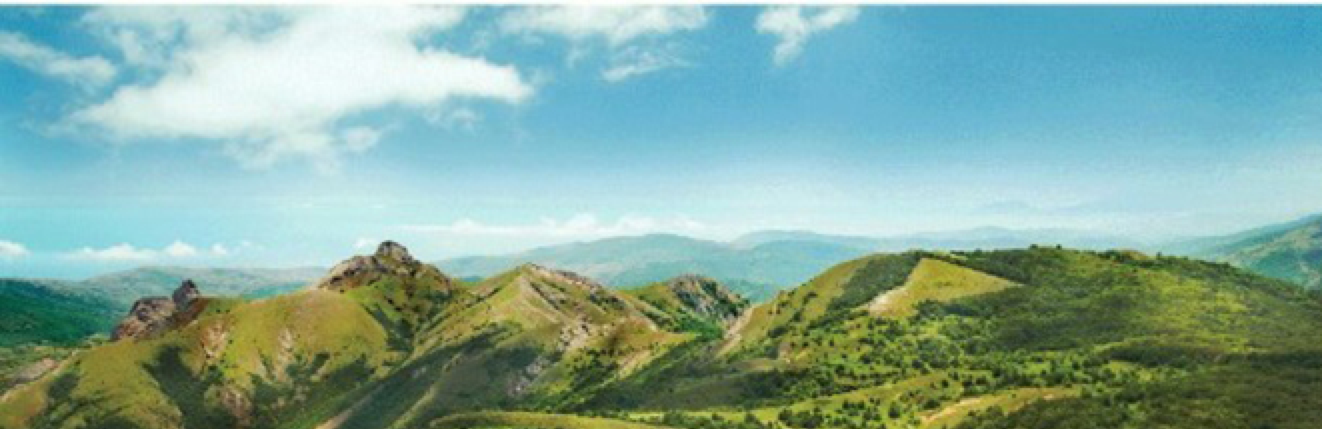

دار المعالي

دلائل

فصول في النبوة وصحة الإسلام

تأليف	محمد سمير
رقم الإيداع	2021 / 13505
الترقيم الدولي	978 - 977 - 6706 - 31 - 6
الإخراج الفني	الفتح 0114 99 56 76 6 maktab.alfath@gmail.com
نشر وتوزيع	دار المعالي

دار المعالى

للنشر والتوزيع

كلمة المركز

نقدم للقراء كتاب (دلائل) للمهندس محمد سمير، والذي قدَّم فيه فصولًا عن حاجة البشر الضرورية للدين، ثم تدرج مع القارئ لبيان دلائل صحة الإسلام بالحديث عن الرسالة والرسول؛ إذ تحدث عن دلائل صدق النبوة من أوجه متعددة ثم انتقل للحديث عن إعجاز القرآن البلاغي والغيبي والتشريعي والعلمي ثم ختم بالحديث عن مقارنة الأديان، وذلك كله بلغة قريبة إقناعية جيدة..

وإنا لنرجو أن ينتفع القارئ الكريم بهذه الأطروحة الثرية، ونعدكم أن نواصل في مركز الفتح تقديم الإصدارات العلمية النافعة. ونرجو من الله سبحانه التيسير والقبول.

مركز الفتح للبحوث والدراسات

إهداء

هذا هو كتابي الأول الذي عشت معه زمنًا والذي يشغل مكانةً خاصةً في قلبي؛ لذلك أهديه إلى هؤلاء الخواصّ:

إلى أمي -رحمها الله- التي جعلها الله سببًا في كل خير لحق بي.

إلى أبي -حفظه الله- الذي ما أنا إلا بَضْعَةٌ منه.

إلى تلك التي سكنت قلبي واطمأن لها فكري ووجداني،
زوجتي ورفيقة الأيام حُلوها ومُرّها.

إلى قُرة عيني وسبيل سعادتي؛ بُنيّتي الصغيرة نورا.

إلى أخي الأكبر وسندي في تلك الحياة.

إلى أختي وأهلي وإخوانٍ لي لم تلدهم أمي.

إلى كل من ساندني وشجعني أو دعا لي بصدق.

وإهداءٌ أيضًا إلى ذلك الخفيّ الذي له عليّ أيادٍ كثيرة.

إلى كل هؤلاء أهدي ذلك الكتاب.

المؤلف

تقديم

د. هشام عزمي

بسم الله والحمد لله..

ما إجابة سؤال: كيف نثبت صدق نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لأجل إجابة هذا السؤال دعونا نقول:

لكي تقوم بتفسير أفعال وتصرفات شخص ما تفسيرًا سليمًا لابد أن يكون لديك نظرية متماسكة معرفيًا، بمعنى أنه أمام أقوال وأفعال محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابد أن تقدم تفسيرًا يفسر لنا لماذا قال هذا الكلام ولماذا فعل هذا الفعل ولماذا سلك هذا المسلك ولماذا تصرف هذا التصرف! المسلم يقول هو قال وفعل وتصرف هكذا لأنه رسولٌ من عند الله، صادقٌ في نفسه وصادقٌ فيما أخبر به، فإذا عارضه أحد لابد أن يكون لديه في المقابل نظرية تفسيرية تفسر كل هذه الأقوال والأفعال، وتكون نظرية متماسكة معرفيًا ليس فيها تناقض ولا تخبط!

يعني على سبيل المثال وقوفه وحده عندما انهزم أتباعه في حنين يواجه الأعداء قائلاً: أنا النبي لا كذب! أنا ابن عبد المطلب! هذا تصرف لا يمكن أن يصدر من إنسان كذاب أبدًا! ولا يكون إلا من صادقٍ بلغ أعلى مراتب اليقين أو مجنونٍ بلغ ذروة الجنون واللاعقلانية! ومحمد كما نعلم من سيرته وتاريخه لا يمكن أن يوصف بالتهور المجنون أو خفة العقل إطلاقًا.

كذلك عندما مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس وظن الناس أنها كسفت حزنًا على موت إبراهيم، كان الأحرى بالكذاب مدعي النبوة أن ينتهز الفرصة أو في أقل الأحوال أن يصمت حتى يؤكد بسكوته ما ظنه الناس من كسوف الشمس لأجل موت ابنه،

لكنه خلافًا لكل هذا خرج عليهم قائلاً: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته! فما تفسير هذا التصرف العجيب؟

كذلك في التنبؤ بالغيب تجده في النبوءة القريبة يذكر الموعد كما في غلبة الروم على الفرس في بضع سنين، أما في النبوءة البعيدة لا يذكر الموعد كما في قيام الساعة، بينما الكذاب سيفعل العكس فلا يورط نفسه في إعطاء موعد لوقوع النبوءة القريبة حتى يتملص منها عند اللزوم ويمكنه بسهولة أن يعطي موعدًا دقيقًا للنبوءة البعيدة التي ستقع بعد موته لأنها لن تضيره وقتها. فلماذا تصرف محمد ﷺ بهذه الطريقة؟

هذه الأمور وأمثالها في سيرة محمد لابد أن تخرج لها بتفسير متماسك معرفيًا، أي: ليس فيه تناقض! لا يصح أن تتبنى نظرية لا تقدر على تفسير كل الوقائع والأحداث والأفعال والأقوال، بل لابد أن تملك القدرة التفسيرية كاملة غير منقوصة، لو قلت إنه كاذب مثلًا، فلابد أن تكون قادرًا عل تفسير كل أقواله وأفعاله في ضوء هذا التفسير.

يعني على سبيل المثال في الحديث: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق!

هل هذا مسلك إنسانٍ طالبٍ للدنيا ومتعها، أم العكس؟ وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه، ولما عرض عليه الصحابة فراشًا غيره رفض، ولما أرسلت له امرأة من الأنصار فراشًا محشوا بالصوف، أمر عائشة أن تعيده لها. وكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه من طول القيام.كيف تصدر هذه التصرفات عن إنسان طالب للدنيا أو صاحب أهداف دنيوية؟

بل عرضوا عليه المال والجاه والنساء والسلطة حتى يدع النبوة والرسالة وهو في مكة ضعيف قليل الأتباع، فرفض وأبى حتى ورد عنه أنه قال: لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته!

وتحمّل من الإهانات في سبيل قضيته ورسالته ما لا يطيقه كثيرٌ من الناس حتى ألقوا سلا الجزور على ظهره وهو يصلي عند الكعبة، وحتى طارده الأطفال بالحجارة حتى سال الدم من رجليه في الطائف، وهو الشريف في قومه وصاحب سمعة لا تشوبها شائبة ولديه تجارة تغنيه مدى الحياة، فما الذي رمى به في هذه المصاعب؟ وما الذي يجعله يقبل هذه الإهانات؟

قدم لي نظرية تفسيرية متماسكة معرفيًا، هذا هو المطلوب! نظرية قادرة على تفسير كل هذه الأقوال والأفعال والوقائع. في العلم التجريبي عند رصد مجموعة من المشاهدات يتبارى العلماء ويتنافسون في تفسيرها ووضع النظريات المناسبة التي تفسرها وتشرح لماذا وقعت على هذا النحو. ونحن هنا في هذا المقام نرجو أن نسلك نفس المسلك العلمي، اجمع كل الأقوال والأفعال والأحداث ثم قدم النظرية الصحيحة القادرة على تفسيرها وشرحها دون تكلف أو تعنت.

ما هو تفسير ما وقع من العرب المعاصرين للنبي ﷺ عندما تحداهم بالقرآن فعجزوا عن تلبية التحدي ولجأوا إلى محاربته ومقاتلته وتحملوا في سبيل ذلك فتَّ الأكباد وسبيَّ النساء ويُتْمَ الأبناء. فهؤلاء الناس لو كانوا يقدرون على تلبية التحدي ودحض القرآن لما انتقلوا من الحل الأسهل إلى الحل الأصعب، ولما اضطروا إلى الحرب والقتال والمنازلة بالسيف وتكبدوا في سبيل هذا ما لا يطيقون.

فما تفسير هذا العجز منهم وعدم تلبيتهم التحدي؟ فإن كان القرآن كتابًا من تأليف محمد وفي مقدور العرب أن يعارضوه فلماذا لم يفعلوا ويلبوا التحدي ويقضوا على أسطورة محمد بدلاً من الحرب والقتال وهلاك النفوس وخسارة الأموال؟

شيء عجيب حقًا!!

وأعجب من هذا محتوى القرآن نفسه من المعاني والمضامين والأفكار والذي بذل شيخ المستشرقين إجناس جولدتسيهر في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) عشرات الصفحات ليرجع ثراء وغزارة هذه المضامين إلى مصادر مسيحية ويهودية وغنوصية وفارسية ورومانية وإغريقية وهندية اجتمعت في محمد العربي البدوي الأمي الذي لبث في قومه أربعين سنة لم يظهر فيها منه أي تفوق أو تميز أو نبوغ ثم هو بعد الأربعين يخرج على الناس بغتةً لتتفجر منه هذه الأفكار والمعاني دون أن يكون لها في حياته سابقة ولا بادرة ولا إشارة، فكيف يستقيم هذا في العقل والمنطق وما نعرفه من سنن الناس وعاداتهم وأحوالهم؟!

لأجل كل ما سبق أقول: لابد لمن ينكر نبوة محمد ﷺ وصحة الدين الذي أرسل به أن يقدم لنا نظرية تفسيرية متماسكة معرفيًا، لا أن يكتفي بالرفض والتكذيب، وإلا ماذا ستقول أمام الله يوم القيامة عندما يسألك: لماذا لم تتبع هذا النبي؟ لابد أن يكون جوابك حاضرًا من الآن!

وقد أجاد أخي الحبيب الغالي المهندس محمد سمير -مؤلف هذا الكتاب- في إظهار العديد من هذه الدلائل ومدى حجيتها للدلالة على صدق نبوة رسول الله ﷺ، وأنا في الحقيقة أسعد كثيرًا بتقديم الكاتب وهو أخي الحبيب المهندس محمد سمير والذي رافقني سنوات وعرفته بحرصه على المساهمة في مواجهة الموجات الإلحادية والتشكيكية.

وفي الحقيقة إننا بحاجة في ميدان مواجهة تلك الموجات -التي تستهدف في المقام الأول فئة الشباب- إلى بناء عقدي إيماني يحصنهم من التأثر بالشبهات؛ نظرًا لضعف الدور التوجيهي للأسرة والمؤسسات التعليمية فنحن بحاجة إلى تضافر جهود المصلحين كي نسد الثغر ونعالج الخلل الناشيء عن ضعف الاعتناء بتعليم الناشئة أصول دينهم ولذا يعتبر هذا الكتاب إسهامًا جيدًا في هذا الباب.

وقد طالعت مجمل ما تضمنه الكتاب فوجدته تميز بحسن الترتيب وأسلوبه الذي يمكن وصفه بأنه السهل الممتنع ولذا أنصح به لفئة الشباب خصوصًا والمربين وأولياء الأمور وعموم القراء؛ وذلك أنه جمع شتات مسائل كثيرة ورتبها على نحو إقناعي جيد حيث تناول دلائل صحة الإسلام ببيان دلائل صحة الرسالة وصدق الرسول مع المقارنة بالأديان الآخرى.

وأود الإشارة أيضًا إلى أن مادة الكتاب ضمن مقررات أكاديمية بناء التعليمية لنقد الإلحاد -وهي الأكاديمية التي أشرف عليها- والتي تهدف إلى تخريج كوادر مختصصة في مواجهة الموجات الإلحادية.. فهنيئًا لطلاب البرنامج بهذا الكتاب.

وفي الختام؛ أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب وأن يكتب له القبول.

د.هشام عزمي

مقدمة

أرى أن أهم سؤال من المفترض أن يوجَّه إلى أي شخص أقدم على تأليف كتاب أو مقال أو ورقة علمية أو بحثية هو ذلك السؤال الغائي: **لماذا؟!**

أقصد لماذا قام باختيار هذا الموضوع تحديدًا ليبحث فيه ويتكلم عنه؟!

في لحظة ما اتخذ ذلك الكاتب أو الباحث قرارًا بأن يكتب في ذلك الموضوع وهو يعلم أن ذلك سيكلفه من الوقت والجهد الكثير والكثير، فما هو الدافع أو الباعث وراء ذلك؟!

من المهم جدًّا معرفة السياق والظروف وراء قرار التأليف -قبل الشروع في قراءة العمل- والتي يمكن أن نسميها قصة الكتاب مع الكاتب قبل صدوره وخروجه إلى النور؛ لأن معرفة تلك القصة مما يجعل للكتاب روحًا لدى القارئ ومما يعينه كثيرًا على فهمه بشكل أفضل والتفاعل معه بجدية.

وهأنذا أضع نفسي هنا موضع القارئ وأسأل نفسي ذلك السؤال التأسيسي:

لماذا دلائل صحة الإسلام؟!

في الحقيقة ليس عندي إجابة واحدة صريحة على ذلك السؤال ولكن هي مجموعة متشابكة من الجوانب والأبعاد التي تضافرت مع بعضها البعض لتشكل دافعًا عميقًا للسعي إلى زيادة اليقين العقلي البرهاني على صدق ما أنا عليه من دين ومعتقد، وهذه الجوانب والأبعاد أذكر منها:

١) نحن بصفتنا مسلمين نعتقد أن الدين عند الله الإسلام، وأننا من المفترض أن نحيى حياتنا كلها بالإسلام ووفق رؤيته وتصوراته وتعاليمه، وأن حال العبد ينبغي أن

يكون كما وصف القرآن: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وأن شرط الخلاص الوحيد يوم القيامة هو أن يلقى العبد ربه مسلمًا؛ لأن الله تعالى لن يقبل من أحد يوم القيامة دينًا غيره؛ فهو سبحانه يقول في القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وهذا الذي ذكرته حول صحة الإسلام في غاية الخطورة حيث إنه متعلق بمصير البشرية وبالقصة الكونية كلها بدءًا من وجودها وغايتها وصولًا إلى مآلها ونهايتها على الأرض.

وقد كان لعلماء المسلمين قديمًا إسهام عظيم بمصنفاتهم الحافلة التي تتناول إعجاز القرآن ودلائل النبوة وغيرها من دلائل صحة الإسلام مما يزيد يقين المسلم ويقيم الحجة على غيره إلا أن واقع المسلمين اليوم تأخر كثيرًا في هذا الباب فالمشاهد أن الشعوب العربية والإسلامية على الرغم من شدة تدينها بالنسبة لباقي شعوب العالم إلا أنها في الوقت ذاته من أقل الشعوب إنتاجًا للدراسات والأبحاث المتعلقة بفلسفة وتاريخ الأديان وبالعلوم المشتغلة بالحالة الدينية بشكل عام.

لذلك رأيت أن من الضروري بل ومن واجب الوقت أن أقوم بتأليف ذلك الكتاب عن دلائل صحة الإسلام ليكون موجَّهًا إلى المسلمين أنفسهم أولًا قبل غيرهم وذلك بدافع تحصين المسلم بمزيد من القناعة العقلية على صحة الإسلام أمام أمواج الشبهات المتلاطمة التي تموج بنا وبأمتنا ليل نهار، ثم لعل أن تسْهم مادة الكتاب في دعوة غير المسلمين.

٢) على الرغم من أن الإنسان خلق بفطرته مقرًّا بوجود خالقه ويتوجه إليه إلا أنه قد تفسد الفطرة بعوامل خارجية كما ورد في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إما يهودانه ...**»(١)، فيكون الإنسان بحاجة إلى دلائل تعالج الفطرة مما طرأ عليها من تغيير

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة. وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة وتارة بالنظر»[1].

وتعتبر هذه الدلائل للمؤمن زيادة في يقينه وعلى غيره حجة وبرهانًا وبالأخص هؤلاء الذين يحتجون بسيرة الآباء وما هو سائد في مجتمعاتهم فيتبعونها دون بينة، وقد ذم الله الكافرين في كتابه على التقليد الأعمى والوراثة الاجتماعية للأفكار والمعتقدات -خصوصًا الدينية- واتّباع الآباء دون دليل أو برهان على الرّغم من توفُّر الأدلة البيّنة والبراهين القاطعة على خلاف ما عليه هؤلاء الآباء؛ فقد قال تعالى حاكيًا عن ذلك: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤].

لذلك كان البحث عن دلائل صحة الإسلام لزيادة اليقين ولإقامة الحجة، وما أقول في حق المؤمن ليس دعوةً للشك -لأنه طالما لم يوجد سببٌ حقيقيٌّ دافعٌ للشك في إيماني ومعتقدي فلا معنى له حينها- ولكنها في الحقيقة دعوة إلى زيادة الإيمان بالأدلة العقلية البرهانية حتى يطمئن القلب، ولنا في ذلك بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسوة كما أخبر عنه القرآن

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٨).

قائلًا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

وقد يسأل البعض مستنكرًا عن السبب وراء دعوة علماء المسلمين لغير المسلمين أن يبحثوا عن الدين الحق وأن يشكّوا فيما عندهم من أديان ومعتقدات، في حين أنهم في الوقت ذاته لا ينصحون أنفسهم ولا المسلمين بذلك!

يرى السائل أن ذلك نوعًا من ازدواجية المعايير لدى المسلمين والكيل بمكيالين وعدم الإنصاف والموضوعية والتجرد، لكن الحقيقة أن دافع الشك ليس موجودًا عند من تربى وعاش على تصورات الإسلام وأصوله الكلية المتسقة مع الفطرة والتي لا تتصادم إطلاقًا مع أيٍّ من المعارف الأولية الضرورية.

ويحضرني هنا مثال سمعته من بعض المهتمين بالقضايا العقدية عندما تطرقوا في حديثهم إلى تلك المسألة فقاموا بتشبيه الأسئلة والألغاز الوجودية وسؤال المعنى والغاية من الوجود والحياة وإحساس الفطرة الدفين بالقفل المغلق المحكم، ثم تشبيه الأديان بالمفاتيح، وأنت حين ولدت وصرت من أتباع دين معين فأنت بذلك قد امتلكت مفتاحًا واحدًا خاصًّا من تلك المفاتيح، فإذا حاولت أن تفتح قفل الفطرة والأسئلة الوجودية بذلك المفتاح ووجدت أنه لا يفتح فأنت بذلك تؤمن بالدين الخطأ، وحينها يكون موقف الشك فيما عندك والبحث عن المفتاح الصحيح أو الدين الحق هو السلوك المنطقي الرشيد.

أما إذا كان المفتاح الذي لديك منذ البداية يقوم بفتح ذلك القفل فحينها يصبح الشك واستمرار البحث في باقي المفاتيح (أو الأديان) ضربًا من العبث[1].

(١) الإسلام يثبت لأي أحد بنطق الشهادتين أو بالولادة لأبوين مسلمين أو أحدهما، كما أن أول واجب على المُكلفين هو التوحيد وليس البحث والنظر لأن الإيمان بوجود الله خالقًا هو مقتضى الفطرة والعقل الضروري لا النظري، ولكن ما أردت قوله هنا أن التأسيس لأدلة عقلية على صدق الإسلام وإن كان ليس فرضًا لازمًا على المسلمين -لأن الإسلام هو بالفعل الدين المُتسق مع الفطرة والعقل الضروري فلا يجد مُعتنقه =

٣) في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية التي نعيشها اليوم وفي ظل التقدم المذهل في وسائل الاتصال وفي ظل العولمة أصبح العالم بالفعل قرية صغيرة، وأصبحت المسافات بين الأمم والشعوب المختلفة قصيرة ومهملة، وصار من اليسير على أي أحد الانفتاح على ثقافات الأمم والشعوب الأخرى والتعرض لأفكارها وعقائدها وتصوراتها، بل إن بعض هذه الثقافات تفرض نفسها علينا فرضًا ويكون حضورها قويًّا في الشأن العام والخاص خاصة في ظل ذلك المناخ العالمي الذي تسود فيه تلك الثقافة الغربية المدعومة بمؤسسات وشبكات إعلامية عالمية ومحلية.

وفي ظل تلك الأجواء يجد المسلم (الذي نشأ وعاش طيلة عمره وسط مسلمين مثله في مجتمعات إسلامية بتصورات وأفكار إسلامية) أن هناك جماعات وتكتلات بشرية كاملة تدين بأديان وعقائد مختلفة تمامًا، بل وتظن أنها على الحق!

حينها تحرك عندي الدافع والباعث للبحث عن دلائل صحة الإسلام التي يزداد بها يقيني ويطمئن بها قلبي.

٤) انتشار الأفكار الإلحادية والتشكيكية واللادينية في الآونة الأخيرة والتي بدأت بقوة في الغرب ثم تأثرت بها لاحقًا المجتمعات الإسلامية كان أيضًا مما دفعني إلى الكتابة في أدلة صدق الإسلام إظهارًا للحقيقة كي لا يضيع النور وسط الظلام، وفي ذلك وقاية للمسلمين من هذا المد الإلحادي، وأيضًا دعوةً للملحدين واللادينيين واللاأدريين والمتشككين للتفكير والنظر في تلك الأدلة.

فالأفكار عادة ما تظل في حالة من الجدل وكثيرًا ما يمتد ذلك الجدل إلى الصراع والصدام كما عبر عنها صامويل هنتنجتون بنظرية صدام الحضارات في كتابه الذي يحمل

= حاجة ملحة تدفعه إلى البحث والنظر بخلاف الأديان والمعتقدات الأخرى التي تشتمل أصولها على ما يخالف صريح العقول- إلا أنه من الأعمال التي يزداد بها الإيمان إذ يتحصل من خلالها المرء على جوانب جديدة وآفاق مختلفة من الإيمان المعرفي البرهاني الذي يدفع العبد للترقي في درجات اليقين.

الاسم ذاته، إلا أن الإسلام في الحقيقة يختلف عن جميع الأفكار والأيدولوجيات الأخرى؛ إذ إن علوه وظهوره عليها هو علو بالحجة والبيان والدليل والبرهان، فهو يعلو ولا يُعلى عليه وهو مهيمن على كل التصورات بنقاء ووضوح وعلو وفطرية تصوراته الكلية عن الله والوجود والحياة، واتساقه في رؤيته الكونية عن أصل الحياة والغاية من الوجود ومآل البشرية بعد ذلك، ولذلك يخوض الإسلام دائمًا تلك السنة الكونية والناموس الإلهي المعروف بـ (سنة الدفع) -وهو التعبير الأكثر دقة من تعبير (صدام الحضارات)- حتى يظهر علوه وهيمنته واتساقه، فكما أن النور لم يكن ليعرف لولا وجود الظلام من حوله، أيضًا الإسلام يزداد علوه وظهوره عند اشتباكه مع الأفكار الباطلة من حوله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

واستطرادًا في الحديث عن السجال الإيماني الإلحادي لا يفوتني هنا أن أشير إلى موقع هذا الموضوع تحديدًا (دلائل صحة الإسلام) في خريطة ذلك السجال الفكري والعقدي وفي مسار دعوة الملحد المُنكر تمامًا لوجود الإله حتى ننتقل به من خندق الإلحاد إلى روضة الإسلام من خلال المرور بعدة مراحل دقيقة متتابعة وهي[1]:

- إثبات وجود خالق للكون.
- إثبات ضرورة تواصل هذا الخالق مع خلقه، لأنه لم يخلق الكون ليتركه هكذا ويرحل كما يزعم الربوبيون، ولكنه خلقه لغاية وحكمة وهدف، ولذلك كان لا بد

(١) ليس بالضرورة أن يمرَّ المُلحد المُنكر للخالق بجميع هذه المراحل كي يدخل في دائرة الإسلام، بل هذه المراحل تمثل التسلسل المنطقي من الإلحاد إلى الإسلام، ولكن قد يدخل المُلحد في الإسلام مباشرة بمجرد تأمله دليلًا واحدًا من أدلة صدق الإسلام أو تدبره بعض آيات القرآن العظيم.

من وجود دين ورسالة من الخالق إلى خلقه؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

- إثبات الأدلة على صدق الإسلام، وأنه هو الرسالة والدين الذي أنزله الله للناس أجمعين.

٥) دلائل صحة الإسلام وصدق الأنبياء مركبة بين أدلة عقلية وحسية ونقلية، فهي حسية بالأساس -لمن عاينها- وتدل على صدق النبي بصراحة العقول ونقلت إلينا بالتواتر المفيد للعلم اليقيني. ولذا فنحن بحاجة إلى الانتفاع بهذا التضافر بين أوجه الدلائل التي تنوعت بتنوع مصادر المعرفة.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النبوات:

«إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا بعث رسولًا أمر الناس بتصديقه وطاعته، فلا بد أن ينصب لهم دليلًا يدلهم على صدقه؛ فإن إرسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسَل إليهم أنه رسول: قبح وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر، وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب»[1].

٦) كثيرًا ما كنت ألاحظ أن الذين يتحدثون عن إثبات صحة الإسلام وأنه الدين الحق يتكلمون غالبًا عن الإعجاز العلمي في القرآن أو عن البشارات بالنبي محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتب السابقة خاصة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ولا شك أن هناك بشارات في الكتب السابقة بالنبي محمد كما أنه توجد أيضًا إشارات علمية في القرآن ولكنهما في الحقيقة يقعان في مرتبة أقل في الدلالة من الأدلة الأخرى على صدق الإسلام والتي سنتحدث عنها في ذلك الكتاب؛ والسبب وراء ذلك أن كثيرًا من تلك

(١) النبوات (٢/ ٨٩٠)، وهذا مصداق ما رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

الأدلة ظنية ترجيحية، ومعلوم أن الدليل إذا قامت الدلائل على ضعف ثبوته -فضلًا عن تحريفه- لم يصلح من جهة الاستدلال المرجِّح بل يذكر استئناسًا؛ إضافة إلى ذلك أن الكتب السابقة كالكتاب المقدس كتبٌ غير مُتصلة السند التاريخي وبالتالي فليست قطعية الثبوت ولا تصلح دليلًا يقينيًّا مستقلًّا، كما أن الإعجاز العلمي لا بد له من شروط وضوابط حيث إن النظريات العلمية -فضلًا عن الفرضيات- ليست ثابتة بل تتغير باستمرار وقد يُخطِّئ بعضها بعضًا؛ فمثلًا نظرية الجاذبية لدى أينشتاين تختلف عنها عند نيوتن، وكذلك النموذج البطلمي السائد عن الكون منذ القدم حيث الأرض فيه مركز الكون قد تم دحضه وتغييره بعد ذلك على يد كوبرنيكوس وجاليليو عندما اخترع التلسكوب ووجد أن الأرض مجرد جِرْم صغير يدور حول الشمس، ولذلك الإعجاز العلمي من خلال تلك الضوابط أصبح ضيق النطاق وصورته الصحيحة والوحيدة هي عندما تشير آية قطعية في دلالتها إلى حقيقة علمية مُشاهدة وذلك للحفاظ على النص القرآني من أي تأويلات فاسدة قد تُخرجه عن مقصوده ومُراده[(١)].

لذلك أردت من خلال ما ذكرته هنا أن أوضح أن الأدلة على صدق الإسلام هي في الحقيقة أوسع وأوثق من ذلك بكثير، وأدعو الله أن أكون قد وفقت في بيان ذلك.

٧) التأسيس لأدلة يقينية برهانية على صدق الدين الإسلامي هو في الحقيقة تأسيس أيضًا لمنهجية في التعامل مع جميع الشبهات التي تُثار ضد الإسلام سواء كانت شبهات متعلقة ببعض آيات القرآن الكريم أو ببعض أحاديث السنة النبوية أو ببعض التشريعات أو شبهات متعلقة بمواقف من السيرة النبوية.

هذه المنهجية هي في الأساس منهجية قرآنية تم التأسيس لها من خلال قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ

(١) ستتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل في الباب الثاني في فصل الإعجاز العلمي.

وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]؛ فلو تأملنا الشبهات التي تُثار ضد الإسلام سنجد أنها عادة ما تكون من قبيل المتشابه والذي يحتمل أكثر من وجه يمكن أن يفهم من خلاله، فيأتي الطاعنون في الإسلام ليحملوا الآية القرآنية مثلًا على الوجه الذي تبدو فيه مصادمةً لبعض أعراف الناس المُنتشرة أو لبعض الثقافات والأفكار السائدة خاصة في ظل هيمنة الثقافة الغربية وتسلطها على مجتمعاتنا الإسلامية.

المنهجية التي أعنيها هي أنه إذا تأسس لدي أساس يقينيٌّ من الأدلة على صدق الإسلام فسيكون هذا الأساس بمثابة المُحكَم الذي أستطيع أن أرد إليه كل الشبهات المتشابهة التي تثار ضد الإسلام وبذلك أكون قد استطعت أن أتعامل مع تلك الشبهات بمنهجية منطقية عامة حافظت فيها على يقيني وإيماني حتى ولو لم أستطع أن أصل إلى الحكمة التفصيلية المخصوصة تحديدًا من الآية أو الحكم لأن الجهل بالحكمة ليس دليلًا على عدم وجودها.

خلاصة القول في تلك النقطة أن اليقين لا يزول بالشك والظن، وأدلة صدق الإسلام المحكمة اليقينية لا يمكن أن تزول بسبب شبهات ظنية متشابهة، وكان هذا مما دفعني للاهتمام بذلك الموضوع وكتابة ذلك الكتاب الذي وضعت فيه تلك الأدلة اليقينية على صدق الإسلام حتى أبلغ بها حد اليقين المحكم الذي لا تضره الظنيات والمتشابهات؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس:٣٦][(١)].

---

(١) هذه المنهجية في الحقيقة طالما يستعملها عقلاء البشر في حياتهم اليومية -بوعي أو بدون وعي- وتجلياتها كثيرة جدًّا على المستوى الإنساني والاجتماعي؛ فمثلًا إذا كان لدي صديق طالما كان وفيًّا، وعندي من المواقف والقرائن التي تؤكد إخلاصه وحسن صداقته الكثير والكثير، كما أنه لا يوجد في المقابل ما يُعارض ذلك، ثم صدر منه موقفٌ لم أستطع فهمه وقد يُحمل على وجه سيء وقد يُحمل على وجه حسن، فلا يقول عاقل حينها =

كانت هذه هي أسبابي ودوافعي التي جعلتني أدرك أولًا مدى أهمية ذلك المبحث والتي دفعتني بشدة بعد ذلك للبحث في دلائل صحة الإسلام للوصول بها إلى زيادة الإيمان ورسوخ اليقين بتظاهر الدلائل والبراهين والبينات على صحة هذا الدين، ثم أحببت أن أُسطّر ما توصلت إليه في هذا الكتاب الذي بين يديك، وأرجو أن أكون وفِّقت في ذلك وأضفت جديدًا والله المستعان.

= أن هذا سببًا مقنعًا وكافيًا يدفعني للحكم عليه بعدم الإخلاص وضرورة ترك صداقته وإنهاء علاقتي به ، بل إن السلوك المنطقي الرشيد أن الإنسان وقتها يعتمد على ما لديه من رصيد محكم فيثق به ويطمئن إليه طالما لم يوجد ما يعارض ذلك الرصيد من محكم أو يقين آخر؛ فاليقين لا يزول إلا إذا عارضه يقينٌ آخر؛ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

- **منهج الكتاب:**

المراد بمنهج الكتاب هو الطريقة والمنهجية العلمية التي اتبعتها وألزمت نفسي بها طيلة هذا البحث حتى أصل إلى النتيجة النهائية وهي إثبات صدق الإسلام وأنه هو الدين الحق الذي أنزله الله للبشر جميعًا إلى يوم الدين.

والمنهجية التي اتبعتها تشمل بُعدين رئيسين: أحدهما: قيمي أخلاقي، والآخر: علمي معرفي، وكلا البعدين ضروري لضمان الوصول إلى النتيجة المنشودة من خلال مسار استدلالي صحيح سالم من المغالطات.

أولًا: البُعد القيمي: وهو إجراء أخلاقي حاولت جاهدًا الالتزام به طيلة الكتاب وهو مَعْنِيٌّ بالالتزام بالطرح الموضوعي، وأنا أعلم جيدًا أن هذا الالتزام هو من الصعوبة بمكان وذلك لأن الإنسان في الحقيقة ابن ثقافته وبيئته وسياقه الحضاري الذي نشأ فيه وتربى عليه والذي ينظر إلى العالم من خلاله ومن خلال تصوراته، فالإنسان كائن مركب مدفوع بأغراض ودوافع عميقة كامنة في اللاوعي تنشأ من خلال تأثير بيئته وعاداته وثقافة مجتمعه التي نشأ وتربى عليها، ولذلك أنا لم أدعِ هنا الحياد النظري ولم أَنشده فأنا في نهاية الأمر رجل مسلم أدين بالإسلام وأسعى جاهدًا لنصرته، ولكن ما حاولت التزامه هو الموضوعية؛ بمعنى أنني لم أستدل إلا بأدلة صحيحة ولم أقع في أي مغالطات منطقية أو على الأقل بتعبير أدق لم أتعمد ذلك ولم أَكِلْ بمكيالين عند المقارنة مثلًا بين الإسلام وغيره من الأديان.

ومما ساعدني على التزام ذلك المعيار الأخلاقي (معيار الموضوعية) هو إيماني بالقرآن ذاته والذي يؤسس له بوضوح من خلال العديد من السياقات حيث يقول مثلًا:

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤].

﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤].

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

ولم أجد صراحةً في كل ما قيل تأسيسًا للموضوعية ولطريقة التفكير العلمي والسير مع الدليل أينما سار أوضح من هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

وذلك كان من لوازم استقراء تلك النصوص وغيرها أن تأسست القاعدة العامة (العلم قبل القول والعمل) وليس العكس؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤]، وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل للتأكيد على لزوم الحجج والبينات ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

والالتزام بمعيار الموضوعية ليس تفضلًا مني ولكنه أمر لازمٌ على أي باحث يريد أن يصل إلى الحقيقة، ويتأكد ذلك الالتزام عندما يكون الموضوع متعلق بدين واعتقاد ومراد الله من خلقه؛ لأن الحق أعز وأكرم من أن يُدل عليه بباطل أو ظنون أو انطباعات شخصية ذاتية.

ثانيًا: البُعد العلمي: وهو الطريقة المعرفية الاستدلالية التي اتبعتها لإثبات صدق الإسلام؛ فلو نظرنا إلى (مسألة الإسلام) نظرة خارجية لوجدناها ببساطة عبارة عن شخص خرج على الناس يومًا ما ليقول لهم إنه رسولٌ من الله الذي خلقهم وخلق الكون والحياة، وأن معه رسالةً من هذا الإله إليهم، وبالتالي إذا أردنا إثبات صدق الإسلام فلا بد من تفكيك المسألة إلى قضيتين ومبحثين منفصلين رئيسين وهما[1]:

١- حامل الرسالة (رسول الله) وهو النبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

٢- مضمون الرسالة (رسالة الله) وهو القرآن.

(١) وهذا التفكيك مُستفاد من المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه (الظاهرة القرآنية).

ومن خلال هذا التفكيك سيكون لدينا مبحث حول صحة النسبة الأولى (رسول الله) من خلال إثبات العلاقة بين هذا الشخص ذاته -النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي ادعى أنه رسول من الإله وبين الله عَزَّوَجَلَّ، ووسيلة ذلك هو التفكر في صفاته وسيرته ومدى اتساقها مع هذا الادعاء، حينها أستطيع استنتاج أن الإسلام هو الدين الحق لأنه دين رسول الله.

كما سيكون لدينا أيضًا مبحث آخر حول صحة النسبة الثانية (رسالة الله) من خلال إثبات العلاقة بين القرآن وبين الله، ووسيلة ذلك هو بيان أوجه الإعجاز في القرآن وأن ذلك فوق مستوى القدرة البشرية، حينها أيضًا أستطيع استنتاج أن الإسلام هو الدين الحق لأنه دين رسالة الله.

وكل مبحث من المبحثين كافٍ بشكل مستقل لإثبات صدق الإسلام، وهذا هو عين ما فعلته هنا في الكتاب، فلقد تعاملت مع المبحثين بشكل منفصل تمامًا حتى يكون ذلك مانعًا لي أولًا من الوقوع في أيٍ من المُغالطات المنطقية الاستدلالية كالجدل الدائري circle argument مثلًا وخلافه، وليكون أيضًا محصلة هذين الاستنتاجين المنفصلين معًا بمثابة إيمان على إيمان وبرهان فوق برهان ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤].

وبناءً على ما ذكرته فلقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسة:

البابان الأول والثاني كانت طريقتي فيهما هي النظر المباشر في المصادر الأصلية للإسلام (وأقصد بها الرسول والقرآن) ثم إثبات صحة نسبتها المُباشرة إلى الإله خالق الكون، وهذه الطريقة هي طريقة استنتاجية(١).

(١) الطريقة الاستنتاجية هي طريقة رياضية تعتمد على مجموعة من المقدمات تقود في النهاية إلى نتيجة لازمة، فإذا صحت المقدمات وصح الربط بينها وبين نتيجتها النهائية وصح الهيكل الاستدلالي وكان خاليًا من أي مغالطات منطقية، عندها نقطع بصحة النتيجة المُثبَتة.

ثم يأتي بعد ذلك الباب الثالث والذي طريقتي فيه هي عقد مقارنة بين الأديان الموجودة الآن التي تدّعي أنها تحمل رسالات إلهية من الخالق وذلك من خلال معايير معينة أستطيع من خلالها استنتاج مدى الاتساق الموجود بين هذه الأديان وتلك المعايير، وأيضًا أستطيع استبعاد الأديان الباطلة منها حتى نصل في النهاية إلى الدين الحق الذي لم أجد فيه ما يدفعني لاستبعاده والذي وجدت فيه أيضًا ما يدل على اتساقه مع معايير الدين الحق، وهذه الطريقة هي طريقة استبعادية[1] في الأساس ولكنها أيضًا تحمل دلالات استنتاجية واضحة سيأتي ذكرها في موضعها من الكتاب بإذن الله.

---

(١) الطريقة الاستبعادية هي طريقة تعتمد على وضع الفرضيات المختلفة التي من الممكن أن تكون سببًا وتفسيرًا للظاهرة موضع الاختبار والتجربة، ثم استبعاد الخاطئ منها حتى نصل إلى ما يُسمى بأحسن التفاسير، فيكون ذلك بمثابة كلمة العلم الآن في تلك المسألة لأنه أحسن تفسير ممكن أن نصل إليه حاليًا وفق ما نملكه من إمكانيات، ولكن عندما أكون متيقنًا تمام اليقين من القدرة على حصر جميع الفرضيات المحتملة بحيث أستطيع الجزم أن التفسير الصحيح هو قطعًا وسط تلك الفرضيات ولا يمكن بحال أن يكون خارجًا عنها، حينها تحمل هذه الطريقة الاستبعادية موثوقية أكبر وتصبح دليلًا قاطعًا وطريقة يقينية للوصول إلى الحقيقة ولم يعد مجرد أحسن تفسير ممكن، وهذا ما يسميه المناطقة والأصوليون بالسبر والتقسيم، ومثال عليه قول الله تعالى في إثبات وجود الخالق من خلال النظر في المخلوقات بعد حصر كل الاحتمالات الممكنة: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

ولقد استخدمت هنا في هذا الكتاب تلك الطريقة الاستبعادية في تجليها اليقيني المسمى بالسبر والتقسيم عندما تحدثت في الباب الثالث عن عقد مقارنة بين الأديان الموجودة حاليًا والتي تدعي نسبتها للإله الخالق، وهي كما قلت طريقة استبعادية تحمل موثوقية قاطعة يمكن الاعتماد عليها والوثوق فيها، كما أن ذلك الباب الخاص بمقارنة الأديان له أيضًا حظ ونصيب من الطريقة الاستنتاجية حيث إثبات العلاقة المباشرة بين مضامين الإسلام ومعايير الدين الحق.

(انطلاقة تأسيسية)

ضرورية الرسالات

(وفيه ردٌّ على اللادينيين والربوبيين)

بدايةً لا بد أن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يوفر من الأدلة العقلية والشرعية على المعتقد ما يتناسب مع أهميته ومركزيته في البناء العقدي اللازم تصوره لدى الإنسان لتحقيق العبودية المطلوبة؛ لذلك فإننا نجد الأدلة على وجود الله فطرية ضرورية تأتيك كالهواء رغمًا عنك ولا تحتاج منك إلى بحث أو نظر، إذ لا يمكن تصور عدم وجوده في سياق كامل متسق لأنه من المعلوم ببساطة أن لكل حادث محدِث ولكل مخلوق خالق.

وفي الوقت ذاته نجد الأدلة على صدق الرسالات أمرًا مختلفًا نوعًا ما، فهي كالماء وليست كالهواء بمعنى أن الإنسان يحتاج إليها بشدة كاحتياجه للماء ولا تصلح حياته بدونها وذلك مع توفر وجودها لكل من بحث عنها، ولكنها تحتاج إلى بحث بخلاف الأدلة على وجود الله التي كالهواء لا تحتاج منا إلى بحث.

يتحدث ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤكدًا تلك الفكرة السابقة من أن الناس كلما ازدادت حاجتهم إلى معرفة الشيء كان الله بالدلالة عليه أجود فيقول:

«وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر، وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر، وكانت الأسماء المعرِّفة له أكثر وكانت على معانيه أدل ... ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه»[1].

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

وهذا المعنى هو ما عنيته بأن الله عَزَّوَجَلَّ يوفّر من الأدلة على الشيء ما يتناسب مع أهميته وضروريته.

لكن قبل البحث عن الماء لا بد من الاقتناع الحقيقي بأهميته وضروريته وحاجة البشر الشديدة إليه لأنه ما إذا شعر الإنسان بمدى ضرورة الماء فإنه سيبحث عنه ولا بد منتظرًا وجوده والوصول إليه.

وهكذا الرسالات أيضًا فإذا ما شعر الإنسان بضروريتها فإن السلوك المنطقي التالي لذلك سيكون هو البحث عنها منتظرًا[1] الوصول إلى رسالة الله الحقيقية.

خلاصة القول إنه قبل الحديث والبحث عن الرسالة أو الدين الحق من بين تلك الأديان الموجودة فإنه لا بد من التأسيس لذلك السؤال الابتدائي والذي هو بمثابة القوة الدافعة والمحركة لرحلة البحث عن رسالة الإله وهو:

هل هناك بالفعل ضرورة[2] حقيقية لأجلها اقتضت حكمة الإله (خالق الكون والإنسان) بأن يُرسل الرسل والرسالات إلى البشر؟

وهل هناك حاجة مُلحة للبشرية إلى تلك الرسالة من الخالق؟

أم أننا نستطيع تفسير الوجود والحياة والكون والإنسان بدون الحاجة إلى القول بتواصل الإله مع خلقه من خلال الرسل الحاملة لرسالات الله إلى البشريّة؟

---

(١) من هنا يمكن إعادة تعريف الإنسان من خلال وصف تلك الحالة الخاصة من الانتظار المعرفي ومن خلال ذلك الشعور الداخلي بالحيرة والقلق الوجودي بأنه ذلك الكائن المنتظر رسالة الله الحاملة للإجابات عن تساؤلاته الوجودية وسؤال المعنى وألغاز الحياة.

(٢) لا أقصد بالضرورة هنا الوجوب والإلزام العقلي على الله، فليس من حق أحد أن يوجب على الله شيئًا لأن هذا يعد تجاوزًا لحد العبودية ومشاركة للإله في صفات السيادة والألوهية، ولكن ما أعنيه هو أن ذلك من لوازم حكمة الله، فالله قد وصف نفسه بتمام الحكمة، ومن تمامها أنه لم يخلق الكون والإنسان عبثًا.

في الواقع هنـاك أسباب كثيرة تدفعنا إلى القـول بأن حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات حاجةٌ ضروريةٌ بحيث لا يستقيم أمرها ولا يتسق حالها إلا من خلالها، بل الأكثر من ذلك فإنّ هناك ظواهر بشريّة ووجوديّة لا يمكن تفسيرها ابتداءً إلا من خلال القول بوجود تلك الرسالات، ومن هذه الأسباب:

١) **تلك الأسئلة الوجوديّة التي تلحّ على الإنسان بشدة** والتي لا تفارق ذهنه أبدًا فهي مستقرة في اللاوعي الجمعي البشري بحيث تجعل الإنسان دائمًا في حالةٍ من الحيرة والقلق منتظرًا الإجابة الحقيقية عن تلك الأسئلة.

هذه الأسئلة مرتبطة بمعنى الحياة والغاية من وجود الإنسان ومصيره ومآله، ولا سبيل للوصول إلى إجابات يقينية تشفي غليله وتزيل حيرته إلا من خلال الاتصال مع مُوجِد الكون وخالق الإنسان، وبالتالي كانت الرسالة الإلهية الحاملة للإجابة عن تلك الأسئلة ضرورية لإخراج ذلك الإنسان (المنتظر) من مستنقع الحيرة الوجودية الواقع فيه؛ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

٢) **تمييز الله للإنسان تحديدًا بالعقل والوظائف الإدراكية المُرتبطة به،** فهو الكائن الذي اختصه الله بالعقل والوعي والإرادة والقدرة على تطوير الأشياء والبحث الدائم عن الحكمة ؛ لذلك كان من كمال حكمة الإله (خالق الإنسان) أن يُوجده في عالم تحكمه ثنائيات الخير والشر والحُسن والقُبح والحق والباطل والصواب والخطأ حتى يقوم بتفعيل وتوظيف تلك الإرادة فيختار بها ما يُريده من تلك الثنائيات ثم يتحمّل بعدها مآل ذلك الاختيار وتبعاته؛ وإلّا فما الفائدة إذن من وجود تلك الإرادة البشريّة إن لم يُعرض على الإنسان الخير والشر فيختار بإرادته بينهما؟! ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد:١٠].

من أجل ذلك اقتضت حكمة الله أن يتواصل الإله مع الإنسان من خلال رسالةٍ ليُقرر له فيها ما هو الخير والشر، وما هو الحسن والقبيح، وما هو الحق والباطل حتى يصير

لديه ميزان يستطيع أن يَزِن به الأمور وفرقان يجعله على بينةٍ من أمره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥][1].

٣) عدم القدرة على التأسيس للأخلاق خارج المنظومة الدينية؛ فمن المعلوم لدى العقلاء أن حياة البشر لا تستقيم بدون مرجعية أخلاقية ثابتة مطلقة مُؤسَس لها تأسيسًا حقيقيًّا؛ لأنّ الأخلاق لا تَكتسب فاعليَّتها وقوّتَها وسلطتَها الحقيقية إلا من كونها صادرة عن مصدر مطلق ثابت وليس نسبيًّا، فالأخلاق تتأسس في النهاية على مبدأ الإلزام، وليس هناك مصدر مطلق ثابت متجاوز قادرٌ على الإلزام الحقيقي إلّا الله عَزَّوَجَلَّ من خلال كُتبه وأوامره[2].

والمُلحدون مهما حاولوا الادّعاء بالقدرة على التأسيس للأخلاق تأسيسًا معرفيًّا فإنّها ستظلّ مجرد دعوى بدون بينة[3]، لأنّه كما يقول الرئيس المفكر علي عزت بيجوفيتش في

---

(١) من أجل ذلك أعتقد أن التكاليف الشرعية وتقرير الصواب والخطأ والأمر بالتزام معايير ذلك الميزان الإلهي هي من حكمة الله أن وهب الإنسان الإرادة والعقل اللذين اختصه الله بهما، ولذلك يقول الأصوليون أن مناط التكليف هو العقل، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، فالطبيعةُ -ممثلةٌ في السماوات والأرض والجبال- غيرُ عاقلة وغير واعية وغير مميِّزة وغير مختارة، ولذلك لم تحمل أمانة التكليف ولم تتحملها بخلاف الإنسان العاقل الواعي المختار فإنه قد حمل تلك الأمانة بما اختصه الله به من عقل قادر على الإدراك والاختيار، وبما ميزه الله به عن الطبيعة المنقادة كرهًا لأوامر الإله القدرية ونواميسه الكونية.

(٢) يقول الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن العظيم: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فكما أنّ الخلق صفة خاصة لله وحده لا ينازعه فيها أحد، أيضًا الأمر والسيادة والتشريع المُلزم الذي هو أساس الأخلاق الحقيقية الأصيلة هو صفة خاصة لله لا يشاركه فيها أحد؛ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧].

(٣) هناك محاولات تبنّاها بعض فلاسفة الاجتماع الغربيين للبحث عن مصدر للإلزام الأخلاقي خارج الوحي والدين. وفي كتابه (دستور الأخلاق في القرآن، فصل الإلزام في النظرية الأخلاقية ص٢٣ إلى ٣٧) نقل الشيخ عبد الله دراز بعض تلك المحاولات مثل ما قام به فيلسوف الأخلاق الفرنسي (هنري برجسون) حيث قام =

كتابه الهام (الإسلام بين الشرق والغرب): (يوجد مُلحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي)[1].

وما يقصده بيجوفيتش هنا هو عجز الفلسفة الماديّة الإلحاديّة عن التأسيس النظري للأخلاق تأسيسًا حقيقيًّا معرفيًّا، وأنّ المُلحد لا يستطيع الالتزام بمنظومته المادّيّة ولوازمها في حياته العمليّة فكثيرًا ما يخالفها لا إراديًّا بما لديه من رصيد الفطرة البشرية، ولذلك هناك قولٌ مشهور أيضًا نُسب للعديد من فلاسفة عصر التنوير أمثال فولتير وغيره وهو أنّ الله إذا لم يكن موجودًا وجب على البشر اختراعه لأنّه لولا وجوده لخانت الزوجة وسرق الخادم! وهذا القول مع صرف النظر عن قائله يُشير أيضًا إلى العجز التام للمنظومة الإلحاديّة عن التأسيس للأخلاق وجوديًّا (أنطولوجيًّا) ومعرفيًّا (إبستمولوجيًّا).

وبغض النظر عن صحة نسبة القول إلى فولتير أو غيره إلّا أنّ المعنى صحيح وهو قريبٌ بدرجة كبيرة من العبارة الشهيرة التي جاءت على لسان الملحد إيفان في رواية الكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي المعروفة باسم الإخوة كرامازوف حيث قال:

"إذا لم يكن الله موجودًا فإنّ كل شيءٍ مُباح حتى الجريمة".

تلك الأقوال جميعها تؤكّد نفس المعنى وهو أنّ الدافع النظري الوحيد للالتزام بالأخلاق الحقيقية الأصيلة هو الإيمان بالله، وإلّا فما معنى أن يخالف الإنسان طبيعته

= بعزو الإلزام الأخلاقي إلى مصدرين وهما: الضغط المجتمعي والذوق الفردي (وهي الأحاسيس النبيلة في نفس الفرد)، وقد ردّ عليه الشيخ دراز ردًا شافيًا حيث قال أنّ الضغط المجتمعي هو نوعٌ من الانقياد الأعمى أو الوراثة الاجتماعية وهي وإن كانت محل تقدير اجتماعي إلّا أنّها مذمومة في القرآن ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، كما قال أنّ الذوق متغير وقد يستحسنه الإنسان إلّا أنّه ليس مصدرًا للإلزام فهو أشبه ما يكون بالهوى الذي ذمّه القرآن أيضًا ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وبالتالى يرى الشيخ دراز أنّ كلا الأمرين لا يؤسس لأخلاق حقيقية أصيلة مُلزِمة، وإنما الذي يؤسس لذلك الإلزام الأخلاقي هو الوحي والفطرة فكلاهما ينبثقان من مصدر مطلق ثابت مُلزِم ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النور:٣٥].

(١) الإسلام بين الشرق والغرب (ص ١٧٥).

وغريزته في حب التملك والمصلحة الشخصية والانتفاع بما عند الغير حتى لو بالسرقة والخيانة والقتل؟! في الحقيقة ليس هناك دافع أو سبب علمي لذلك إلّا الإيمان بالله لأنّه حتى الفطرة البشريّة السليمة التي تدفع الإنسان لفعل الخير وعدم إلحاق الضرر بالآخرين ليس لها تفسير أيضًا إلّا الإيمان بالله الذي أوجدها في الإنسان وجودًا ضروريًّا.

حديثي هنا عن إمكانيّة التأسيس النظري للأخلاق من الناحية الوجوديّة الأنطولوجيّة (بمعنى هل توجد أخلاق حقيقية أصلًا؟)، وهذه تُؤسّس لها الفطرة البشرية كالمعاني العامة من حب الخير والعدل والحق ثم يُؤكّدها الدين والوحي المُنزّل من الإله.

كما أنّ هناك حديثًا آخر عن الأخلاق من الناحية الإبستمولوجية المعرفية حيث المعرفة التفصيلية لجوانب الخير والعدل والحقّ، وإلحاق هذه القيم الكلية والعامة والمُطلقة بأفعال وأقوال بعينها (بمعنى ما هو السبيل إلى معرفة تلك الأخلاق الحقيقية؟)، وهذا لا سبيل أيضًا لمعرفته إلّا من خلال الوحي والدين، فالعدل مثلًا كقيمة عامّة هل له وجودٌ أصلًا؟، وهل يمكن التأسيس له في ظل الفلسفات والتصوّرات المطروحة؟، فإذا انتهينا من الإجابة على تلك الأسئلة الوجودية الأنطولوجية نشرع في طرح الأسئلة المعرفية الإبستمولوجية مثل: ما هي تجلّيات وتحققات العدل في الحياة؟، وكيف يمكن وصف فعل معين بأنّه عادل؟

في الحقيقة لا شيء في النهاية سوى الدين يُعطينا تلك المعايير الأخلاقيّة والجماليّة، بل حتّى العلم الحديث فشل في إيجاد تلك المعايير لكونها خارج مجال البحث العلمي من الأساس.

إذن هناك حاجة أكيدة لدى البشر للوصول والتعرف على رسالة الله من أجل التأسيس لوجود الأخلاق المطلقة تأسيسًا علميًّا حقيقيًّا، ولتأكيد تلك المعرفة الفطرية الضرورية الكامنة في الضمير البشري، ولبيان أوجه الصواب والخطأ على نحو تفصيلي

والتي لا سبيل لمعرفتها إلا من خلال مصدر مطلق واسع مجاوز لإطار الزمان والمكان الضيق يرتقي بالبشرية فوق حالة السيولة والنسبية الأخلاقية.

٤) **عدم القدرة على التأسيس لأي معنى للوجود والحياة بدون الدين.** من المعلوم ضرورةً أنه لا يُمكننا فصل فعل الله عن حكمته؛ فهو سبحانه يفعل لحكمة معيّنة، فإذا كان فِعل الله هنا هو خلق الكون والإنسان، فما هي حكمته إذن من ذلك؟!

إنّ مقتضى ولازم الحكمة الإلهية أنه سبحانه لم يخلق هذا الكون عبثًا، ولكن خلقه لغاية وحكمة وهدف، والسؤال هو: من الذي يستطيع فهم وإدراك تلك الحكمة والغاية الإلهية من الوجود؟!

الإنسان كما قلنا هو الوحيد في هذا الكون الذي اختصه الله بوظائف العقل والإدراك العليا ومنها البحث عن الحكمة والنظرة الغائية للأشياء وبالتالي هو الذي يستطيع الوصول إلى هذه الغاية الإلهية من الحياة وإدراكها ثم التفاعل معها وهو الوحيد المُؤهّل لذلك التواصل والتلقّي عن الإله، لذلك كان من الضروري حدوث اتصال بين الإله والإنسان من خلال إرساله الرسالات ليُخبره فيها عن الغاية من خلقه ومعنى الحياة.

وفي المقابل لو افترضنا جدلًا عدم حدوث ذلك الاتّصال مع الإله، فإنّ ذلك سيعني أن الله قد خلق الكون والإنسان بلا غاية ولا هدف ولا معنى، وهذا وصفٌ صريحٌ للإله بالسفه والعبث -تعالى الله عن ذلك-.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

كما أنّ فساد اللازم يدل على فساد الملزوم، أيضًا فساد القول بأن الله قد خلق الكون عبثًا بلا حكمة ولا معنى يدل على فساد القول بعدم وجود رسل ورسالات.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧].

«ولهذا كان من لوازم الإيمان بالله ربًا وإلهًا الاعتقاد برسل الله، وأن إنكار رسله يتضمن الجهل بالله وتنقيصه وعدم تقديره حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]»[١].

لذلك فإنّ معنى الحياة يُمكن إدراكه من خلال الحكمة الإلهيّة المُتَصَوَّرة من خلق الكون بشكل عام والإنسان تحديدًا بشكل خاص وهي تحقيق العبودية وتفاصيلها التي بلغتنا من خلال تلك الرسالة الإلهيّة بما فيها من إخبار عن ذات الله وصفاته وقصة الوجود والحياة وغايتها ومآلها، وأيضًا إخباره عن تفصيل المنظومة الأخلاقية وذلك الميزان الثّابت المُطلق حتى لا تقع البشرية في النّسبية والسيولة بحيث يتمّ كل ذلك تحت الإطار الشامل والمعنى العام للعبودية التي تستوعب حياة الناس كلها.

والحياةُ بدون دينٍ قد يكون لها صورتان مُختلفتان، إمّا أن يكون الشخص غير مؤمنٍ بالفعل بوجود الأديان والرسل إيمانًا نظريًّا، وهذا بدوره قد فقد المعنى من الحياة والغاية من الوجود؛ لأن الشخص حين يُنكر التواصل الإلهي مع البشر (الدين) فإنّه يفقد الشعور بالأهمّيّة والمركزيّة في ذلك الكون ويصير حينها بلا قيمة تُذكر[٢] شأنه شأن سائر الحيوانات بل أكثر ضلالًا لأنّه مُركّبٌ تركيبًا مُغايرًا فهو مجبولٌ على التفكير والبحث عن الحكمة والتواصل والتساؤل فهو واقعٌ بذلك بين إلحاح الأسئلة الوجوديّة من جهةٍ وبين نظرته العبثيّة للحياة من جهةٍ أُخرى؛ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

---

(١) أصول الدعوة (ص ٢٦)، د. عبد الكريم زيدان.

(٢) مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، فالإنسان حين يُنكر الخالق والدين يفقد المعنى من الحياة كما يفقد أيضًا مركزيته في الكون وتفضيله على سائر الخلق وتسخير الطبيعة لخدمته فيصير -كما يدعي الملاحدة- عرضًا تطوريًّا حادثًا لا تعبأ به الطبيعة ولا تهتم به كالحيوان تمامًا وبالتالي يفقد الإنسان إنسانيته وينسى نفسه.

والصورةُ الأخرى للحياةِ بدون دينٍ هي أن يكون الشخص غير مؤمنٍ إيمانًا عمليًّا بمعنى أنّه يعيش حياته بعيدًا تمامًا عن الدين -وكأنه إن صح التعبير إلحاد عملي- على الرغم من إقراره الداخلي وإيمانه النظري بالله والدين والغاية من الخلق إلّا أنّه انشغل عنها بتفاصيل الدنيا اليوميّة والاستغراق فيها؛ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣].

ومثل هؤلاء يقول الله يوم القيامة موبخًا لهم على ضياع السنين: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤].

٥) **ضمان الحفاظ على الصّحة النّفسيّة للإنسان،** حيث نجد أنّ المتدينين أفضل حالًا من الملحدين واللادينيين في جانب الصحة النفسية والشعور بالاطمئنان والسلام الداخلي لأنّ مجرد الشعور بوجود قوة عليا تراقب وتعتني وتحمي وتربّي وتهدي وترشد وتتدخل في مسار الأحداث الأرضية يجعل المؤمن يشعر بمزيدٍ من الراحة والهدوء لأنّه في النهاية هناك من يلجأ إليه في النوازل مستعينًا به على قضاء الحوائج وهو قادرٌ على ذلك في مقابل الفراغ الروحي لدى الملحد المُسبب للإحساس المتواصل بالخوف والقلق والشعور بالوحدة أمام تلك الطبيعة الصّمّاء التي لا تسمع نداءً ولا تجيب دعاءً ولا تُدرك معاني الرحمة والشفقة والعدل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

ويتأكّد مدى تأثير الدين على الصحة النفسية للإنسان كلّما تعرّض إلى ظروفٍ صعبة وابتلاءاتٍ شديدة كان فيها قريبًا من الموت لأنّه حينها يكون أقرب إلى مصارحةِ نفسه للتوصّل إلى الحقيقة البعيدة عن التحيُّزات والسفسطة والأهواء فلا يجدّ من نفسه بُدًّا إلّا اللجوء إلى الله والفرار إليه وإلى رصيد الفطرة الكامن في النفس البشريّة بعيدًا عن السفسطة والجدل العقلي العقيم لأنّه (لا يوجد ملحدون في الخنادق) كما يقول المثل الإنجليزي الشهير.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢].

إنّ الإيمان بالدين والرسالات هو الطريق الوحيد للوصول بالإنسان إلى حالة التصالح النفسي الداخلي مع الذات بما تحمله من أسئلة وجودية وقلق معرفي، والتصالح النفسي مع المجتمع حوله بما يحمله من مشاكل وخلافات ومنازعات، وأيضًا الهدوء النفسي في تعامله مع الطبيعة من حوله بما تحمله من ظواهر تُشعره بالرهبة الدائمة والخوف من المجاهيل.

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي:

"الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئًا"[١].

إنّ الإنسان في الحقيقة لا يستطيع الوصول إلى تلك المعاني بالقدر الكافي لتحقيق الصحة النفسية إلّا من خلال الدين والإيمان بالتواصل الإلهي مع البشر، ولا يكفي

(١) مختصر دراسة التاريخ (٣/ ١٧٩).

لتحقيق ذلك مجرد الإيمان الربوبي الذي يقرّ بوجود الإله خالقًا للكون وواضعًا لقوانينه ولكنّه لم ينشغل به بل تركه يعمل دون تدخلٍ أو اهتمام، وهو بذلك ينفي الرعاية الإلهية بالبشر والتواصل معهم وبالتالي يُنكر جميع الأديان.

٦) حاجة الإنسان الفطرية الضرورية إلى التوجه إلى فاطره وإلهه ومعرفة مراده منه

كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠]، وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[(١)]، فالنفس البشرية رُكبت على النحو من فطرية الدين، وقد اقتضت حكمة الله أن خلق الإنسان وميّزه بالعقل واختصه بأمانة التكليف بخلاف سائر المخلوقات التي جبلت على الانقياد والطاعة. فخلق الله الإنسان خلقًا خاصًّا مؤهلًا، خلقه يسمع بأذنه ويقرأ بلسانه كتاب الله المسطور، ويرى بعينيه كتاب الله المنظور، ويدرك بعقله كل ذلك ويتفاعل معه ثم يختار بإرادته في النهاية ما يشاء بين طريقي الهدى والضلال، فكان من لوازم حكمة الله حينها أن يُرسل رسالته المشتملة على كلامه وإخباره عن صفات كماله وآثارها في الكون وحكمته من خلق الإنسان وغير ذلك. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢].

٧) القدرة على الوصول إلى التفاصيل الغيبيّة من خلال الدين فقط وليس بأي طريقٍ آخر كالحس أو العقل أو التجربة.

فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُطلعنا على بعض الأمور الغيبية التي نحتاج إلى معرفتها في حياتنا الدنيا حتى تتضح لنا الحكمة والغاية من الوجود والحياة فلا سبيل إلى ذلك إلا من خلال الرسل والرسالات، وبذلك تكون الرسالة الإلهيّة تحمل من الأمور الغيبية ما هو من الضروري معرفته لدى الإنسان كي يصل إليه تصور أكثر اتساقًا عن الحياة.

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

البشر عاجزون أيضًا عن التوصّل إلى الحقيقة المُطلقة في الكثير من الأمور والقضايا الطبيعية والإنسانيّة لأنّها -في أغلبها- خاضعة للاستقراء الناقص(١)، وهنا تأتي حاجة البشر للاتّصال مع الخالق الذي أوجد الكون كله على امتداد الزمان والمكان حتى يصل الإنسان إلى حقائق مُطلقة مُجاوزة للزمان والمكان يستطيع الوثوق فيها والاعتماد عليها في بناء تصور حقيقي عن الوجود والحياة دون أن يدخلها شكٌ أو ظن.

٨) عدم تحقُّق واكتمال العدل في الدنيا جعل من الضروري الإيمان بوجود رسالات من الإله إلى البشر للتأكيد على وجود حياة أخرى بعد تلك الحياة حيث القصاص فيكتمل فيها العدل، وإلّا فإنّ القول بعدم وجود تلك الرسالات يحمل بذلك وصفًا صريحًا للخالق بالظلم لأنّه ترك الناس هكذا دون تحقُّق العدل ودون استرداد الحقوق والمظالم.

فلولا الرسالات التي تخبرنا عن الإله العدل الديّان الذي يحاسب الناس ويقتص للمظلوم من الظالم والتي تخبرنا أيضًا عن دار العدل في الآخرة لصار وجود الظلم في الدنيا دون سبيل لاسترداد الحقوق وصفًا للحياة بالعبثية! وعليه فيستطيع المؤمن أن يفسر وجود الظلم ويفقه كيف يتعامل معه من خلال الرسالات. وليس بأنّها سببٌ فيه كما يدّعي الملاحدة بأنّ الدين هو سبب كل الشرور وأنّه يسمم كل شيء(٢)، وكل ذلك يقتضي الإقرار اللازم المُسبق بوجود الإله، بمعنى أنّه طالما هناك إلهٌ موجود، وطالما أنّ العدل لم يكتمل في تلك الحياة الدنيا بل نجد أنّ البشرية تعيش في عالم مليء بثنائيات الظالم والمظلوم، القاتل والمقتول، الطائع والعاصي، الطيب والشرير، إذن لا بدّ من وجود رسالة

(١) الاستقراء الناقص هو أحد مناهج العلم التجريبي والذي يعني تعميم المشاهدات التي لاحظناها في حدود وإطار الزمان والمكان وتكوين قوانين ثابتة مطردة تحكمها، وبالتالي تكون جميع النتائج التي يصل إليها البشر محدودة وغير مطلقة ويدخل فيها الشك، وهذه مشكلة كبيرة تكلم فيها كبار فلاسفة العلوم أمثال كارل بوبر وغيره.

(٢) وهو عنوان كتاب لداعية الإلحاد كريستوفر هيتشنز (الله ليس عظيمًا، كيف يسمّم الدين كل شيء؟)، ولك أن تتخيّل مدى اللاموضوعية التي يتّصف بها هذا العنوان وغيره الكثير من شعارات الملحدين الجدد الذين أنكروا أي خيرٍ للأديان بل ونسبوا إليها كل الشرور في العالم!

من الإله تؤكّد كما قلنا على اكتمال العدل واسترداد الحقوق في اليوم الآخر ثمّ تكون بمثابة الفرقان بين الناس يُبيّن لهم أولًا الصواب والخطأ إما تأكيدًا أو تأسيسًا ثم بمثابة الميزان يُحاسبهم عليه.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢١-٢٢].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل:٦٤].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥].

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

هناك حُجة شهيرة استخدمها بعض الفلاسفة وعلماء الأديان الغربيين –وأشهرهم الكاتب المسيحي Lewis S.C. (١٨٩٨-١٩٦٣)– وأسموها بحجة الرغبة كدليلٍ على وجود الإله واليوم الآخر، وكان لكل منهم صياغته الخاصة لتلك الحُجّة ولكنها في المجمل تعني أنّ الشعور بالمتعة أو الاحتياج أو الرغبة في شيء ما هو دليلٌ على وجود ذلك الشيء، فمجرد شعور الرضيع الخارج لتوه من رحم الأم بالرغبة في الماء هو دليلٌ على وجود الماء، وبذلك يكون أيضًا شعور الإنسان بالرغبة في اكتمال العدل هو دليل على وجود العدل المطلق(الإله) ووجود يومٍ يكتمل فيه ذلك العدل (اليوم الآخر).

هذه الأسباب التي ذكرتها على ضروريّة الدين إنّما تُشكّل بمجموعها وتضافرها قناعةً يقينية بمدى حاجة البشر المُلحّة إلى رسل الله الحاملين رسالة السماء إلى الأرض، وهذا الاحتياج البشري يشمل كافة مستويات الاحتياج الروحي والنفسي والمعرفي والإنساني والاجتماعي والسلوكي، ولذلك كان الموقف الطبيعي للإنسان السوي الذي اكتمل وعيه وإدراكه هو موقف المحتاج بشدة لرسالة الله إليه، أما ذلك الموقف الرافض المنكر لرسل الله هو في الحقيقة الموقف الذي يدعو للعجب والاستنكار.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس:٢].

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٣].

ولذلك يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والرسالة ضرورية للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم لها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٣، ٩٤).

لو قمنا بملاحظة تلك الأسباب السابقة التي ذكرتها كدليل على ضرورة الدين سنجد أنها تتمحور حول فكرة مركزية الإنسان في الكون واختصاص الإله له تحديدًا بالإرادة والعقل والوعي وحب المعرفة والحكمة والبحث عنها وطرح الأسئلة، وبذلك كان من كمال حكمة الإله أن يختار هذا المخلوق (الإنسان) ويخصه باهتمام خاص من خلال التواصل معه وإرسال كلمته إليه عن طريق رسله، وأنه لا يمكن بحال فهم وتفسير الظواهر والأسئلة الوجودية مثل سؤال المعنى من الحياة بمعزل عن فكرة الدين والرسالات.

مصطلحات (الأخلاق والمعيار والغاية والمعنى والحكمة والإرادة والقيمة والجمال والتضحية والعاطفة والروح والعقل واللغة والوعي) هي مصطلحات لا يُمكن الاستغناء عنها في الواقع والحياة فهي مُفسّرة للسلوك الإنساني والاجتماعي، ولا يُمكن فهم الوجود والإنسان والحياة إلّا بها، وفي الوقت ذاته فهي جميعًا مصطلحات دينيّة لا تنتمي إطلاقًا للعالم المادي بل هي مجاوزةٌ ومفارقةٌ للطبيعة الماديّة.

حقيقةُ الإنسان أنّه كائنٌ مركّب لا يُمكن تفسيره وادراكه من خلال الجانب المادي فقط، ولكنّه كائنٌ مُجاوزٌ لتكوينه وقالبه المادي الضيق متصلٌ بشكلٍ ما بالسماء منذ لحظة النفخة العُلوية الأولى.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩].

إنّنا نستطيع أن نصف القول بوجود رسالات إلهية بأن قدرته التفسيرية على تفسير الظواهر والألغاز الوجودية أعلى بكثير جدًّا من الفرضية الأخرى القائلة بعدم وجود تلك الرسالات الإلهيّة، بل إن الأمر أوضح من ذلك، فببساطة شديدة الحقيقة الأولى تصلح لتفسير تلك الظواهر باتساق تام، والفرضية الثانية لا تصلح لتفسير الكثير من تلك الظواهر الوجودية!، ولذلك نجد أنّ الدين كان مكونًا أساسيًا لدى جميع الحضارات البشرية على امتداد التاريخ المكتوب، فحتّى وإن وُجد بعض الأفراد القلائل المُنكرين

للدين إلّا أنّ جميع أهل الأرض هم من المؤمنين بالإله والأديان بشكلٍ أو بآخر كما يقول المؤرخ الشهير (ويل ديورانت) صاحب موسوعة قصة الحضارة: ولا يزال الاعتقاد القديم بأنّ الدين ظاهرة تعمّ البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا، وهـذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق النفسية والتاريخية[1].

قديمًا تكلم أرسطو عما يسمى بالعلل الأربعة، وقال أن أي منتج لا بد أن يكون نتيجة لأربع علل وهي العلة الفاعلة والعلة الماهية والعلة الغائية والعلة المادية.

فلو ضربنا مثالًا على ذلك بالحاسوب فسنجد أن لديه علة فاعلة وهو صانع الحاسوب، وعلة ماهية أو صورية وهو التصور الذهني للحاسوب في عقل الصانع قبل الشروع في صناعته، والعلة الغائية وهي الغاية أو الهدف الذي أراده الصانع من ذلك الجهاز الجديد، ثم في النهاية العلة المادية وهو الوجود الفعلي الحقيقي للحاسوب.

وباعتبار أن الكون منتج له وجود حقيقي نستطيع أن نطبق عليه علل أرسطو الأربعة وسنجد أن له أيضًا علة فاعلية وهو الخالق، وعلة ماهية وهو التصور الموجود عند الصانع لهذا الكون قبل وجوده، وعلة غائية وهي معلومة قطعًا عند العلة الفاعلة (الخالق) قبل أن يوجد ذلك الكون، وعلة مادية وهو خلق الكون ووجوده الفعلي.

ما أريد أن أصل إليه تحديدًا من خلال نظرية العلل الأربعة تلك أن الغاية من خلق الكون والإنسان معلومةٌ عند الإله الخـالق، وبالتالي يظل التعريف الدقيق للإنسان بأنه الكائن المنتظِر[2] لإجابة السماء عن سؤال المعنى من الحياة هو التعريف الأقرب إلى قلبي لأنه معبر عن حالة كامنة في اللاوعي الجمعي البشري.

---

(١) قصة الحضارة للمؤرخ الأمريكي ويل ديورانت (١/ ٩٩).

(٢) حالة الانتظار هي وصف لتلك الحالة الخاصة التي يتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات منذ اللحظة الأولى لإدراكه ووعيه للكون من حوله، فهو الكائن المنتظِر رسالةَ السماء، وموقف انتظار رسالة السماء هو أيضًا =

إن وجود مظاهر التعقيد في المنتج هو دليل على وجود غاية وهدف من هذا المنتج، فعلى سبيل المثال لو وجدت قطعة معدنية مستوية تتكون من شاشة وسماعات ولوحة مفاتيح وأحرف وفتحات للشحن الكهربائي، فإنني سأُدرك حينها أن هذا المنتج ليس فقط له صانع بل وله أيضًا غاية وهدف يعلمها ذلك الصانع، وسيكون السلوك المنطقي التالي هو البحث للوصول أولًا إلى تلك الغاية.

وإذا عثرت أثناء بحثي على كتالوج أو كتاب تعليمات من الصانع يشرح فيه الغاية من المنتج ووظيفته فسيكون من العبث بعدها أن أستمر في البحث خاصة إذا كانت هذه الغاية المذكورة في الكتاب متسقة مع إمكانيات المنتج وأدواته.

وعلى ذلك المنوال نجد أن الكون آلة عظيمة تحوي كمًّا هائلًا من التعقيد والنظام، ولذلك لا بد وأن لها صانعًا كما أن لها غاية وهدفًا.

خلاصة الحديث أن لكل منتج غاية معلومة عند صانعها، وبذلك يكون لوجود الطبيعة الصمَّاء غاية معلومة عند صاحبها، ويزداد تحقق اليقين في وجود تلك الغاية عندما يكون ذلك المنتج كائنًا واعيًا مدركًا قادرًا على فهم الكون واستيعابه والتوصل إلى قوانينه كما ذكرت.

ولكن إذا كان للحياة معنى ولخلق الإنسان غاية وهدف، فما هي تلك الغاية؟

كما ذكرنا سابقًا أنه للإجابة الصحيحة على ذلك السؤال لا بد من الاتصال أولًا مع الخالق، ولذلك نكرر ونؤكد ضرورية إرسال تلك الرسالة الإلهية إلى عالم البشرية.

الآن أصبح محل البحث الحقيقي ليس هو السؤال عن وجود غاية من عدمها، وإنما محل البحث هو: ما هي تلك الغاية؟

= الموقف المعبر عن ذلك القلق الوجودي الإنساني حيث خلق الله ذلك الإنسان خلقًا خاصًّا مركبًا ومنحه العقلَ والإدراك والقدرة على الاختيار وأوجده في عالم مليء بالأسئلة وتحكمه ثنائيات الصواب والخطأ والخير والشر.

بعبارة أدق: ما هي تلك الرسالة الحقيقية الصحيحة من وسط هذه الرسالات الموجودة في العالم والتي تدعي أنها رسالات إلهية من الله إلى البشر؟!

وهذا ما سيجيب عنه الكتاب إن شاء الله.

- **قواعد تأسيسية:**

هناك بعض القواعد والأصول والتي من الضروري التأسيس لها أولًا كي يتم استحضارها واصطحابها أثناء الكتاب، ويرجع ذلك إلى مدى أهميتها في كثير من طرق ومسالك الاستدلال على صدق الإسلام، وهذه القواعد هي:

- الإله موجود.

وهذه تقوم على بدهية عقلية ضرورية وهي السببية، فلكل حادث محدِث ولكل مصنوع صانع، ومن يجد في نفسه شكًّا أو إشكالًا مع تلك المعرفة الفطرية فليبحث فيها أولًا حتى يصل إلى قرار قبل أن يُكمل قراءة هذا الكتاب[1].

- الإله يتصف بصفات العلم والخبرة والحكمة والعدل.

الإله خلق هذا الكون على هيئة عظيمة من الإتقان والإحكام والدقة حيث الكم الكبير من الثوابت الفيزيائية والكونية والتي كثيرًا ما يتحدث عنها الفيزيائيون مثل ثابت الجاذبية وثابت سرعة الضوء والثابت الكوني وثوابت بلانك وغيرها والتي لو اختلفت قيمة أحدها قليلًا لتغير الكون وأصبح غير صالح لنشأة الحياة واستقبال الإنسان، أضف إلى ذلك تركيز الغازات في الغلاف الجوي الأرضي، والمسافة المثالية بين الشمس والأرض، وميل الأرض عن محورها بهذه الدرجة الدقيقة والتي نتج عنها الفصول الأربعة وغيرها

---

(١) هناك الكثير من الكتب في المكتبة العربية والأجنبية تتحدث عن الأدلة على وجود الخالق ومن أهمها:
- شموع النهار للمهندس عبد الله العجيري.
- قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر.
- الإلحاد للمبتدئين للدكتور هشام عزمي.
- يوجد إله للسير أنتوني فلو -داعية الإلحاد السابق-.
- الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من علماء الغرب.

الكثير والكثير من الأمثلة على صنع الله المُتقن والمُحكم في هذا الكون، وهي ما يسميها الغرب الضبط الدقيق أو المعايرة الدقيقة للكون fine tuning، وعندما يريدون الربط بين تلك المعايرة الكونية ودورها في تمهيد الأرض لاستقبال الإنسان واستمرار الحياة فإنهم يطلقون عليها المبدأ البشري[1] anthropic principle.

وكما هو معلوم فإننا نستطيع التعرف على صفات الصانع من خلال النظر في صنعه، فمن خلال النظر في هذا الكم من العلم والخبرة والدقة والإتقان في ذلك الكون البديع، ومن خلال التوصل إلى تلك القوانين والنواميس التي تحكم ذلك الكون بميزان دقيق فإن كل ذلك يدل بالضرورة على أن من وراءه إله عليم حكيم قادر عادل يضع الأمور في موضعها الصحيح والدقيق.

- وجود الدين ضروري في حياة البشر.

فمن خلال النظر في حاجة البشر المعرفية والنفسية والروحية الشديدة إلى رسالة الإله إليهم نجد أنه من الضروري أن يتواصل معهم الإله من خلال الأديان والرسالات.

- الدين الحق لا بد أن يكون موجودًا الآن وسط الأديان المختلفة على صورته التي نزل عليها بلا تحريف ولا تدخل بشري، وهو واحد فقط لا أكثر.

من الواضح والمنطقي أن رسالة الله إلى البشر لا يمكن أن تتناقض أو يُكَذِّب بعضها بعضًا لأن الحق واحد وليس بمتعدد، وبالنظر إلى الأديان الموجودة الآن سنجد أنها مختلفة في أصولها الكلية وتصوراتها عن الإله فلا بد إذن أن الدين الحق الذي أنزله الله هو قطعًا واحد فقط من بين تلك الأديان الموجودة الآن.

---

(١) من الكتب التي تحدثت عن الضبط الدقيق للكون: كتاب (قدر الطبيعة) لمايكل دنتون، وكتاب (الفيزياء ووجود الخالق) لمصطفى نصر قديح.

ولا يمكن أيضًا أن يقول قائل لعل كل هذه الأديان باطلة ورسالة الله لم يعد لها وجود من الأساس لأن الحكمة الإلهية لم تتحقق بمجرد إنزال الإله للرسالة إلى رسوله فقط وإنما تتحقق الحكمة عندما تصل رسالة الله إلى الناس لحاجتهم الشديدة إليها ولتكتمل الغاية الإلهية من وجود الإنسان.

- الأدلة على صدق الدين الحق والرسالة الإلهية لا بد أن تكون ظاهرة وواضحة.

فإن ذلك من لوازم عدل الله وحكمته، فهو بالتأكيد يريد أن تتم حكمته وغايته من خلق الإنسان بالصورة الصحيحة المتسقة مع عدله ورحمته ليحيى من حيَّ عن بينة وليهلك من هلك عن بينة، ولا يريد التلبيس على الناس وإخفاء الحقيقة عنهم ويتأكد ذلك كما قلت عندما تكون حاجتهم إلى تلك الرسالة الحقيقية حاجة ضرورية ملحة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥][(١)].

---

(١) الآية هنا ذكرت وصفين لرسالة الله أحدهما كيفي والآخر غائي، أما الكيفي فهو كونها رسالة بينة وأدلة صدقها واضحة، وأما الغائي فهو أنها نزلت لتكون ميزانًا للناس يميزون به بين الحق والباطل.

الباب الأول

رسول الله

تمهيد

ظاهرة النبوة

يتحدث المفكر الإسلامي مالك بن نبي في كتابه (الظاهرة القرآنية) واصفًا قضية النبوة بأنها:

"ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية ذاتها يعد شاهدًا علميًّا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها"[١].

والمراد من هذا الكلام أن هناك أمورًا وقضايا مشتركة يجتمع عليها جميع الأنبياء وهي التي تُعطي وتُشكل الملامح الأساسية المشتركة أو القانون العام لظاهرة النبوة ثم يبقى بعدها فقط بعض التحققات الإضافية التي تميز كل نبي عن الآخر، ولذلك يكمل مالك ابن نبي حديثه عن مبدأ النبوة قائلًا:

"فإن تكررها -أي الحالة النبوية- في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية، ويبقى علينا أن نبحث في ماهية هذا التكرار لكي نستخلص من صفاته الخاصة القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها"[٢].

هذه الملامح المشتركة المميزة لظاهرة النبوة عن غيرها منها ما هو خاص بالمضمون مثل الحديث عن توحيد الله وصفاته والحديث عن الوحي والعبادة وكيفيتها ويوم القيامة والجنة والنار، كما أن منها ما هو خاص بشخص النبي ذاته مثل تأييد الله له بالآيات والمعجزات والبشارات وأيضًا الصفات المشتركة لشخوص الأنبياء مثل الصدق والأمانة،

---

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي طبعة (دار الفكر/ دمشق) ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ٨٧.

وتكرار حدوث ظاهرة النبوة كما ذكرنا هو في الحقيقة شاهد علمي لها في الواقع[1]، وبالتالي يمكن قياسها واختبارها إذا ما ظهرت مرة أخرى من خلال محاكمتها بالملامح والصفات المشتركة لظاهرة النبوة، ومنها نستطيع بسهولة الحكم عليها بالصحة أو البطلان.

ويمكننا وصف ظاهرة النبوة باستخدام لغة فلسفة العلم ومصطلحاته بأنها ظاهرة قابلة للقياس والاختبار في كل مرة تظهر فيها، وبالتالي يمكن إخضاعها لمعيار قابلية التخطئة Falsifiability الذي تكلم عنه فيلسوف العلم الشهير كارل بوبر[2] والذي من خلاله يمكننا تمييز المعرفة الصحيحة من الزائفة، فإنَّ خطأً واحدًا لو تم ملاحظته بالتجربة يكفي للحكم على النظرية بالخطأ وعدم صلاحيتها كتفسير للظاهرة، لكن في المقابل كلما زادت التجارب الصحيحة ازداد معها اليقين في صحة تلك النظرية وفي قدرتها التفسيرية.

ونستطيع أن نقول إن النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفق هذا المعيار الدقيق تتحقق فيه جميع الملامح والسمات المشتركة لظاهرة النبوة بدءًا من الكلام عن توحيد الله وصفاته والوحي والقيامة والجنة والنار والتأييد بالآيات والمعجزات والبشارات والنبوءات والثمرات وأيضًا الصفات الشخصية كالصدق والأمانة وحسن الخلق، كما أن تلك الملامح المميزة لظاهرة النبوة لم تنخرم ولو مرة واحدة، وبذلك تكون ظاهرة النبوة متحققة بكافة ملامحها بشكل واضح في شخص النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) معيار القابلية للتخطئة أو التكذيب Falsifiability هو معيار علمي دقيق أسس له فيلسوف العلوم الشهير كارل بوبر ليتمكن من خلاله التمييز بين العلم الحقيقي والزائف، حيث إن العلم الحقيقي لا بد أن يكون قابلًا للاختبار وللتخطئة بخلاف العلوم الزائفة.

ومن أشهر الأمثلة على معيار القابلية للتخطئة مثال البجع الأبيض، فإذا كان معلومًا لدى المجتمع العلمي من خلال استقراء لون البجع أن جميع البجع لونه أبيض، فإن هذه العبارة قابلة للتخطئة، فبمجرد ملاحظة بجعة واحدة غير بيضاء فإن هذا سيثبت خطأ النظرية، وفي المقابل كلما لاحظنا مزيدًا من البجع الأبيض فإن هذا يزيد من صحة النظرية.

لذلك نجد القرآن كثيرًا ما يؤكد على ذلك المعنى واصفًا دعوة النبي محمد بأنها امتداد طبيعي لظاهرة النبوة ولدعوة الأنبياء من قبله.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

وخلاصة القول: أن النبوة ظاهرة موضوعية مستقلة تمامًا عن الذات الإنسانية التي تُعبر عنها؛ فهي جزء مشترك عند جميع الأنبياء له ملامح ومحددات ثابتة وهو مدلول مباشر لكلمة ولفظ النبوة أصلًا، ولكنها عندما تتحقق في نبي بعينه فإنها تكتسب صفات وملامح زائدة إضافية مميزة لهذا النبي عن غيره من الأنبياء، وهذه الملامح الزائدة ليست هي المعيار الحاكم على ظاهرة النبوة صحة وبطلانًا، ولكن المعيار الحاكم هو هذه الصفات المشتركة لظاهرة النبوة كما ذكرت سابقًا.

الفصل الأول

صفات النبي

إن التفكر في صفات النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرائن أحواله هو من أعظم الأدلة الدالة على صدقه، ولذلك أمر الله البشر جميعًا بالنظر والتفكر في حال النبي وصفاته كدليل على صدقه؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف:١٨٤]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

يقوم هذا الدليل في الأساس على فكرة وضوح وسهولة التفريق بين النبي الصادق ومدعي النبوة الكاذب، ولا أقول إمكانية التفريق بل سهولته ووضوحه لكل من تفكر وتدبر قليلًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«التمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة، ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم»[١].

ويقول ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما»[٢].

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية (ص١٣٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٤٠).

ومعنى هذا الكلام أن الشخص الذي يدعي أنه نبي فهو بين أمرين لا ثالث لهما، إما أن يكون صادقًا في دعواه فيكون نبيًّا بحق وهذا قطعًا سيكون أصدق الصادقين طوال حياته، وستأتي جميع مواقفه وسيرته لتؤكد ذلك، وإما أن يكون كاذبًا في دعواه فهو حينها يكذب على الله في أشد ما يكون الكذب، إنه يكذب في أمر الوحي بتقَوّله على الله، فهذا سيكون أكذب الكاذبين، ولن يسلم ذلك الشخص من افتضاح أمره خاصة مع كثرة المواقف والأحداث التي يمر بها ويتفاعل معها بالإضافة إلى كونه محور اهتمام ونظر الناس من حوله لادعائه النبوة.

ولمزيد من التوضيح لتلك المسألة فإن المقارنة بين هاتين الحالتين (أصدق الصادقين) و(أكذب الكاذبين) لو عبرنا عنها بصيغة رياضية تمثل نسبة الصدق التي يتمتع بها كل منهما فإنها ستكون أشبه بالمقارنة بين النسبة ١٠٠٪ والنسبة ٥٠٪، وهما بعيدان عن بعضهما كل البعد بالقدر الكافي لعدم وقوع اللبس أو الخلط في عقل أي عاقل إلا إذا كان أجهل الجاهلين على حد وصف شيخ الإسلام.

إن السلوك الفطري البشري للحكم على شخص معين بالصدق أو الكذب هو النظر في قرائن حال ذلك الشخص ومواقفه التي مر بها وكيف كان حاله وتعامله مع تلك المواقف، فإن كان صادقًا فيها والمواقف تشهد له بذلك فإننا نحكم بصدقه ونقبل منه الخبر.

وإننا إذا نظرنا في حياة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بدايتها إلى نهايتها ونظرنا في قرائن أحواله فإننا لن نجد فقط أنه كان صادقًا بل إنه في الحقيقة لم يُعرف عليه كذبة واحدة فقط ولو كانت مزاحًا، مع العلم أن النبي محمد هو الشخص الوحيد في تاريخ البشرية الذي نُقلت وحفظت سيرته كاملة موثقة بالأسانيد.

لا يوجد في تاريخ الدنيا بأسرها من استطاع أن يُخفي كذبه على الناس طيلة حياته لأن القرائن والمواقف والدلالات التي من خلالها نستطيع اختبار صدق الشخص أو كذبه كثيرة جدًّا خلال حياة الإنسان، ويتأكد ذلك عندما تزداد المواقف والتجارب التي يمر بها

الشخص ويتعامل فيها مع غيره من الأشخاص المحيطين به، كما يتأكد أيضًا مع ازدياد شهرة الرجل وأهميته وسط قومه المحيطين به لكونه محور اهتمامهم وتحت نظرهم دائمًا يراقبون مواقفه ويتابعون أخباره لعلهم يلحظوا منه شيئًا قد يثبت لهم كذبه أو عدم أمانته؛ لأنه (**ما أسر أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه**)(١).

كل هذا بالطبع يجعل الحكم على الشخص بالصدق أو الكذب أكثر سهولة وأكثر دقة أيضًا، فمع زيادة المواقف والتجارب والاحتكاكات والأحداث تزداد احتمالية حدوث الكذب من الشخص، وفي حالة النبي محمد فإن المواقف والأحداث والتجارب التي حدثت له كثيرة جدًّا وقد حدثت في ظروف مختلفة وتم نقلها جميعًا بالأسانيد الموثقة مع كونه دائمًا محل ومحور نظر الناس حوله لشهرته واهتمامهم بأمره ومتابعتهم لمواقفه وكلامه بل وتدوينهم لأخباره أيضًا، أضف إلى كل ذلك وجود من يتربص به من الكفار والمنافقين الذين ينتظرون منه أي خطأ ليُسقطوا به دعوته فهم يعلمون أن حدوث الكذبة الواحدة من النبي تُنهي القضية بأسرها وتنقض قصة الوحي والرسالة برمتها.

وعلى الرغم من توافر كل تلك الفرص والاحتمالات التي تؤدي أحيانًا إلى وقوع شيء من الكذب من الشخص الصادق الذي غالب حديثه الصدق فضلًا عن أن يكون ذلك الشخص كاذبًا فضلًا عن أن يكون متقوِّلًا على الله أمرًا عظيمًا كأمر الوحي والرسالة وخبر السماء إلا أنه على الرغم من كل ذلك لم يُعرف عليه كذبة واحدة فقط!!

ومن الأمور المتفق عليها أن كثرة الأخبار الصحيحة عن فكرة ما تؤكد صحة تلك الفكرة؛ فإن الخبر الواحد من ذلك يُحدث في القلب والعقل ظنًّا كبيرًا، ثم يأتي الخبر الآخر ليقويه إلى أن يصل العلم بعد كثرة الأخبار إلى حد اليقين الذي يستحيل معه الظن فضلًا عن الشك.

---

(١) يروى هذا الأثر عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٨٧)، تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢١).

والأخبار التي رُويت -تؤكد صدق النبي- حتى وإن كان الخبر الواحد منها يعتبر من أخبار الآحاد الصحيحة والتي تفيد العلم النظري إلا أنها بمجموعها قد بلغت حد التواتر المعنوي وهي بذلك تفيد اليقين بصدق الرسول.

ولقد أكد الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مدى صحة وموثوقية تلك الأخبار الواردة عن صفات النبي فقال:

"ليس في التاريخ العربي كله من جُمعت صفاته وأُحصيت شمائله وتواتر النقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثق إسنادها غير النبي"[1].

فهيا بنا نطالع طرفًا من هذه الأخبار التي تؤكّد صدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمانته وحُسن صفاته:

- **تلقيب النّبيّ (قبل البعثة) من أهله وقومه بالأمين،** فعن مجاهد عن مولاه أنه حدّثه أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية؛ حتى بلغنا موضع الحَجر وما يرى الحجر أحد فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه، وقال آخرون: نحن نضعه، فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].
- **موقف جبل الصفا، فعن** ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّه قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، صعد النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» -ينادي على بطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي (طبعة دار الكتاب العربي) ص ٢٨٨.
(٢) مُسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤/ ٢٦٢)، ط مؤسسة الرسالة- بيروت، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون.

«**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1].

ومحل الشاهد هنا هو قول أهل قريش المجتمعين عند جبل الصفا جميعًا: ما جربنا عليك كذبًا، فكان ذلك القول بمثابة الإجماع من أهل قريش -الذين عرفوا النّبي محمد وعايشوه- على صدقه وترفُّعه عن الكذب مع عدم وجود أي أحدٍ منهم قد اعترض على ذلك الإجماع.

في هذا الموقف أخبر النبي قريشًا أمرًا غيبيًّا بالنسبة لهم بل ومُستبعدًا، وهو أن هناك جيشًا خلف الجبل يُريد الهجوم عليهم، وعلى الرغم من أن هذا الخبر غير متوقَّع تمامًا إلا أنهم جميعًا لم يترددوا أبدًا في تصديقه، ثم نقلهم النبي بعدها مباشرةً إلى السبب والخبر الحقيقي الذي جمعهم لأجله -وهو أيضًا أمر غيبي من جنس ما أخبرهم به منذ قليل- وهو أنه رسول من الله يُنذرهم بعذاب الله، حينها سكت القوم قليلًا ثم انقسموا بين ناظر للموقف مُتدبر له، وبين عاجز جاحد ألجمته الحجة ولكن الله أعمى بصيرته وختم على قلبه فما كان منه إلا أن ظل يسب النبي قائلًا: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!

والحقيقة أن هذا السكوت وذلك السُباب ما هو إلا تأكيد بلسان الحال للموقف الذي أجمعوا عليه منذ قليل بأن هذا الرجل هو أصدق الصادقين.

الأوضح من ذلك أنه عندما أراد كفار قريش تشويه الرسول وإسقاط دعوته لم يجرؤوا أن يصفوه بالكذب لعلمهم بعدم جدوى ذلك وبعدم تصديق الناس لهم، على الرغم مع أننا لو فكرنا قليلًا لوجدنا أن الكذب هو التهمة المباشرة والمُناسبة لنقض دعوى النبوة، ولكن أهل قريش ما فعلوا ذلك وما استطاعوا لأن أحدًا لن يُصدقهم في دعواهم هذه!

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

لكن قريشًا عوضًا عن ذلك وصفوه بالسحر تارة وبالكهانة تارة أخرى وأحيانًا بالجنون، ومنهم من عجز عن مجرد التفكير في وصف يصد الناس عن دعوته فلم يجد أمامه طريقًا إلا السب واللعن.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

- **الحوار الذي دار بين هرقل ملك الروم وأبي سفيان بن حرب (وكان حينها لايزال كافرًا)**، حيث أنّ هذا الحوار يُؤسّس منهجيّةً علميّةً دقيقةً للتمييز بين النّبي الصادق ومدّعي النّبوة الكاذب من خلال بعض الأسئلة المعيارية التي سألها هرقل أبا سفيان.

ولا بُدّ من التنويه هنا إلى أنّ هرقل كان من أهل الكتاب، وبالتالي فقد كان يعلم الكثير عن صفات الأنبياء وظاهرة النبوة وخصائصها المُميّزة لها عن غيرها، وكان هذا واضحًا بالفعل من خلال المواضيع التي تطرّق إليها في أسئلته لأبي سفيان.

ولقد قمت باستخراج تلك الأسئلة التي طرحها عظيم الروم -كما وردت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[1]- على هيئة عناصر مقرونة بإجاباتِ أبي سفيان عليها من أجل سهولة التعامل معها والتفكّر فيها على النّحو التالي:

- كيف نسب الرسول فيكم؟

فقال أبو سفيان: إنه فينا ذو نسب.

فقال هرقل: كذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.

- هل قال هذا القول أحد قبله؟

فقال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.

---

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

- هل كان أحد من آبائه من ملك؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: فلو كان من آبائه من ملك، لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

- هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ذلك؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

فقال هرقل: وهم أتباع الرسل.

- أيزيدون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزيدون.

فقال هرقل: وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

- أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب.

- هل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقل: وكذلك الرُسل لا تغدر.

- بما يأمركم؟

قال أبو سفيان: أن نعبد الله ولا نُشرك به شيئًا وينهانا عن عبادة الأوثان ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف.

فقال هرقل: فإن كان ما تقول حقًّا فَسَيَمْلِكُ موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه!

هذه المعايير الدقيقة لتمييز النبي الصادق من المدعي الكاذب والتي أسس لها هرقل من خلال تلك الأسئلة هي في الحقيقة معايير عقلية تقوم على أسس منطقية، فمثلًا تعليق هرقل بعدما أجابه أبو سفيان بنفي تهمة الكذب على النبي قائلًا (وهو محل الشاهد): ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. هو في الحقيقة حجة عقلية تقوم على قاعدة منطقية شهيرة وهي (قياس الأولى) (١)، فإذا كان النبي قد ترفّع وترك الكذب على الناس فمن باب أولى أنه يترك الكذب على الله.

- **الحوار الذي دار بين النّجاشي ملك الحبشة وبين جعفر بن أبي طالب في وجود عمرو بن العاص(والذي كان لا يزال على الكفر حينها)**، حيث إنّنا نجد أنّ هذا الحوار يُؤسّس أيضًا لصدق الرسول ببراهين عقليّة، وأساس البرهان فيه أنّ صفات الرسول وأولوياته ومُنطلقات دعوته تؤكّد لكل من عنده علم بظاهرة النبوة -كالنّجاشي فقد كان من أهل الكتاب أيضًا- أنّ محمدًا ما هو إلّا امتداد لها (أي لظاهرة النّبوة)، فدعوتُه أساسها التوحيد الخالص ونبذ الشرك ونبذ اتخاذ الوسطاء بين الله والعبد ثمّ تظهر

---

(١) قياس الأولي هي حجة منطقية مشهورة؛ فمثلًا إذا كان شخص يستطيع السير مسافة ١٠كم فمن باب أولى يستطيع السير مسافة ٧ كم.. وقد استخدم القرآن هذه الحجة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].. فإذا كان الله قد خلق الخلق أول مرة من العدم فبقياس الأولى يكون قادرًا على إعادته؛ لأن الإعادة أهون من الخلق أول مرة بغير مثال سابق.

تجليات تلك العقيدة (التوحيد) في المناحي الاجتماعيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة، وبالتالي هي من جنس ما كان يدعو إليه الأنبياء من قبل.

قال جعفر للنجاشي كما في مُسند الإمام أحمد[1] والذي روته أم سلمة حيث كانت ممن هاجروا إلى الحبشة وشهدوا ذلك الحوار: (أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحَرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك).

فسأله النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فأجاب جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم لم يتردد النجاشي في نهاية الحوار من خلال علمه المسبق بظاهرة النبوة وقياسه على

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/ ١٨٠).

ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة**».

يتضح من هذه القصة وهذا الحوار بين النجاشي وجعفر كيف أن صفات النبي وطريقته ومنطلقات دعوته وأولوياته وهمومه متسقةٌ تمامًا مع العقل والفطرة وهي من جنس هموم ومنطلقات وأولويات الأنبياء من قبل، ولذلك يصدُق على تلك الواقعة قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤][1].

(١) جاء في تفسير السعدي (٧٣١): «والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم. وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كعبد الله بن سلام وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائه، ومن بعدهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه. فإذا كان موجودًا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد. ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعًا واختيارًا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل الكتاب. فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي، ترويجًا لملكهم، وتمويهًا لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة» اهـ.

من هنا كان العلم بظاهرة النبوة هو السبب والدافع وراء دخول الكثير من أهل الكتاب في الإسلام أمثال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والنجاشي وورقة بن نوفل وعدي الطائي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم الكثير، وإيمان هؤلاء بصدق النبي محمد كان لعلمهم الجيد أولًا بظاهرة النبوة بالإضافة إلى معرفتهم بصفة النبي المبشر بها في كتبهم؛ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

- **شهادةُ المُحيطين بالنّبي والملازمين له وأقرب النّاس إليه سواء من أهل بيته أو أصدقائه المُقربين على صدقه وحُسن صفاته،** فمن المعلوم أنّ أكثر الناس معرفةً بحال الشخص وصفاته وحقيقة أمره هم أقرب الناس إليه وأكثرهم ملازمةً له سواء كانوا من أصدقائه المُقربين أو من أهل بيته، ولذلك كان من المهم جدًّا عند دراسة شخص الرسول والتفكّر في حاله أن نستمع إلى تلك الشهادات من أولئك المُقربين أمثال صاحبه أبي بكر الصديق وزوجاته عائشة وخديجة وخادمه أنس بن مالك الذي ظلّ مُلازمًا له قرابة العشر سنين وأيضًا شهادة ابن عمه وزوج ابنته وأحد المُقربين منه وهو علي بن أبي طالب، وغيرهم من صحابته المُقربين.

لذلك سأعرض الآن بعض تلك الشهادات حتى تتأكّد لنا تلك الصورة الذهنيّة عن حال النبي وصفاته وحقيقة أمره:

- **زوجته خديجة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وهي أول زوجات النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتي ظلّ معها وحدها دون أن يتزوج عليها حتى توفاها الله عَزَّ وَجَلَّ في السنة العاشرة بعد البعثة.

وكانت السيدة خديجة قد شهدت مع النّبي أول نزول الوحي عليه من السماء وذلك حينما أتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأول مرةٍ وهو يتعبّد وحده في غار حراء

فخشي النّبي على نفسه وعاد سريعًا إلى بيته ليجد زوجته خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا في انتظاره تُطمئنه وتُهدّئ من روعه وتُذكِّره ببعض جميل صفاته قائلةً له: «**كلا والله لن يخزيك الله أبدًا؛ إنّك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق**»[1].

هذه الصفات التي ذكرتها السيدة خديجة في أول يومٍ من بعثة النّبي من المهم جدًّا تدبرها والتفكّر فيها لأنها تُعبّر عن حقيقة حال النّبي التي تكونت لديها واتضحت من خلال معاشرتها له قبل البعثة أي في وقتٍ لم تكن فيه فكرة البعثة حاضرةً في الذهن وبالتالي لم يكن هناك أي داعٍ عند النبي حينها للتكلف ولتحسين صورته حتى يُثبت لمن حوله أنّه نبي معصوم أو أنّه شخص استثنائي، بل هي طبيعته وسجيّته وحقيقة أمره.

- **زوجته عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنهَا:

من المعلوم أنّ عائشة كانت أحبّ نساء النبي إليه وأقربهم إلى قلبه، وكان قد مات صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في يومها وفي بيتها وبين سحرها ونحرها (أي على صدرها)[2] ثمّ دُفن في حجرتها إلى يومنا هذا.

ذلك القرب بين الرسول وعائشة جعلها ترى منه ما لا يراه الناس بحكم كونها زوجته وحبيبته فمن المعلوم أنّ الإنسان يكون أكثر ما يكون على طبيعته وسجيته مع زوجته ويتأكّد ذلك عندما تكون تلك الزوجة قريبةً إلى قلبه ومحلَّ ثقته.

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٤٩)، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أنّها قالت: إنَّ مِن نِعَمِ الله عَلَيَّ أنَّ رَسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تُوُفِّيَ في بَيْتِي، وفي يَومِي، وبيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي، وأنَّ اللهَ جَمع بيْنَ رِيقِي ورِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عبدُ الرَّحْمَنِ، وبيَدِهِ السِّوَاكُ، وأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إلَيْهِ، وعَرَفْتُ أنَّه يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فأشَارَ برَأْسِهِ: أنْ نَعَمْ فتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عليه، وقُلتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فأشَارَ برَأْسِهِ: أنْ نَعَمْ فَلَيَّنْتُهُ، فأمَرَّهُ، وبيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أوْ عُلْبَةٌ -يَشُكُّ عُمَرُ- فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ في المَاءِ فَيَمْسَحُ بهِما وجْهَهُ، يقولُ: «**لا إلَهَ إلّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يقولُ: «**في الرَّفِيقِ الأعْلَى**» حتَّى قُبِضَ ومَالَتْ يَدُهُ.

فماذا تُخبرنا إذن السيدة عائشة عن حال النّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

تقول عن أخلاقه في التعامل معها ومع غيرها: «**كان خُلقه القرآن**»(١)، وتقول أيضًا: «**لم يكن فاحشًا ولا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويصفح**»(٢)، وتقول عنه: «**ما انتقم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها**»(٣).

- **خادمه أنس بن مالك:**

وهو غلام ظلّ يخدم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرابة العشر سنين، ومعلوم أن الخادم غالبًا ما يكون في صدره شيء من سيده بسبب شعوره الدائم بدنو مكانته الاجتماعية أمام هذا الذي يأمره وينهاه، ولكن دعونا نستمع إلى شهادة أنس وحديثه عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يقول أنس: «**كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس**»(٤)، ويقول أيضًا: «**خدمتُ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرَ سنين فوالله ما قال لي: أُفٍّ قطُّ، ولا قال لشيءٍ فعلتُهُ: لمَ فعلتَ كذا ولا لشيءٍ لم أفعله ألا فعلتَ كذا**»(٥).

- **ابن عمه وزوج ابنته علي بن أبي طالب:**

وهو ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة وأحد المُلازمين له والمقرّبين منه دائمًا، ومعلوم ما هي المكانة العظيمة التي يتمتع بها علي بن أبي طالب في الإسلام، والتي نالها بحكم قربه من النبي وصحبته له، حتّى إن النبي اختاره كي ينام بدلًا منه على فراشه وقت الهجرة لتضليل المشركين الذين اجتمعوا لقتله.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٦)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) رواه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

يقول علي بن أبي طالب واصفًا حال النبي في موقف تظهر فيه معادن الرجال الحقيقيّة وهو موقف اشتداد القتال حيث القرب من الموت الذي يجعل المرء أقرب ما يكون من حقيقته وأبعد ما يكون عن التكلّف والتجمّل فيقول: «**كنا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم، اتَّقَيْنَا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه**»[1].

- **صديقه أبو بكر الصديق:**

وهو أقرب الناس إلى النبي وأكثرهم ملازمة له بلا منازع حيث أنّ المواقف بينهما كثيرة لدرجة أنّهما ضربا أروع الأمثلة في الصداقة والإخلاص والحب في الله، وتلك المكانة التي كانت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلب أبي بكر -والتي جعلته على أتمّ الاستعداد لكي يفديه بروحه وماله وأهله- من أسبابها ما رآه أبو بكر سلفًا من حال النّبي وجميل صفاته وحسن عشرته وصدقه وإخلاصه.

ففي يوم الإسراء والمعراج وبعدما حكى النّبي ما رآه في رحلته العجيبة التي وقعت له ليلًا حاول الكفار استغلال الموقف كي يُظهروا كذب النبي ويصدوا الناس عن دعوته وأيضًا ليفتنوا المسلمين في دينهم.

في ذلك اليوم جاء الكفار إلى أبي بكر قائلين له أنّ صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس، فماذا كان رد فعل أبي بكرٍ عليهم؟!

لقد قال لهم بثقةٍ وثباتٍ: لئن قال ذلك لقد صدق!

فتعجّبوا كثيرًا من قوله قائلين له: أوتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟

فقال الصدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء

(١) رواه أحمد (١٣٤٧)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.

في غدوة أو روحة[1].

وأنا سأكتفي بتلك الأقوال والمواقف التي ذكرتها فقط وإلّا فإنّ كتب السيرة النّبوية مليئةٌ بالمواقف والأقوال والشهادات على كمال صفات النّبي وحسن سيرته حتّى إنّ هناك كتبًا ومؤلفاتٍ قد صُنّفت خصيصًا للحديث عن الأخلاق النّبويّة والشمائل المحمدية، وقد أجمل صاحبه وشاعره حسان بن ثابت القول في ذلك فقال:

وَأَحسَنُ مِنكَ لَم تَرَ قَطُّ عَيني ... وَأَجمَلُ مِنكَ لَم تَلِدِ النِساءُ

خُلِقتَ مُبَرَّءً مِن كُلِ عَيبٍ ... كَأَنَكَ قَد خُلِقتَ كَما تَشاءُ

- **أولئك الذين آمنوا بالنّبي وبدعوته وصدّقوه منذ الأيام الأولى من بعثته (خاصةً في أول يوم بُعث فيه) حين قال للناس أنّه رسولٌ من عند الله:**

إذ كيف لأحدٍ أن يصدق أحدًا في أمرٍ كهذا -وهو التواصل مع رب العالمين من خلال ملَكٍ عظيمٍ يأتيه بالخبر من السماء- منذ اللحظة الأولى دون طلب دليلٍ على ما أخبر عنه؟!

ليس هناك تفسير على فعل هؤلاء إلّا ما وجدوه من صدق النّبي في كل أمور حياته حال عشرتهم له قبل البعثة للدرجةِ التي لم يرد في أذهانهم مطلقًا أنه قد يكذب عليهم في أمرٍ ما أيًّا كان ذلك الأمر مع العلم أنّ هؤلاء المؤمنين الأوائل كانوا من أصحاب الرأي والعقل الراجح أمثال عبد الله بن أبي قحافة (أبي بكر الصديق) وزيد بن حارثة وخديجة زوجة النّبي وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفّان والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وأبي سلمة والأرقم بن أبي الأرقم وغيرهم.

---

(١) رواه الحاكم (٤٤٠٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٦).

- **صدق النّبي وإخلاصه وزُهده في متاع الدنيا طيلة حياته،** حتى بعدما حدث له التمكين وأصبح قائدًا لدولة وليدة عظيمة فقد ظل النبي على نفس حاله التي كان عليها حيث لا يُوقد في داره النار طيلة الشهور العديدة، وكان أغلب طعامه التمر والماء(١)، ووصل زهده إلى الحد الذي جعله يموت ودرعه مرهونة عند يهودي(٢)!

هذا الزهد في متاع الدنيا وملذاتها وطيب عيشها على الرغم من تلك المكانة التي وصل إليها النبي والتي جاوزت كثيرًا من ملوك عصره وحكام زمانه لهو دليل على صدقه وعدم طلبه للدنيا والمال، بل إنه كان يريد ويسعى إلى شيء آخر، ذلك الشيء إن لم يكن هو الدنيا وزينتها فماذا يكون إذن؟!

لقد كان النبي محمد موقنًا بقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧]، كما كان مستمسكًا بذلك التوجيه الإلهي: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

ثم إن هناك أمرًا آخر جدير بالتدبر وهو إذا كان النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كاذبًا ومدّعيًا فلماذا يخترع إذن أوامر وتوجيهات إلهية تأمره بالزهد في متاع الدنيا وترك نعيمها ثم يعلن ذلك أمام الناس؟! لماذا يلزم نفسه بترك الملذات وعدم النظر إلى أولئك الذين يتمتعون بنعيم الحياة وشهواتها؟!

بل أكثر من ذلك فإنّ النّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يترك لبناته من بعده شيئًا من متاع الدنيا، فلم يورّث لهم دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أَمةً إلا أرضًا جعلها كلها صدقةً للمسلمين.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) عن عروة بن الزبير عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، أنها قالت لعروة: ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نار، فقلت يا خالة: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء.

(٢) رواه البخاري (٢٥٦٧) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: «توفي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعًا من شعير».

عن أبي الدرداء أنّ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ الأنبياء لم يُورّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر**»[1]، وعن عمرو بن الحارث أنه قال: «**ما ترك رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عند موته درهمًا ولا دينارًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا شيئًا إلّا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا بخيبر جعلها لابن السبيل صدقة**»[2].

وهكذا كما نرى فإنّ النّبي محمد لم يكن له أي أطماع دنيوية خاصّة به في حياته فلقد رفض كل العروض الدنيويّة التي انهالت عليه وفضّل أن يعيش زاهدًا في متاع الدنيا بل إنّه حتّى لم يكن ممّن يدّخرون المال من أجل تحسين الوضع المادي والاجتماعي لأبنائه من بعده فكما نرى لم يترك لهم شيئًا من متاع الدنيا!

كل هذا في الحقيقة لا تفسير له إلّا أنّه كان -كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قرآنًا يمشي على الأرض، ومن ثَمّ فهو يمتثل جيدًا قول الله عزوجلّ: ﴿**وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ [النساء:٩].

- **صبر النّبي على الأذى الشديد الذي تعرّض له في حياته** خاصةً عندما كان مستضعفًا في الفترة المكية وعلى الرغم من أنه في ذلك الوقت كانت تنهال عليه كافة العُروض والإغراءات الدنيوية بالسلطة والمال والجاه والنساء، وكانت تُعرض عليه كل الدوافع الدنيوية المُمكنة التي قد تكون سببًا في ادعاء أحدٍ للنبوة كذبًا، وهو مع كل ذلك يرفض تلك العروض ويظل صابرًا، مع العلم أنه لم يكن هناك وقتها أي أسباب مادية تُبشر باحتمال حدوث النصر والتمكين في يوم من الأيام!

هذا الصبر على الأذى في الوقت الذي لو أراد لفتحت له الدنيا بكل ما فيها من إغراءات وملذات لهو دليل قوي على صدق ذلك الرجل في دعوته التي يدعو إليها.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٢) وصححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٦١).

- **كثرة عبادة النّبيِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السر، وكثرة صلاته بالليل حيث لا يراه أحد حتى تورّمت قدماه كما ذكرت زوجته عائشة**[1]، فقد يكون مفهومًا لدينا أن يتكلف مدعي النبوة الكاذب طولَ العبادة أمام الناس لتضليلهم وخداعهم حتى يُصدقوه، ولكن الذي لا يُمكن فهمه أبدًا هو ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القيام بتلك العبادة الطويلة الشاقة -من صلاة الليل واقفًا حتى تتورم قدماه، ومن صيام النهار في صحراء مكة الشديدة الحرارة حيث لا يعلم ذلك أحدٌ إلا زوجاته اللاتي نقلن ذلك عنه- إلا أن يكون نبيًّا صادقًا في دعوته موصولًا بالسماء حقًّا يلتصق به وصف النبوة ظاهرًا وباطنًا؟!

وهنا نقطة أخري تدعو للتعجب وتثير في النفس التساؤل بأنه لو كان محمد كاذبًا مدّعيًا فلماذا يلزم نفسه بعبادة شاقة من صلاة بالليل يضطر معها لترك الفراش، ومن صيام يضطر معه لترك الطعام والشراب في تلك الصحراء الحارقة، ومن صدقة يضطر معها لإخراج المال، ومن جهاد يضطر فيه لترك الزوجة والولد ولبذل المشقة والتضحية، ومن دعوة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يضطر فيه لاستعداء القوم والتعرض لأذاهم الشديد؟!

ألم يكن هناك من التكاليف والأوامر ما هو أبسط من ذلك وأيسر عليه وعلى أتباعه حتى لا يشعروا بالمشقة طالما أن الأمر برمته من اختراع النبي؟!

بل لماذا يكون هناك من الأساس أوامر وتكاليف وضوابط والناس بطبعهم يميلون للراحة والدعة؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، فقال: «**يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

- **مدى اقتناع النّبي ﷺ الشخصي بفكرته ودعوته التي يدعو إليها**، وهذا يجده ويلاحظه بجلاء كل من طالع سيرة النّبي ومواقفه وأخباره والتي تجلّت في صور كثيرة من البذل والتضحية من أجل تلك الدعوة حتى وصل مداها وتأثيرها إلى صحابته في صورة يقينٍ جازم واقتناعٍ تام بما هم عليه فرأينا منهم أيضًا صورًا عجيبة من البذل والتضحية والهجرة في سبيل الله وترك الدنيا بكل صورها وزينتها من أهل وأولاد وعشيرة ومال وتجارة!

هذا الأمر دفع الكثير من المستشرقين الطاعنين في الإسلام عندما نظروا في سيرة النبي إلى عدم القدرة على اتهامه بالكذب في دعواه لأن سيرته واقتناعه بفكرته لا يمكن بحال أن يكون متسقًا مع فرضية كذبه، فعدلوا عن ذلك الاتهام مُرغمين إلى اتهامات أخرى واهية كالوحي النفسي والتي سنتكلم عنه في الباب الثاني إن شاء الله.

- **حرص النّبي الشديد على الخير للنّاس وعلى إيصال دعوته إليهم حتّى في لحظات ضعفهم ومرضهم حيثُ لا منفعة مادية ولا مصلحة دنيوية تُرتجى وتُنتظر حينها من وراء إيمانهم**، فلو كانوا أصحّاء لكان من المُمكن أن يُستفاد منهم في نشر الدعوة أو الدفاع عن الدين، ولكن ما هو النّفع العائد من وراء إيمان المريض أو العاجز؟!

ومن الأمثلة على ذلك أنّنا نجد النّبي فَرِحًا حامِدًا لله على فضله عندما ذهب لزيارة جاره الغلام اليهودي في مرضه ودعاه للإسلام فأسلم فأخذ يردد قائلًا: الحمد لله الذي أنقذه من النار[1].

(١) رواه البخاري (١٣٥٦) عن أنس رضي الله عنه، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

نجد النّبي أيضًا في حجة الوداع -بعدما حقق كل ما يُمكن أن يُريد تحقيقه أي مُصلِح أو صاحب فكرة من نجاحٍ لفكرته وتمكينٍ مادي لها وعلو شأن الدعوة التي كان يدعو إليها- يصعد على الجبل قائلًا للناس: ألا هل قد بلغت؟!

فيجيب الصحابة: اللهم نعم، اللهم نعم.

فيردد الرسول قائلًا: اللهم فاشهد![1].

كيف نُفسر هذا الحرص الشديد من النبي على إيصال دعوته حتى في آخر أيام حياته، ونحن نعلم أن كل مطامع الحياة الدنيا تسقط وتنهار عندما يشعر المرء بدنو أجله واقتراب موته؟!

كيف يمكن تفسير ذلك إلا إذا أقررنا سلفًا بأن ذلك الرجل نبي مرسل من عند الله يبلغ خبر السماء وبالتالي فهو أخشى ما يخشاه أن يقابل ربه دون أن يبلغ رسالته على أكمل وجه؟!

- **الموقف الثابت والعبارات الواثقة التي كان يرددها النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفاته والتي تؤكّد مدى صدقه وإخلاصه لدعوة التوحيد ومدى حرصه على النّاس وخوفه من وقوعهم في الشرك بعد وفاته**، ومن أمثلة ذلك الدعاء الذي كان يردده في آخر لحظات حياته: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[2]، وأيضًا تلك الوصية التي كان يُوصي بها أصحابه من حوله بألّا يُعظّموه تعظيمًا قد يتجاوز به حد العبودية لله فكان يقول لهم: «لا تطروني[3]، كما أطرت النصارى ابن مريم، وقولوا عبد الله، ورسوله»[4].

---

(١) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٢١٨).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٨٥)، وأحمد في المسند (٧٣٥٨)، وصححه الألباني في المشكاة (٧٥٠).

(٣) تطروني: من الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

(٤) رواه البخاري (٣٤٤٥).

ولا أدري والله كيف يجرؤ أحدٌ بعد كل هذا على اتهام من كان هذا حاله ومقاله بالكذب؟!

وهل يرجو الكاذب من كذبه إلا علو الشأن والمكانة؟!

بل أكثر من ذلك نجد النبي لا يُريد أن يُفارق الدنيا إلا وقد ترك لنا في كل لحظة من لحظات عُمره دليلًا على صدقه سواء بقولٍ أو فعلٍ؛ فنجده حين جاءه أمر ربه يقول بصوتٍ مسموعٍ (سمعته زوجته عائشة ونقلت لنا الخبر): «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**»[1]، في موقفٍ يتّقي فيه الفاجر ويصدق فيه الكاذب ولا يخرج حينها من الإنسان إلا الحقيقة، فلا مجال هنا للأقنعة الزائفة وإنما هي الحقيقة في أوضح صورها!

- **مطالعة حال النّبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قبل البعثة -أي قبل بلوغه الأربعين من عمره- حيث لم تكن فكرة النبوة والرسالة حاضرة في ذهنه أصلًا ولا في ذهن أي أحد ممن حوله،** وبالتالي لم يكن هناك دافع يدفع النبي لكي يتكلف الصدق والأمانة وحُسن الخُلق على غير سجيته وطبيعته؛ حيث لم يكن موضوعًا تحت أنظار الناس، وإنما كان يظهر منه وقتها عينُ طبيعته وسجيته التي خلقه الله عليها دون أي تكلف.

العجيب في ذلك أننا نلحظ مخالفة النبي منذ أن كان طفلًا صغيرًا لثقافة مجتمعه الذي نشأ فيه ولكثير من عاداته وتقاليده وأفكاره وتصوراته بل وتمييزه بين الجيد منها والرديء وبين النافع منها والضار ثم اتخاذه موقف الخصم المجافي لكل مظاهر الشرك والكفر والوثنية في ذلك المجتمع الجاهلي.

نجد النبي في هذا الوقت هو الملقب بالصادق الأمين!

وهو الذي لم يسجد لصنم قط!

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

وهو الذي لم يُعهد عليه سوء خلق قط!

وهو الذي لم يشارك في أي طقوس وثنية أو ممارسات شركية!

وهو الذي لم يذهب أبدًا إلى تلك الأماكن المشبوهة وإلى من يعرفن بأصحاب الرايات الحمر!

نجده هو الذي كانت تستأمنه خديجة على تجارتها قبل الزواج منه ولذلك حرصت عليه زوجًا لها وقد كان!

نجده أيضًا هو الذي عصمه الله من الزلات والهفوات التي يقع فيها من هم في مثل عُمره لاسيما إذا كان في مجتمع يُعرف في التاريخ بالمجتمع الجاهلي!

يفعل النبي كل هذا ويخالف عادات قومه وتصوراتهم ومعتقداتهم وهو يتيم الأب والأم بلا مُعلم ولا مُربي يتعلم منه ذلك أو يتكلفه خوفًا من عقابه!

ختامًا لكل ما ذكرناه من صفات النبي وصدقه وأمانته وأخلاقه والتي شهد بها العدو والصديق فإن ذلك كله يؤكد عدم احتمال وقوع الكذب منه في الأمور الصغيرة والمعتادة بين الناس فضلًا عن أن يكون الكذب على الله والتقوّل عليه في أمر عظيم كادعاء النبوة.

لمزيد من الإيضاح نستطيع أن نقول إن فكرة صدق النبي محمد هي مُمكنة الحدوث، ولذلك فهي تحتاج إلى دليل لإثبات صحة حدوثها (لإثبات صدق النبي) أو دليل لإثبات عدم صحة حدوثها (لإثبات كذب النبي).

وبعد ما عرضته سابقًا فيمكنني القطع بأن معي من الأدلة والشواهد والقرائن الكثيرة جدًّا التي تدل على صدق النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع جميع الناس وفي صغائر الأمور وبالتالي من باب أولى صدقه في الأمور العظيمة فيما يخبر به عن الله من أمر الوحي.

ثم أعود بالمحاجة لكل من يدّعي أن محمدًا ليس صادقًا في أمر النبوة والتلقي عن الله

أن يأتيني بدليل واحد يثبت ذلك، بل سأكتفي إن جاء بدليل واحد على كذبة واحدة للنبي ولو في أمر صغير!

وإذا عجزوا عن ذلك فأستطيع القول حينها بكل ثقة ويقين أن محمدًا نبي مرسل من عند الله.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨].

- **خلاصةُ الفصل**

أنّ ما ذكرناه هو حجةٌ عقليةٌ على صدق الإسلام من خلال إثبات صدق الرسول وحُسن صفاته وتركه الكذب على الناس في الأمور الصغيرة وبالتالي وبقياس الأولى تركه الكذب على الله في الأمر العظيم كدعوى النّبوة والتواصل مع الإله.

وقبل أن نطوي صفحات هذا الفصل فإنّ هناك بعض الأسئلة التي لا بُدّ أن تُطرح لمن لا يزال في قلبه شكٌّ في أمر النبي محمد ﷺ، ولمن لا يزال يظن أنّه كاذبٌ في ادعائه النبوة، هذه الأسئلة هي:

كيف يُوفِّق اللهُ عبدًا -يدعي النبوة كذبًا ويتقوّل على الله- كلَّ هذا التوفيق؟! كيف يجعله الإله بكل هذا الكمال في الصفات البشرية كالصدق وحسن السيرة وتواتر الأخبار عنه بذلك في الوقت الذي يكذب فيه هذا الشخص عليه في ادعاء النبوة، فهل يريد الله إضلال العباد مثلًا؟!

نحن نعلم أن الله عدل حكيم ومن لوازم عدله وحكمته أنه -قطعًا- لا يُريد التلبيس على عباده وإضلالهم وتضييع الحجة وإلا فلماذا أرسل الرُسل من الأساس؟!

ومن لوازم عدله وحكمته أيضًا أن يكون الحق واضحًا والباطل واضحًا ليحيى من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

وهذه الحجة ليست احتجاجًا بالقدر بمعناه السلبي، ولكنه احتجاج بلوازم حكمة الإله وعدله مع خلقه (لمن يؤمن به وبوجوده) وأنه يريد شرعًا هدايتهم ولا يحب إضلالهم وتلبيس الحق بالباطل عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وإن كان قدّر على بعضهم ذلك عدلًا منه وحكمة ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

إن فكرة توفيق الله لمدعي النبوة الكاذب تختلف تمامًا عن فكرة توفيق الله لأحد الكافرين أو الظالمين الغير مدعين للنبوة توفيقًا دنيويًّا بأن يزيد مثلًا في ملكه وسلطانه، فالأُولى تتضمن قدحًا مباشرًا في عدل الله وحكمته ولا يمكن تفسيرها بأنها مجرد ابتلاء وفتنة للعباد بل لا تكون إلا تلبيسًا على الخلق، أما الثانية فقد تُفهم في إطار حكمة الله بتقديره للابتلاء والفتنة لعباده ولكن مع ظهور الحق ووضوحه وعُلوه على الباطل بالحجة والبيان حتى وإن لم يكن له عُلو بالسيف والسنان (أي بالتمكين).

يُوضح لنا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المعنى توضيحًا جليًّا في كتابه (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) عندما كان يناظر يهوديًّا مِصريًّا قائلًا له:

(أنتم بتكذيبكم محمدًا قد شتمتم الله أعظم شتيمة) فعجب الرجل من ذلك!

فقال ابن القيم له:

«إذا قلتم إن محمدًا ملكٌ ظالمٌ قهر الناس بسيفه وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله الذي أرسله إلى الخلق كافة ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحى إلي كذا، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء ومعاداة أُممهم ونسخ شرائعهم، فلا يخلو إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا إنه خُفي عنه ولم يعلم به، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل وكان مَن عَلِمَ ذلك أعلم منه، وإن قلتم بل كان ذلك بعلمه ومُشاهدته واطلاعه عليه فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا؛ فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يُعزه وينصره ويُؤيده ويُعليه ويُعلي كلمته ويُجيب دعاءه ويُمكّنه من أعدائه ويُظهر على يديه المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحدٌ بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا تليق

نسبته إلى آحاد العقلاء فضلًا عن رب الأرض والسماء!، فكيف هو يشهد له بإقراره على دعوته وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!»[1].

كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (النبوات) أيضًا له كلام نفيس في استحالة التسوية بين النبي الصادق والكاذب في صفات كلا منهما وأن ذلك من لوازم حكمة الإله فيقول:

«فكيف لا يقدر اللهُ أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أن هذا رسوله وأن ما جاء به من الآيات هو من عند الله، وهي شهادةٌ من الله له بصدقه؟!

وكيف تقتضي حكمته أن يُسوي بين الصادق والكاذب فيُؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يُؤيد به الصادق حتى لا يُعرف هذا من هذا؟!

وأن يُرسل رسولًا يأمُر الخلق بالإيمان به وطاعته ولا يجعل لهم طريقًا إلى معرفة صدقه؟!»[2].

ويمكن التعبير عن تلك الحجة المنطقية التي قررها ابن تيمية وأكدها تلميذه ابن القيم في صورة استنتاج رياضي كالتالي:

بما أن: الله عدل حكيم يُريد إيصال الحق للناس وظهور حجته، والله قادر على إنفاذ ما يريد. وبما أن: النبي محمدًا ادعى النبوة ومعه من الأدلة المتواترة على صدقه وأمانته وحُسن حاله وكمال صفاته وزُهده في الدنيا وصبره على الأذى وكثرة عبادته ونُصرة الله له بالحجة والبيان وأيضًا بالسيف والسنان ما يكفي.

إذن: محمد هو رسول الله حقًا.

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/ ٣٨٤).

(٢) النبوات (٢/ ٦٨٦).

فإذا قال قائل: إن معيار الصدق وحده ليس كافيًا لإثبات النبوة، وأنه بالفعل لا أحد يستطيع إنكار صدق النبي محمد والأدلة تؤكد ذلك ولكن هذا لا يعني بالضرورة صدقه في أمر الوحي والنبوة!

الواقع أن هذا الكلام يحتاج إلى تفصيل؛ لأن قضية اتصاف من ادعى النبوة بالصدق وحسن الصفات والسيرة تختلف تمامًا عن أي أحد آخر لم يدعِ النبوة إلا أن يكون هناك من الحجج والبراهين الأخرى ما يؤكد بطلان نبوته، وهذا غير واقع في حال النبي محمد..

فالنبي محمد (مع ادعائه النبوة) نجده يتصف بكمال الصدق وحسن الخلق، فهذه هي الحالة التي يحق لنا فيها الاحتجاج بالقدر؛ وذلك أن الله خلقه على تلك الهيئة من الصدق وحسن الخلق مع انعدام أي حجة أو برهان ينهض لإبطال صحة نبوته، وكل هذا من لوازم حكمة الله ببعثة الرسل لبلاغ الحق للخلق وإقامة الحجة عليهم.

الفصل الثاني

مواقف من سيرته

يقول الرافعي:

«ليس في التاريخ العربي كله من جُمعت صفاته وأُحصيت شمائله وتواتر النقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثيق إسنادها غير النبي»[1].

إنّ الباحث الموضوعي إذا نظر بتجردٍ واستقلاليةٍ في سيرة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سوف يقطع بأنّها سيرةُ نبيٍ مُؤيّدٍ من السماء، والمواقف التي تُؤكّد ذلك كثيرةٌ جدًّا منها:

- **موقف كسوف الشمس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبي** عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ:

فلقد كانت هناك أسطورة منتشرة قديمًا قبل الإسلام عند كثير من الأمم والشعوب تقول إن هناك علاقة ما بين الأجرام السماوية والأحداث الأرضية الهامة مثل ظهور النجوم في السماء عند مولد العظماء وأيضًا اختفاء النجوم عند موتهم!

نجد ذلك مثلًا في التراث البوذي حيث الحديث عن ظهور نجم رآه الناس في يوم مولد بوذا، ومثله أيضًا في التراث المسيحي الذي يتحدث عن ظهور نجم عند مولد المسيح.

في يوم من الأيام في جزيرة العرب مات آخر أبناء الرسول الذكور (إبراهيم)، وفي نفس اليوم حدث كسوفٌ للشمس (والذي كان يظهر لهم وقتها أنه نوع من الغياب أو الاختفاء الجزئي لذلك الجرم السماوي العظيم).

بدأ بعض الناس يقولون ويُرددون: (كُسفت الشمس لموت إبراهيم)، فعلم النبي مقالتهم!

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٢٨٨) – ط. دار الكتاب العربي.

فيا ترى ماذا كان رد فعل النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من ذلك؟!

وماذا تتوقع أصلًا أن يكون رد فعله إن كان كاذبًا؟!

بل هل يمكننا أصلًا أن نتصور أن يقوم مدعي النبوة الكاذب برفض مثل تلك الفرصة التي أتت إليه دون أي عناء وعدم استغلالها لتأكيد دعواه وإثبات أنه شخص استثنائي تتفاعل معه الأجرام السماوية؟!

مع العلم أنه كان يكفيه مجرد السكوت على قولهم ففي السكوت رضًا وإقرار. ولكن في الحقيقة ما فعله النبي كان غير ذلك تمامًا!!

أنكر عليهم النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا القول بشدة وقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما، فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي**»(١).

فقام النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلك القول بقطع تلك العلاقة الأسطورية بين الحوادث الأرضية والأحوال الفلكية.

الأعجب من ذلك أن النبي بعدما أنكر قولهم، لم يعطِ لنفسه حتى فرصة أن يكون هو محور اهتمام الناس ورعايتهم في ذلك اليوم تخفيفًا عنه في مصابه الشديد، بل إنه نقل مركزية الحديث يومها من شخصه إلى ذات الله سبحانه والتفكر في اليوم الآخر فقام وصلى بالناس صلاة الكسوف وخطب فيهم عن عذاب القبر.

الخلاصة أننا لو قمنا بتحليل ذلك الموقف تحليلًا نفسيًّا ونظرنا فيه بعين الاعتبار فإنه سيتأكد لنا أن ذلك الشخص لا يمكن أن يكون كاذبًا ولا يرضى الكذب حتى في المواقف الجاهزة التي تأتي له دون تخطيط وتدبير كهذا الموقف، بل إنه لا يقبل إلا تصحيح تصورات الناس عن حقيقة طبيعته البشرية وعن عبوديته وخضوعه لله، وعن مفارقة الطبيعة الإلهية

(١) رواه البخاري (١٠٦٠)، ومسلم (٩١٥).

للطبيعة البشرية وعن نقض التصورات الأسطورية [1].

- **موقف حادثة الإفك:**

وقد جاءت تلك القصة في صحيح البخاري من رواية السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (صاحبة القصة) وفيها أن المنافقين كانوا قد طعنوا في عرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي أحب نسائه إليه وهي عائشة حيث اتهموها بارتكاب الفاحشة مع الصحابي صفوان بن المعطل أثناء العودة من غزوة بني المصطلق!

استمر هذا الافتراء شهرًا كاملًا والمنافقون يُرددون وينشرون الشائعات والأراجيف، والرسول مُنتظر كل هذه الفترة لا يتكلم في هذا الأمر أبدًا!

بعد انقضاء كل تلك المدة الطويلة خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس معلنًا براءة زوجته عائشة من خلال بعض آيات القرآن الكريم [2].

السؤال هو: إذا كان أحدٌ يملك دليل براءته من اتهامه في عرضه وشرفه وفي أحب نسائه إليه مع العلم أن ذلك الشخص هو أغير الناس، وبعض الناس حوله يُرددون الشائعات والأراجيف وينشرونها بين الناس، فهل يستطيع هذا الشخص أن ينتظر كل ذلك الوقت في هذه المعاناة؟!

بالطبع لا.. خاصة وأن الأمر برمته عند ذلك الشخص لا يتطلب أكثر من أن يخرج على الناس ويقول لهم لقد نزلت براءة عائشة وينتهي ذلك الكابوس لحظتها.

ولكن لأن محمدًا هو رسول الله حقًّا، ولأن الوحي الذي يتكلم به هو من مصدر

---

(١) ينظر كتاب (لا أعلم هويتي) للدكتور/ حسام الدين حامد؛ فقد استفدت منه في استخراج الفوائد من تلك القصة وبيان دلالتها على صدق الرسول.

(٢) قصة حادثة الإفك رواها البخاريُ (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

مُستقل تمامًا عن ذات النبي، خارج عن شخصه ونفسه، فهو ينتظره حتى لو تحمل وصبر على أذى القوم.

- **الحفظ الاستثنائي للنّبي محمد ﷺ طوال فترة نزول القرآن مُفرقًا حتى خرج هو بنفسه على المسلمين ليُخبرهم باكتمال الدين ثمّ يموت بعدها مُباشرةً:**

فمن خلال النظر العام في سيرته خلال فترة البعثة والرسالة نلاحظ أنّه منذ أن نزل عليه وحي السماء أول مرة وهو يتلو القرآن على الناس مُنجّمًا (مُتفرقًا) طيلة ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا، وخلال كل هذه الفترة أخذ النبي يخوض المعارك والحروب حتى كاد أن يُقتل ويتآمر عليه اليهود والكافرون ويتعرض للإيذاء الشديد وهو ما زال يتنزل عليه القرآن ويقرؤه على الناس، حتى مضى اثنان وعشرون عامًا تقريبًا وهو على هذا الحال، ثمّ يقوم بعدها بجمع المسلمين في حِجّة الوداع ليقرأ عليهم جميعًا ذلك البيان الإلهي التاريخي: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]، ثمّ ما يلبث بعدها أن يموت!

السؤال هنا: كيف حدث ذلك؟

كيف تمّ ترتيب تلك الأحداث الزمنية بهذا الشكل الذي ساهم في إكمال الدين رغم كل تلك العقبات والتّحدّيات؟!

فلو حدث أن مات النبي خلال فترة البعثة وأثناء مواجهته مع الكفار منذ أن جهر بدعوته إلى أن وقف في حجة الوداع، وكان ذلك قريب الحدوث جدًّا، لكان قد مات قبل اكتمال الدين!، فحينها سيكون ذلك مدخلًا للطاعنين في دعوته.

ولكن ما حدث هو أن النبي ﷺ ظل رغم كل هذه الظروف الصعبة والعصيبة وإحاطة فرص الموت به من كل مكان حتى أكمل دينه وأتم دعوته!

وههنا يطرح السؤال نفسه: كيف يُوفِّق اللهُ عبدًا يكذب ويتقوّل عليه (كما يدعي من لا يؤمن بالإسلام) كلَّ هذا التوفيق لدرجة أنه يُخضِع له السنن الكونية حتى يُتمَّ دعوته؟!

إذ لا يوجد أحد يعلم موعد موته ويخطط للانتهاء من جميع أعماله ومشاريعه قبلها!

- **الكمّ الهائل من الإنجازات الاستثنائية التي حقّقها النّبي محمد ﷺ -والتي يعجز عنها جميع البشر بشهادة الكافرين والمسلمين- في ظل تحدّيات وعقبات أيضًا استثنائية:**

فبالنظرِ في سيرة النبي سنجد أنّ له إحدى عشر زوجة وما يزيد عن مائة ألف صحابي، ونجد أنه هو الحاكم والقاضي والقائد العسكري الذي يخوض المعارك ويقود المسلمين ويضع لهم السياسات العامة، وهو أيضًا يقوم بمهام الرسالة فيُبلّغ عن ربه ما نزل عليه من الوحي، ويتدارس القرآن تنزيلًا وتأويلًا ويحفظه ثمّ يُعلّمه للناس ويتعهدهم في ذلك، ثمّ يخلو بربه في عباداته.

مع كل هذا الكم الهائل من المسؤوليات نجد أن حجم الإنجازات التي حققها النبي تعجز عنه جميع الهمم البشرية (الغير مُؤيَدة من السماء)!

والإنجاز الذي حققه الرسول ليس فقط على المستوى السياسي ولكنه أيضًا تحولٌ حضاري وثقافي في عالم الأفكار والمعتقدات والتصورات عن الإله والوجود وفي عالم القيم والأخلاق وأيضًا في الواقع المادي والبُنى التحتية، وأقل ما يُقال فيها إنه أقام بمجموعة من رعاة الغنم حضارة عظيمة في فترة قصيرة جدًّا من عمر الزمان، وهذا الإنجاز المادي فقط هو الذي دفع بعض كُتاب الغرب أمثال مايكل هارت أن يُصنّفوا الرسول كأعظم عظماء التاريخ(١).

(١) الكتاب المعني هو كتاب (المائة: ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرًا في التاريخ) للكاتب الأمريكي مايكل هارت، والذي قام بترجمته إلى اللغة العربية أنيس منصور. =

أيضًا مازلنا نسأل ذلك السؤال الذي نصطحبه معنا دائمًا في نهاية كل فصل:

كيف يُوفِّق ويُؤيِد الإلهُ رجلًا كلَّ هذا التوفيق والتأييد والنصر والتمكين (إن كان يكذب عليه)؟!

كيف يُوفقه بالحجة والبيان وأيضًا بالسيف والسنان؟!

يوفقه في هذا كله ويجعله أيضًا كما ذكرنا معروفًا بالصدق بين الناس وحُسن الصفات والأمانة وحُسن الخلق والزهد والصبر وكثرة العبادة!

لماذا يفعل الله ذلك؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يونس:٦٩].

يؤكد لنا الدكتور مصطفى محمود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (محمد) هذا المعنى العظيم حيث يقول:

"وأيًّا كان التفسير، فإنك إن أخذت تحسب بالورقة والقلم كيف حدثت هذه الأمور، واستعنت بالعقل الإلكتروني وكافة وسائل الحساب الحديثة فإنك لا تستطيع أن تُفسر كيف أن فردًا واحدًا مضطهَدًا مطارَدًا يُؤثِّر هذا التأثير في أفراد قلائل يُعدون على الأصابع، ثم يُؤثِّر هؤلاء في كثرة من مئات ثم ألوف تهزم الروم، ثم الفرس -وكانت دولتين كأمريكا وروسيا في ذلك الوقت-، يحدث هذا كله في سنوات معدودة، وابتداءً من الصفر ومن بداوة مطلقة ومن عرب مشرذمين في قبائل تقتُل بعضها بعضًا بلا حضارة وبلا علم يُذكر، وإنك لن تصل أبدًا في حسابك إلى تلك النتيجة الهائلة

= والاستشهاد بالكتاب ههنا ليس إقرارًا بما فيه؛ فإنه في الحقيقة تعامل مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنه مجرد شخص عبقري نجح في إقامة إمبراطورية عظيمة دون الاعتبار بكون التأييد الإلهي ودلائل صدق نبوته والوحي المنزّل هم ركائز انتشار دعوته وسبب فتح أقفال القلوب قبل الأقطار؛ فالنبوة في اعتقادنا هبة واصفاء من الله وليست من جنس الأمور المكتسبة بالرياضات نحو قول الفلاسفة!

وستظل المعادلة ناقصة حتى تُدخل فيها ذلك العامل الخفي-عامل الغيب- وسند المدد الإلهي من التمكين والتوفيق.

نحن إذن أمام نُبوة مؤيدة بسند الغيب ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهي ولسنا أمام مُصلح اجتماعي أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعمل الكسبي"[١].

كما أن هناك أيضًا شهادة أخرى هامة من أحد الكافرين بالإسلام بل والمنصرين وهو جورج بوش (١٧٩٦-١٨٥٩) أحد أجداد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش والتي سطرها في كتابه (مُحمد مُؤسس الدين الإسلامي ومُؤسس إمبراطورية المسلمين) حيث يقول فيه:

"والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام لا يُمكن تفسيره إلا بأن الله كان يخصه برعاية خاصة، فالنجاح الذي حققه مُحمد لا يتناسب مع إمكاناته ولا يُمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة! لا مناص إذن من القول أنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته! لا تفسير غير هذا لتفسير هذه الإنجازات ذات النتائج الباهرة، ولا شك أنه يجب علينا أن ننظر للإسلام في أيامنا هذه بوصفه شاهدًا قائمًا ينطوي على حكمة غامضة ليهوه[٢] لا تدري مغزاها، حكمةٌ لا تفهمها عقول البشر!"[٣].

وهنا الكاتب في الحقيقة لم يستطع أن يُنكر التأييد الإلهي للنبي مُحمد حيث صرَّح باستحالة تفسير ما حققه النبي من نجاح بكونه مجرد نجاح بشري، ولكنه على الرغم من ذلك لم يؤمن بالإسلام لأنه يُفسر ذلك التأييد الإلهي للنبي بأنه ابتلاء من الله وتأديب للكنائس التي ضلت الطريق حتى تعود لرُشدها مرة أخرى!

---

(١) انظر: كتاب (محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - محاولة لفهم السيرة النبوية) للدكتور مصطفى محمود (ص٣٨-٣٩).

(٢) اسم الإله في العهد القديم.

(٣) انظر: كتاب (مُحمد مُؤسس الدين الإسلامي ومُؤسس إمبراطورية المسلمين) للقس الأمريكي جورج بوش (ص ٣٥٣).

وهذا قطعًا قمة الضلال كما وصفهم الله في كتابه؛ لأن الله لا يُؤيد أحدًا يكذب عليه في أمر الوحي والنبوة تأييدًا بالحُجة والدليل والبرهان كما أيد نبيه ثم تأييدًا بالسيف والسنان والتمكين والسلطان باعتراف الكاتب نفسه، وتفسير ذلك بأنه ابتلاء للكنيسة انتقاص من عدل الله وحكمته ووصف له بالظلم والعبث والتلبيس على الخلق وضياع الحق وتكليف الناس بما لا يطيقون، فإذا كان الله قد أيد الشخص المدعي للنبوة كل هذا التأييد الذي لم ينكره أحد فكيف يأمر الناس بعد ذلك بعدم تصديقه وعدم الإيمان به!

ومن المعلوم أن كل مَن ادعى النبوة كذبًا -أمثال مسيلمة قديمًا ومِيرزا غلام أحمد القادياني حديثًا وغيرهما- قد فضح الله أمرهم وأظهر كذبهم للناس جميعًا حتى لا تستقيم لهم حجة.

أُكرر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يونس:٦٩].

- **مدى الاتصال والاتساق الشديد بين الفكرة التي يحملها النّبي محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وتطبيقها في الواقع الذي يشتبك معه، وبين النظرية التي يتبناها والممارسة الُمتجليّة من الأساس النظري، وبين قوله وعمله:**

فنجد النبي يدعو للعبادة وهو العابد، ويحُث على الزهد وهو الزاهد، ويحُث على البذل والتضحية والإنفاق وهو الذي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر كما قال عنه الأعرابي(١)، ويحُث على الصبر وهو الذي صبر على أذى القوم حتى إنهم أدموه وقتلوا أصحابه وتعرضوا له ولأهله وآذوه أشد الإيذاء، ويحث على الشكر وهو الشاكر، ويدعو للجهاد

(١) رواه مسلم (٢٣١٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ما سئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة.

وهو دومًا في مقدمة الصف فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ويحض على الثبات وهو حين يشتد بالصحابة البأس أثناء القتال ويلقى القومُ القومَ يتقوا به كما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- **تلك الإرهاصات التي حدثت قبل مولد النّبي محمد** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

وهي أحداث غريبة لفتت أنظار العالم كله إلى مكة وجزيرة العرب التي خرج منها النبي وكأنها تنتظر قدومه بالرسالة إلى العالم أجمع، ومن أمثلة تلك الإرهاصات:

- **حادثة الفيل**، والتي كانت في العام الذي ولد فيه النبي؛ حيث حمى اللهُ بيته الحرام من جيش أبرهة الحبشي العظيم الذي كان قادمًا لهدم الكعبة، فسخَّر اللهُ الطيرَ الأبابيل التي قامت بقذف جيش أبرهة بحجارة من سجيل!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل:١-٥].

- **نشأة النبي يتيمًا**، حيث مات أبوه قبل ولادته، وماتت أمه وهو في سن صغير، مما جعل قلبَه يزداد تعلقًا بالله وحده دون غيره، فإذا كان الأب والأم يُمثلان لكل طفل المعنى الحقيقي للحماية والرعاية والتربية، فإن الذي كان يحمي النبي ويرعاه ويربيه هي عين الله التي دائمًا ما تصنع الأنبياء ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩].
- **قصة النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **مع بحيرى الراهب**، والتي جاء فيها أن النبي لما بلغ اثنتي عشرة سنة ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام فصادف هناك راهبًا يدعى بحيرى، فلما نزل الركب خرج إليهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٢٠)، وصححه الألباني في صحيح السيرة (ص٢٩).

- **بعض المواقف التي صدرت من النبي محمد** ﷺ **قبل بعثته والتي تدلّ على امتلاكه حالةً استثنائية من سلامة الفطرة**؛ بحيث أنّها تحمله كثيرًا على السير ضد التيار العام والثقافة السائدة لذلك المجتمع الجاهلي الذي قد انتكست أفكاره وتصوراته، كما تحمله أيضًا على نُصرةِ أي موقفٍ قد يُعزّز ويُقوي سلامة تلك الفطرة؛ ومن هذه المواقف:

  - **رفض النبي المشاركة في حرب الفِجار**، وهي حربٌ قد شارك فيها أهل قريش جميعًا بمن فيهم أعمام النبي على الرغم من أنه وقتها كان شابًّا في ريعان شبابه، وكانت مشاركته فقط في اليوم الأخير من تلك الحرب ليصد النبل عن أعمامه، ولم يشارك في أي عمل من أعمال القتال لأن تلك الحرب كان يراها حربًا ظالمة كما كانت في أحد الأشهر الحرم[1].
  - **مشاركة النبي في حِلف الفضول**، وكان يدعو هذا الحِلف لنصرة المظلومين ومساعدتهم في استرداد حقوقهم ممن ظلمهم، ولذلك أثنى عليه النبي بعد بعثته وأخبر أنه لو دُعي لمثله في الإسلام لأجاب[2].
  - **مشاركة النبي أهلَ قريش في مشروع إعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه زمان إبراهيم** عليه السلام، وقد اختلفت بطون قريش في أحقية وضع الحجر الأسود، فتجادلوا واشتد الخلاف بينهم حتى كادوا يقتتلون، وظلوا على ذلك الحال حتى أشار عليهم كبيرهم أن يستشيروا ويحكّموا أول من يدخل عليهم، وكان الداخل محمدًا، فارتضوا جميعًا حكمه واستبشروا به خيرًا، وكانت بالفعل مشورته في غاية الحكمة، فلقد طلب منهم أن يحضروا ثوبًا ثم وضع الحجر فيه، وطلب من

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٨٤).

(٢) رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٧١)، وصححه الألباني في فقه السيرة (ص٦٧).

كل بطن أن تمسك طرفًا من الثوب ثم قام هو بوضع الحجر في موضعه، وبذلك حل المشكلة وأزال الخلاف[1].

- **عدم مشاركة النبي طوال حياته في مناسبات المجون والسهر واللغو على الرغم من أنّ أغلب من يشارك فيها من هم في مثل عُمْرِ النبي محمد وقتها (ما يُعرف بعمر المراهقة)**، ولكنه كما قلت يسير دائمًا عكس التيار الخاطئ أيًّا كانت صورته سواء كان تيار الرذيلة والمجون أو تيار الظلم والشر حتى وإن كان ذلك التيار قويًّا سائدًا.

هناك بعض أخبار السيرة النبوية قد يستخدمها البعض للطعن في صدق النبي وكمال صفاته، ومن هذه الأخبار على سبيل المثال كثرة زواج النبي، حيث إنّ كتب السير تذكر أن النبي محمدًا كان قد تزوّج حوالي إحدى عشر مرة، والحقيقة أنّنا لو تأملنا ذلك المثال قليلًا لوجدناه يحمل في ذاته دليلًا على صدق نبوته؛ فكيف يكون للنبي كل هذا العدد من الزوجات ومن خلفياتٍ متعددة -وإن كنّ قد أسلمن جميعًا- كصفيّة ابنة سيد اليهود حييّ بن أخطب، وكمارية القبطية ذات الخلفيّة المسيحيّة وكباقي زوجات النّبي فأكثرهن من خلفيات وثنيّة، وعلى الرغم من كل ذلك إلّا أنّه لم يرد قط أن خرجت إحداهن -في حياته أو بعد وفاته- لتعلن للناس أنّ هذا الرجل كاذبٌ فيما يقوله ويدّعيه؟!

بل على النقيض نجد أنّهن قد نقلن عنه من الأخبار ما يؤكّد صدقه وإخلاصه وأمانته وزهده وتعلقه الشديد بالله في كافة أمور حياته وكثرة عبادته في السر والعلن، مع العلم أنّه لو قامت إحدى زوجات النّبي وذكرت للنّاس أنّه كان كاذبًا لطار ذلك الخبر وانتشر على يد الكارهين للدعوة المحمدية من الكفار والمنافقين وما أكثرهم.

إذن حتّى هذه الشبهات التي يرددها البعض هي في حقيقتها تحمل أوجهًا عديدة من الحكمة التي قد يغفل عنها البعض نتيجة كثرة التشوية الإعلامي الذي تتعرّض له فضلًا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٤/ ٢٦٢)، وقد تقدم.

عن أنّها لا يُمكن بحالٍ أن تصمد أمام الأدلة الراسخة الثابتة الدّالة على صدق النبوة والرسالة المحمدية، فهي إذن إمّا مردودٌ عليها من قِبل علماء المسلمين الذين ما تركوا شبهةً إلّا وبيّنوها موضّحين أوجه الحكمة منها والتي قد تحمل هي في ذاتها دليلًا إضافيًّا على صدق النبوة وصحة الرسالة (كما في مثال تعدد زوجات النّبي)، أو لمن لا يملك متسعًا من الوقت أو لا يستطيع البحث عن تلك الحكم التفصيلية فهي في النّهاية وعلى أقل تقدير لا تستطيع أن تقف أمام البيّنات الواضحات على صدق الإسلام.

إن السيرة النبوية -بما فيها من وقائع وأخبار- مَعينٌ لا ينضب فهي مليئة بالحكم والعبر لمن أراد النظر والتدبر والاعتبار؛ ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

وما زال هناك في سيرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من المواقف والأحداث التي تدل دلالة واضحة على صدقه في دعوته، وما زال الطريق مفتوحًا للجميع لكي يُطالعوا كُتب السيرة ويستخرجوا منها تلك المواقف والأخبار التي تؤكد صدق نبوته، فإذا نظرنا فقط على سبيل المثال إلى ما حدث أثناء هجرة النبي من مكة إلى المدينة وما كان فيها من تمام توكله على الله وتفويض أمره لله وشدة تعلقه به وثباته في وقتٍ لا يثبت فيه إلا من كان متصلًا بالله حقًّا، فعندما يصل الأمر إلى الموت أو القتل فلا معنى وقتها لثبات كاذب.

عندما يصل الأمر ويكون النّبي محمد مع صاحبه الصدّيق في الغار، فيقول له صاحبه: لو نظر أحدهم أسفل قدمه لرآنا؛

كيف يردّ عليه حينها -وفي موقفٍ كهذا- قائلًا: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**»[(١)]؟!

ما هذه الثقة التي يتكلم بها؟!، وما هو مصدرها؟!

ثمّ من هذا الذي يبث الثقة في نفس وقلب شخص مثل أبي بكر الصدّيق إلّا أن يكون نبيًّا مُرسلًا مُؤيَّدًا من السماء؟!

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

الفصل الثالث
المعجزات الحسية

إنّ الشخص العبقري هو شخصٌ يتمتع بقدرات وإمكانات عقلية تُميّزه عن غيره، ولكن هذه القدرات تدخل في حيز الإمكان البشري وتحت إطار القدرة البشرية بشكل عام، ولكننا نجد أن النبوة أمرٌ آخر، فالنبي هو شخصٌ مؤيدٌ من الله تأييدًا إلهيًّا خاصًا يجعله يقوم بأشياء فوق قدرات البشر وإمكاناتهم لتكون بمثابة آية دالة على صدقه في ادعائه النبوة.

والآية -في لغة العرب- هي العلامة الدالة على الشيء، والعلامة هنا الدالة على صدق الأنبياء هي تلك الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على يد الأنبياء دليلًا على صدقهم ونبوتهم.

وقد اُصطلح على تسمية تلك الآيات الخارقة للسنن الكونية المعتادة التي يُؤيد الله بها أنبياءه بالمعجزات وذلك لعجز البشر عن معارضتها أو الإتيان بمثلها؛ فالمعجزة إذن -كما يعرفها الكثير من علماء المسلمين- هي الأمر الخارق للعادة السالم من المعارضة يجريها الله على يد النبي تصديقًا وتأييدًا له بشرط أن يكون مقرونًا بالتحدي؛ ولذلك كان اللفظ الأدق للأمور الخارقة للعادة التي قام بها الأنبياء وخصوصا النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو لفظ (الآية) أو (البرهان) لأن الكثير من تلك الأمور الخارقة لم يكن يفعلها النبي محمد بغرض التحدي، وإنما وقعت في مناسبات مختلفة ونقلها من شاهدها وعاينها حتى وصلت إلينا مثل نبع الماء بين أصابعه الشريفة وتسبيح الحصى في يده وتكثير الطعام وحنين الجذع وغيرها، وذلك يختلف بالطبع عن معجزة القرآن مثلًا والتي كان من أعظم مقاصدها تحدي الإنس والجن أن يأتوا بمثله كما ذكر القرآن ذلك تصريحًا في مواضع عديدة،

وهذا الذي ذكرته لا يُقلّل إطلاقًا من شأن وقيمة تلك الأمور الخارقة التي فعلها النبي لأنها في النهاية آيات وبراهين قد أيده الله بها لتكون شاهدةً على صدقه ونبوته، ولذلك يقول الدكتور عمر الأشقر:

«الآية هي اسم شامل لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواء أقصد به التحدي أم لم يقصد»[1].

وبذلك تكون دلالة لفظ (الآية) أعم وأشمل من دلالة لفظ (المعجزة) التي اشترطت فيها قيام دافع التحدي في قصد النبي أو الرسول (وذلك حسب تعريف المتكلمين الشهير للمعجزة).

الأمر الآخر هو أن استخدام ألفاظ القرآن هو الأولى في التعبير عن حقائق الإيمان ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهذه الألفاظ -الآيات والبراهين- إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجودًا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية) و(البينة) و(البرهان)»[2].

قال تعالى حاكيًا عن معجزتي موسى (العصا واليد): ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٣٢]، وقال أيضًا مُطلِقًا لفظ البرهان على معجزة النبي محمد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

كما ذكر تعالى لفظ الآيات في مواضع عديدة في القرآن منها: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١].

---

(١) انظر: كتاب (الرسل والرسالات) ضمن سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة للدكتور عمر سليمان الأشقر (ص ١٢٢) طبعة دار النفائس.

(٢) انظر: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٤١٢) طبعة دار العاصمة.

وبعد ذلك التوضيح فإنه لا يزال اصطلاح المسلمين كما قلت قائمًا على تسمية تلك الخوارق للسنن المعتادة التي قام بها النبي محمد والأنبياء من قبله بالمعجزات المادية أو الحسية، فالعبرة كما يقال بالحقائق والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

والمعجزة ليست خرقًا للسببية كما قد يظن البعض، فهي علاقة أيضًا بين سبب ونتيجة، ولكن السبب هنا ليس هو السبب الطبيعي المعتاد، وإنما هو التدخل والفعل الإلهي المُباشر بدون الأسباب المادية المعتادة وقوانين الكون.

يتحدث الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (المعجزة الكبرى القرآن) موضحًا وجه دلالة الأمور الخارقة للعادة على صدق دعوى النبوة:

«لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعي أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد؛ لأنه لا يغير العادات سواه، وإن الصادق يعلن دعواه ويقيم ذلك برهانًا عليها، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ويسمى في هذا الحال أنه معجزة»[١].

عندما تمرّ على أسماعنا أسماء أنبياء مثل موسى وعيسى وإبراهيم فإننا سُرعان ما نتذكر تلك المُعجزات التي أيدهم الله بها دليلًا على نبوتهم، فمثلًا بمجرّد سماع اسم موسىعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سرعان ما نستحضر تلك العصا التي تحولت إلى حية، وعندما يرد على سمعنا اسم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسرعان ما يستدعي الذهن مشهد خروجه من النار سليمًا معافًى، كما أنّ ذكر اسم المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجعلنا نستحضر سريعًا إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله ومثله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخروجه من بطن الحوت حيًا بعدما مكث فيه بعض الأيام، وكذلك الحال أيضًا مع نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسفينته العملاقة التي أنقذت المؤمنين من الطوفان العظيم ولكن الأمر الذي يدعو للتأمّل والعجب أنّ ذلك الارتباط الشرطي

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله (ص٨).

بين ذكر أولئك الأنبياء وبين الحُضور الذهني السريع لمُعجزاتهم الحسية لا يحدث نظيره عند ذكر النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ظنّ البعض أن معجزة الإسلام الوحيدة هي القرآن، وأن النبي محمدًا غير مُؤيدٍ بمعجزاتٍ حسية مثل باقي الأنبياء على الرغم من أنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أيّده بما لم يُؤيِّد به غيره فهو أكثرهم كمًّا وكيفًا وعددًا وتنوعًا في تلك المعجزات والأهم من ذلك أنّها جاءت من طرقٍ صحيحة متواترة ومن نفس الطريق الذي جاءت وثَبُتَتْ به معجزات الأنبياء السابقين وهو القرآن والسنّة!

وعدم حدوث ذلك الترابط الشرطي في حال النبي محمد بين مُجرّد ذِكره وبين الاستحضار السريع لمعجزاته المادية قد يكون له عدة أسباب من أهمها قلة الحديث عن تلك المعجزات في الخطاب الإسلامي عمومًا سواء كان خطابًا وعظيًّا أو خطابًا فكريًّا نخبويًّا، بالإضافة إلى طغيان النزعة المادية في العصر الحديث والتي تُريد تفسير كل شيء من داخل إطار العالم المادي ومسبباته والتي تُنكر أي أسباب خارقة من خارج قوانين الكون ونواميسه.

في الحقيقة الشخص الذي يؤمن بأن الله خلق ذلك الكون البديع من عدم لا يصعُب عليه إطلاقًا أن يُؤمن بتدخل إلهي مباشر تأييدًا لأنبيائه وعلامةً على صدقهم أمام أقوامهم، وأما من كان يُنازع أصلًا في مسألة وجود إله خلق الكون من العدم فهذا قطعًا لا أتكلم معه عن معجزات النبي الحسيّة بل ولا أتكلم معه أصلًا عن أدلة صدق الإسلام حتى يؤمن أولًا بوجود صانع لهذا الكون حتى يكون هناك أساسٌ للحوار نستطيع أن نتناقش وننطلق من خلاله، وهذا بالطبع له مبحث آخر.

إن المعجزة الأولى والخالدة في الإسلام التي أيد الله بها نبيه محمدًا هي معجزة القرآن، وهي معجزة تتناسب مع طبيعة رسالة الإسلام الخاتمة، فهي ليست معجزة حسية مادية مُرتبطة فقط بزمان ومكان حدوثها وبالأشخاص الذين شاهدوها وعاينوها، ولكنها معجزة خالدة على امتداد الزمان والمكان إلى قيام الساعة لتنذر الناس وتذكرهم في كل وقت وحين.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧][١].

لكن ما ذكرته عن أهمية ومركزية المعجزة القرآنية في الإسلام لا يعني أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يكن مؤيَّدًا بمعجزات حسية مثل باقي الرسل، بل قد ثبت في القرآن نفسه وفي أحاديث متواترة[٢] وأحاديث صحيحة متصلة السند كثيرٌ من معجزات الرسول الحسية، وهذه درجة عالية جدًّا من الصحة والموثوقية وهي -كما ذكرت- نفس درجة وطريق ثبوت المعجزات الحسية للأنبياء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم؛ والتي لا تثبت بطريق صحيح ولا سند متصل إلا من خلال نفس المصدر الذي تثبت به معجزات الرسول الحسية وهو القرآن والسنة الصحيحة؛ لأنّ الكُتب المقدسة لليهود والنصارى منقطعة السند بدرجة كبيرة مع ما طرأ عليها من تحريف وتبديل مما لا يجعلها مصدرًا صحيحًا لثبوت الأخبار، وهذا سنتكلم عنه لاحقًا في باب مقارنة الأديان.

يقول ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) بعدما ذكر معجزات موسى وعيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ:

«وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرسولين مع بُعد العهد وتشتت شمل أمتيهما في الأرض وانقطاع معجزاتهما، فما الظن بنبوة من معجزاته وآياته تزيد على الألف؟ والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرهم، ونقلها ثابت بالتواتر قرنًا بعد قرن، وأعظمها معجزة كتاب باق غض طرى لم يتغير ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كل وقت على الوجه الذى أخبر به كأنه كان يشاهده عيانًا»[٣].

---

(١) سيأتي الحديث عن المعجزة القرآنية إن شاء الله بالتفصيل في الباب الثاني.

(٢) المتواتر هو ما رواه جمع كثير عن جمع كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ويكون مستند خبرهم الحس، والتواتر يفيد العلم اليقيني وليس مجرد الظن.

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٧).

والآن سأذكر أمثلة من تلك المعجزات الحسيّة التي أيّد اللهُ بها نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- **الإسراء والمعراج:**

ثبتت هذه المعجزة في القرآن والسنة الصحيحة[1]؛ وتتحدث تلك المعجزة عن سفر النبي ليلًا من مكة إلى بيت المقدس، ثم عروجه من بيت المقدس إلى السماء العليا وقربه من الله كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم:٨-١٢].

كانت تلك الرحلة بالروح والجسد معًا وليست بالروح فقط، فلم تكن مُجرد رؤية وإلا لما تكلم عنها القرآن بلغة الإعجاز والإبهار حيث ابتدأها بكلمة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]؛ والتي تُشير إلى عظمة الله وإعجازه، والآية أيضًا تُوضح أن ذلك الإسراء كان بالجسد حيث قال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، والتي تعني بجسده وروحه، فاللغة والسياق لا يحتمل أن يقول بعبده كناية عن روحه فقط!

ووجه الإعجاز فيه أنه لا يُمكن أن يسافر أحد في رحلة ليليِّة من مكة إلى بيت المقدس ثم في رحلة كونية تتجاوز السماء ثم يعود في ليلة واحدة!

هذا لا يمكن تصوره إلا من خلال سند التأييد الإلهي.

ويضاف إلى ذلك دليل حسي إذ سأل المشركون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لما أخبرهم عن الإسراء والمعراج- عن صفة بيت المقدس فأجابهم تفصيلًا ولم يكن قبل الإسراء قد زاره كما حكى ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**قد رأيتُني في الحجر وقريشٌ تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكُربْتُ كربة ما كُربْتُ مثلها قط**».

---

(١) أحاديث الإسراء والمعراج كثيرة ومتواترة في دواوين السنة كلها كما في صحيح البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

قال: «**فرفعه الله لي أنظر إليه؛ ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتُهم به**»[1]، وفي رواية: «**لما كذبني قريش، قُمْتُ في الحجر فجلا اللهُ لي بيت المقْدِسِ، فطفقت أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»[2].

- **انشقاق القمر:**

هي معجزة ثابتة أيضًا في القرآن والسنة الصحيحة؛ قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

وجاء في صحيحي البخاري ومسلم أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما[3]، ووجه الإعجاز فيها أن النبي أراهم تلك الآية في نفس الوقت الذي طلبوا فيه منه أن يريهم آية، فلا يمكن أن يكون ذلك مصادفة بل كان بتأييد واضح من الإله.

وأهل قريش بعدها لم ينكروا ما حدث من انشقاق للقمر، ولكنهم قالوا إن ذلك كان سحرًا وتخييلًا وأن النبي قد أضل أعينهم!

فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:١-٢].

ولو أن تلك الواقعة لم تحدث لما سكت كفار وصناديد قريش الكارهين لدعوة النبي عن تكذيب القرآن الذي ذكر الواقعة.

---

(١) رواه مسلم (١٧٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٦).

(٣) حديث انشقاق القمر تواتر عن العديد من الصحابة واتفق البخاري ومسلم على إخراجه؛ فرواه البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢).

- **تكثير الطعام في يد النبي** ﷺ:

تواترت الأخبار عن تلك المعجزة التي حدثت مرات عديدة في مناسبات مختلفة في الهجرة ويوم الخندق وتبوك وغيرها ووسط جمع غفير من الصحابة ولم ينكر أحد وقوعها خاصة وقد انتشر الحديث عنها في الجزيرة العربية.

فقد جاء في الحديث المتفق عليه عند البخاري ومسلم أن النبي في يوم الخندق أطعم ألف نفر من شاة صغيرة وصاع من شعير، كما يحكيه لنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنه قائلًا: لما حُفِرَ الخندقُ رأيت برسول الله ﷺ خَمَصًا (أي جوعًا)، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت لي جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن، فذبحتها وطحنت، ففرغت إلى فراغي، فقطعتها في بُرمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت زوجتي: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، قال: فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله، إنا قد ذبحنا بهيمة لنا، وطحنت صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت في نفر معك، فصاح رسول الله ﷺ وقال: «**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع لكم سورًا فحي هلا بكم**»، وقال رسول الله ﷺ: «**لا تنزلن بُرمتكم، ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء**»، فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئتُ امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ لي، فأخرجت له عجينتنا فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: «**ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**» وهم ألف، فأُقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرمتنا لتغط كما هي، وإن عجينتنا لتخبز كما هو[1].

(١) رواه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩).

ويحكي لنا أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما حدث في غزوة تبوك فيقول: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وَادَّهَنَّا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افعلوا**»، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلتَ قلَّ الظَهَرُ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**»، فدعا بِنِطَع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بِكَسْرَةٍ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بالبركة، ثم قال: «**خذوا في أوعيتكم**»، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غير شاك، فيحجب عن الجنة**»[1].

وموقف آخر يرويه لنا أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ حيث يقول: قال أبو طلحة لأم سليم[2] لقد سمعتُ صوتَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضعيفًا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذهبتُ به، فوجدتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد، ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آرسلك أبو طلحة؟**» فقلت: نعم، قال: «**بطعام؟**» فقلت: نعم، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن معه: «**قوموا**» فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم؟ فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) رواه مسلم (٢٧).

(٢) أم سُليم هي أم أنس بن مالك، وأبو طلحة الأنصاري زوجها -رضي الله عنهم جميعًا-.

«**هلمي يا أم سليم، ما عندك**» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلًا[1].

وهناك من الأحاديث والآثار الأخرى الكثيرة التي تؤكد جميعها حدوث تلك المعجزة، ووجه الإعجاز فيها واضح؛ فهذا الأمر خارق للعادة ومفارق للسنن الكونية المعتادة، فلا يمكن تفسيره إلا أنه تأييد إلهي لذلك النبي وعلامة من الله على نبوته وصدقه.

- **نبع الماء من بين أصابعه:**

قد تواترت الأخبار بتلك المعجزة الخارقة وهي نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ حتى يشرب العدد الكثير من الصحابة، وقد تكرر ذلك مرات عديدة في وقائع مختلفة؛ منها:

- ما حكاه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه رِكْوَةٌ فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «**ما لكم؟**» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).(الركوة) إناء صغير من الجلد يُشرب منها الماء. (فجهش الناس) أي أسرعوا إلى أخذ الماء. (يثور) أي يخرج متدفقًا.

- ما يرويه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أُتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإناء، وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، «فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم» قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مائة[1]!
- ما يرويه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفرٍ، فقل الماء، فقال: «**اطلبوا فضلة من ماء**» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «**حي على الطهور المبارك، والبركة من الله**» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[2]!

إذن معجزة نبع الماء من بين أصابع النبي الشريفة ثابتة بأصح الأسانيد، وتكررت في مناسبات مختلفة أمام الجمع الغفير ولم ينكر ذلك أحد، ووجه الإعجاز أن ذلك خرق واضح للنواميس الكونية والذي لا يمكن أن يحدث لأي أحد إلا بتأييد من السماء.

- **تسبيح الطعام في يد النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فقد سمع الصحابة صوت الطعام في حضرة النبي وهو يسبح الله، ونحن نعلم من خلال النصوص الشرعية والآيات القرآنية أن كل شيء في ذلك الوجود يسبح الله عَزَّ وَجَلَّ بطريقته الخاصة التي قد لا نعلمها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

ووجه الإعجاز في تلك المعجزة هو أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل تسبيح الطعام في الصورة البشرية المفهومة لنا ثم أسمع الصحابة ذلك الصوت، وهذا أمر خارق للسنن المعتادة.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٢)، ومسلم (٢٢٧٩)، (**الزوراء**) اسم موضع في سوق المدينة تلك الأيام.
(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩).

وقد جاء ذكر تلك المعجزة في صحيح البخاري في حديث عبد الله بن مسعود المتقدم؛ حيث قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[1].

- **حنين الجذع للنبي** ﷺ:

فقد جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العِشَار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»[2].

وحدثت تلك الواقعة أمام الجمع الغفير من الصحابة الذين سمعوا صوت الجذع وبكاءه وكان ذلك أيضًا آية وعلامة من الله عز وجل على صدق النبي في دعوته الاتصال بالسماء.

- **استجابة دعاء النّبي** ﷺ:

فقد ورد في الكثير من الآثار الصحيحة والتي تبلغ حد التواتر المعنوي أنّ ما من أحدٍ دعا له النّبي إلّا وقد تحقّقت دعوته في حياته أو بعد مماته، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ منها:

- دعاء النّبي لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يفقّهه الله في الدين ويُعلّمه التأويل[3]، وبالفعل تحقّقت الدعوة وصار ابن عباس بعدها حَبْر الأمّة وترجمان القرآن.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٥٧٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٥٨٥)، (العشار) جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر.

(٣) رواه أحمد في مُسنده (٤/ ٢٢٥)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١٧٣)، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّ رسول الله وضع يده على كتفي -أو على منكبي، شكّ سعيد- ثمّ قال: «**اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل**».

- دعاء النّبي لأحدِ العُمَرين بالدخول في الإسلام[1] وكان يقصد بذلك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبا جهل)، وقد تحققت الدعوة وأسلم عمر بن الخطاب وكان إسلامه بالفعل فتحًا على المسلمين.
- دعاء النّبي لقومه بأن يُغيثَهم الله بإنزال المطر وذلك بعدما دخل عليه رجلٌ -وهو يخطب الجمعة على منبره- يطلب منه أن يدعو الله بإنزال الغيث، وقد استجاب الله دعاء النّبي وانتشرت السُحب وظلّت السماء تُمطر أسبوعًا كاملًا حتى دخل عليه رجلٌ بعدها يطلب منه أن يدعو الله بإمساك المطر بسبب كثرتها، فدعا النبي قائلاً: اللهم حوالينا لا علينا، وقد استجاب الله دعوته أيضًا[2].
- دعاء النّبي لأنس بن مالك بالبركة في المال والولد[3] وقد كان، فما مات أنسٌ حتى رأى مائةَ ولد من صلبه[1]، كما كان من أثرياء الأنصار بعدما كان خادمًا في صغره،

(١) رواه الترمذي في صحيحه (٣٦٨١)، وصحّحه الألباني، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب**»، قال ابن عمر: وكان أحبّهما إليه عمر.

(٢) رواه البُخاري في صحيحه (١٠١٣)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رَجُلًا دَخَلَ يَومَ الجُمُعَةِ مِن بَابٍ كانَ وِجَاهَ المِنْبَرِ، ورَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا، فَقالَ: يا رَسولَ الله، هَلَكَتِ المَوَاشِي، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، قالَ: فَرَفَعَ رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا. قالَ أنَسُ: ولَا والله ما نَرَى في السَّمَاءِ مِن سَحَابٍ، ولَا قَزَعَةً، ولَا شيئًا، وما بيْنَنَا وبيْنَ سَلْعٍ مِن بَيْتٍ، ولَا دَارٍ .قالَ: فَطَلَعَتْ مِن ورَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أمْطَرَتْ، قالَ: والله ما رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِن ذلكَ البَابِ في الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ، ورَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقالَ: يا رَسولَ الله، هَلَكَتِ الأمْوَالُ وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا، قالَ: فَرَفَعَ رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، ولَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ علَى الآكَامِ والجِبَالِ، والآجَامِ والظِّرَابِ، والأوْدِيَةِ ومَنَابِتِ الشَّجَرِ. قالَ: فَانْقَطَعَتْ، وخَرَجْنَا نَمْشِي في الشَّمْسِ. قالَ شَرِيكٌ: فَسَأَلْتُ أنَسَ بنَ مَالِكٍ: أهو الرَّجُلُ الأوَّلُ؟ قالَ: لا أدْرِي.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٦٦٠)، عن أنس بن مالك دَخَلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَما هو إلَّا أنَا، وَأُمِّي، وَأُمُّ حَرَامٍ خَالَتِي، فَقالَ: قُومُوا فَلِأُصَلِّيَ بكُمْ في غيرِ وَقْتِ صَلَاةٍ، فَصَلَّى بنَا. =

ويُروى أنّه عاش كثيرًا فوق المائة عام فهو آخر من تُوفي من صحابة رسول الله حتّى قال عن نفسه: طال عمري واستحييت أهلي واشتقت إلى لقاء ربي[٢].

- دعاء النّبي لقبيلة دوسٍ بالهداية[٣]، وقد استجاب الله الدعاء وهداهم للإسلام بعدما كانوا رافضين مُعاندين.

وهكذا تُعطينا تلك الأمثلة وغيرها إشارةً واضحةً بأنّ النّبي محمدًا كان دائمًا مُجاب الدعوة ولم يكن هذا الأمر اعتباطيًا أو صُدفيًّا ولكنّه يحمل دلالةً واضحةً على صدق ذلك النّبي وتأييد الله له. فالله لا ينصر الكاذبين ولا يُصلح عمل المفسدين.

- **إبراء المريض:**

هذه المعجزة حدثت أكثر من مرة ومنها ما حدث يوم خيبر حين تَفِل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عين علي بن أبي طالب وكان يشتكي عينه يومها فبرأ، ولم يُنكر وقوع ذلك أحدٌ ممن حضروا تلك المناسبة.

ونلاحظ هنا أنّ كثيرًا من هذه المعجزات الحسيّة قد حدثت أثناء تجمّع الصحابة في أعداد كثيرة قد تصل إلى المئات أو الآلاف في أوقات الحروب أو أثناء خطابات الرسول للصحابة كالجمعة وغيرها بحيث يستحيل اتفاقهم على الكذب، حتى إنّ من عاش بعدها

= فَقالَ رَجُلٌ لِثَابِتٍ: أَيْنَ جَعَلَ أَنَسًا منه؟ قالَ: جَعَلَهُ علَى يَمِينِهِ، ثُمَّ دَعَا لَنَا أَهْلَ البَيْتِ بكُلِّ خَيْرٍ مِن خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَقالَتْ أُمِّي: يا رَسولَ الله، خُوَيْدِمُكَ ادْعُ اللهَ له، قالَ: فَدَعَا لي بكُلِّ خَيْرٍ، وَكانَ في آخِرِ ما دَعَا لي به أَنْ قالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ له فِيهِ.

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢/ ١٢٨)، أسد الغابة لابن الأثير (١/ ٨٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٠٩/ ٦٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، وأحمد (٧٣١٥)؛ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جاء الطُفيلُ ابن عمرو الدوسي إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنّ دوسًا قد عصت وأبت، فادعُ الله عليهم، فاستقبل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبلة ورفع يده، فقال النّاس: هلكوا، فقال: اللهم اهدِ دوسًا وائتِ بهم، اللهم اهدِ دوسًا وائتِ بهم.

وسمع هذه الأخبار تتناقل وتُكتب وتُدوّن في الكتب لم يُنكر ذلك أو يُكذّبه أو يقول أنّ ذلك لم يحدث.

أتعجب حقيقةً ممّن يشكّ في وقوع هذه المعجزات الحسية بعد ثبوت تواترها، فمن الثابتِ والمعلوم عند الباحثين والمهتمين بنظرية المعرفة أنّ هناك منهجية علمية لا بد للباحث أن يلتزمها، فمن يشكّ في الخبر بعد ثبوت تواتره وتوفّر شروطه له أن يشك في كل ما نُقل إلينا من أخبار سواء كانت أخبار تاريخية أو معرفية في كل مجالات العلم والمعرفة، فنحن لم نقم بأنفسنا بكل التجارب العلمية ولم نذهب إلى كل الأماكن الجغرافية ولم نشهد كل الوقائع التاريخية ولم نرَ كل الشخصيات المشهورة والمعروفة وعلى الرغم من ذلك نؤمن بوجود كل ذلك إيمانًا يقينيًّا طالما نقل إلينا بالتواتر.

ولذلك من يشك في معجزات النبي الحسية فليشك إذن حينها في وجود شخصية تاريخية مثلًا اسمها إسحاق نيوتن، وليشك أيضًا في حدوث الثورة الفرنسية أو في وجود بقعة جغرافية تدعى استراليا أو بريطانيا!

ليس صحيحًا أن يشك الإنسان في كل شيء فهذا وإن بدا حلًّا مريحًا يُغني عن تحمل عناء البحث ومشقة التفكير إلا أنه لا يوصل للحقيقة في النهاية، ومثله أيضًا الإيمان بكل شيء وإن خالف الأدلة والبينات، فالشك والإيمان بكل شيء كلاهما يريحان من التفكير ولكن من أراد الوصول للحقيقة فعليه أن يلتزم بالمنهجية العلمية وأن يتبع الدليل إلى حيث يقوده بغض النظر عن النتيجة التي يصل إليها.

ونختم ذلك الفصل بقول نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) يؤكد فيه مدى موثوقية تلك الأخبار الواردة عن المعجزات الحسية للنبي محمد بحيث يمكن الاعتماد عليها والوثوق فيها كدليل على صدق النبي محمد وتأييد الله له:

«وهذه الأخبار منها ما هو في القرآن ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام وحنين الجذع ونحو ذلك فإن كلًّا من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت ونقلته الأمة جيلًا بعد جيل وخلفًا عن سلف، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيرًا من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن وأكثر ممن سمع ونقل أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها، بل إن مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها.

وأما هذه الآيات فنقلتها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة، من جهة الأخبار المعيّنة، وذلك أن آيات الرسول كان كثيرًا منها يكون بمشهد من الخلق عظيم، فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبع الماء من بين أصابعه و...»[1].

(١) انظر: كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٣٢٤) ط. دار العاصمة.

الفصل الرابع

بشارات الكتب السابقة

نحتاج قبل الخوض في تناول بشارات الكتب السابقة برسالة محمد ﷺ أن ندرك تفاوت دلائل صدق النبوة من جهة درجة ثبوتها أولًا، ومن جهة ما يحتج به أصالةً وما يذكر ضمن الشواهد وما يستأنس به. ولذا ففي ضوء تناول بشارات الكتب السابقة أشير أولًا إلى العلامات التي يمكن اعتبارها لتمييّز النبي الصادق كما ذكرها صاحب كتاب (الرسول ﷺ)(١) وهي كما يلي:

(الصفات الشخصية - المعجزات - النبوءات المستقبلية - البشارات - الثمرات).

هذه العلامات وإن كانت بالفعل مُميّزة للأنبياء دون غيرهم إلّا أنّه لا يُشترط توفّرها جميعًا في نبيٍ واحدٍ حتى تثبت نبوته، فهناك علامات لا بد من توفّرها في كل نبي وهناك علامات أخرى لا تعد شرطًا في صحة النبوة.

فعلى سبيل المثال البشارات من أقوال الأنبياء والكتب السابقة بنبيٍ قادم بعد ذلك هي من أدلة صدق ذلك النبي المتأخر، ولكنها في الوقت ذاته ليست شرطًا في النبوة إذ ليس بالضرورة أن يكون لكل نبيٍ بشارات سابقة، وهذا بخلاف مثلًا الصفات الشخصية لصاحب الرسالة كالصدق والأمانة وغيرها، وبخلاف المعجزات فهي أيضًا علامة لازمة لكل نبي.

وقد أخبرنا القرآن أن النبي محمدًا بَشَّرَ به الأنبياءُ من قبله في كتبهم وخاصة التوراة والإنجيل؛ قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف:١٥٧].

---

(١) مستفاد من كتاب الرسول ﷺ لسعيد حوى - ط.دار عمار.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

ولا يلزم في البشارات بنبي قادم أن تكون بذكر اسم النبي تصريحًا ولكن قد تكون بذكر صفاته وشمائله وما يُميزه عن غيره، إلا أن البشارة بالنبي محمد كانت بصريح اسمه ﴿أَحْمَدُ﴾، كما كانت بصفته أيضًا ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾، وهذا يؤكد صدقه.

ولكن إذا كان الأمر كذلك فأين هذه البشارات باسم النبي وصفته الآن في كتاب اليهود والنصارى المقدس؟!

الحقيقة أن نفس القرآن الذي أخبرنا أن الرسول محمدًا قد بُشر به في التوراة والإنجيل هو نفسه أيضًا القرآن الذي أخبرنا أن هذه الكتب قد حُرفت وطرأ عليها التبديل والتغيير.

لذا أود أن أؤكد أن الكتاب المقدس الموجود الآن بعهديه القديم والجديد هو أصلًا ليس قطعي الثبوت (مثل القرآن)، بل إن فيه ما نقطع ببطلانه وتحريفه لمخالفته معارف ضرورية وأشياء بدهية أو لمخالفته ما صح من الوحي الإلهي عن الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه أيضًا ما لا نقطع ببطلانه ولكنه أيضًا ليس متصل السند، أو ظني الثبوت لا يصلح كدليل مستقل على صدق النبوة والإسلام؛ لأن الدليل إذا قامت الدلائل على ضعف ثبوته -فضلًا عن تحريفه- لم يصلح من جهة الاستدلال المرجح بل يذكر استئناسًا؛ وسنتكلم لاحقًا عن تحريف الكتاب المقدس في الباب الثالث بإذن الله.

لذلك أختلف كثيرًا مع ذلك الاتجاه الذي يُؤسس أدلته على صدق الإسلام وصدق النبوة بشكل أساسي على بشارات الكتاب المقدس وأرى أن هذا ليس دليلًا قطعيًّا في ثبوته حتى ولو كان واضحًا في دلالته على النبي محمد وصفاته.

وقد يسأل سائل الآن: طالما أن الأمر كذلك فلماذا خصصت فصلًا كاملًا في ذلك

الكتاب الخاص بأدلة صدق الإسلام للكلام عن بشارات الكتب السابقة بالنبي محمد؟!

فالجواب أنني في الحقيقة لم أجعل هذه البشارات دليلًا مستقلًّا أو أساسيًّا على صدق الإسلام بل ذكرتها فقط استئناسًا مع باقي الأدلة الأخرى، وإنما أردت من خلال ذكر هذه البشارات أن أرد على ما يردده كثير من اليهود والنصارى أن الرسول محمدًا ليس مذكورًا في كتبهم كما يدعي القرآن ذلك ثم يتخذون ذلك سبيلًا للطعن في القرآن كله، ولذلك قلت إن القرآن الذي ذكر أن هناك بشارات في التوراة والإنجيل بالنبي محمد هو نفسه القرآن الذي أخبرنا أن هذه الكتب قد طرأ عليها التحريف والتبديل والتدخل البشري، ومن البديهي والمنطقي أن تكون النصوص التي تبشر بنبي ليس من بني إسرائيل هي أولى النصوص بالتحريف وأكثرها عُرضةً للتبديل والتغيير على يد بني إسرائيل أنفسهم، والواقع أن الدليل على تحريف الكتاب المقدس ليس فقط ما ذكره القرآن وإنما واقع الكتاب المقدس نفسه يشهد بذلك ويُؤكده لكل من طالعه وهذا ما سأتكلم عنه لاحقًا في الباب الثالث.

بالإضافة إلى أنني أردت أن أوضح أن بعض البشارات الموجودة الآن في الكتاب المقدس تنطبق في دلالتها على شخص النبي محمد وصفاته أكثر بكثير من أي أحد غيره، وقد يكون ذلك من بقايا الوحي الذي لم يُحرف لكن ليس بين أيدينا ما يثبت صحة ذلك.

خلاصة القول أن أقل ما يُمكن إثباته من خلال هذا الفصل أن البشارة بالنبي محمد في الكتاب المقدس مُمكنة وليست مستحيلة فلا يحق لأحد من أهل الكتاب بعد ذلك أن يحتج بعدم وجود بشارات بالنبي محمد في كتابهم المقدس على كذب القرآن.

والآن سأعرض بعض الأمثلة من تلك البشارات الموجودة في كتاب اليهود المقدس (التوراة وما معها من أسفار أخرى) وفي كتاب النصارى المقدس (والذي يتكون من جزئيين الأول هو نفس كتاب اليهود والذي يعرف عندهم بالعهد القديم والثاني هو الأناجيل وما معها من أسفار أخرى والذي يعرف بالعهد الجديد).

- **أمثلة من بشارات العهد القديم:**

- **البشارة الأولى:**

سفر التثنية (١٨/١٨-٢٠): يقول الإله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: {سأقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم وسأجعل كلامي في فيه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه به، وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به أو يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي موتًا}.

فهذه بشارة بنبي يأتي بعد موسى وله ثلاث صفات تميزه:

١) مثل موسى.

٢) من بين إخوة بني إسرائيل.

٣) كلام الله في فمه.

فلو نظرنا إلى الصفة الأولى (مثل موسى) سنجد أنه لم يأت أحد من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحيث يمكن أن يُقال عنه أنّه مثل موسى، حتى أن الكتاب المقدس نفسه يؤكّد ذلك كما في سفر التثنية (١٠/ ٣٤) حيث يقول: {ولا يقوم أيضًا نبي في بني إسرائيل كموسى الذي ناجاه الله}.

وبالتالي تلك البشارة لا تصلح أن تكون بشارة بيوشع بن نون كما يدعي اليهود لأن النص صريح في دلالته أنه لن يقوم في بني إسرائيل مثل موسى، وهي أيضًا لا تصلح أن تكون بشارة بالمسيح لأن المسيح أيضًا من بني إسرائيل؛ والبشارة فيها أنه من إخوة بني إسرائيل وليس من بني إسرائيل أنفسهم، كما أنه بقليل من البحث والنظر سنجد أنه لا يمكن أن يوصف المسيح بأنه مثل موسى، فالمسيح لم يأتِ بشريعة جديدة كما جاء موسى، ولم يحدث له تمكين بل ظل مستضعفًا، كما أنه لم يستطع أن يقيم دولة يحكم فيها بشرع الله أو يقضِ فيها بين الناس، ولم يخض حروبًا ومعارك بل كانت شريعته يغلب

عليها الطابع الروحاني، وهذا يختلف كثيرًا عن موسى الذي يشبه محمدًا إلى حد كبير فكلاهما مولود ولادة طبيعية من أب بيولوجي وكلاهما تزوج وأنجب وكلاهما جاء بشريعة جديدة وكلاهما حدث له التمكين بعد فترة استضعاف وكلاهما أقام دولة وحكم فيها بشرع الله وكلاهما خاض المعارك والحروب وقتل الطواغيت أمثال فرعون موسى الذي أغرقه الله وأيضًا فرعون أمة الإسلام (أبو جهل بن هشام) الذي قُتل يوم بدر، حتى أن كليهما اشتركا في الكفر والعناد والجحود بعدما تبين لهما الحق كما وصف القرآن ذلك: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

خلاصة القول إن أوجه الشبه كثيرة جدًّا بين النبيين الكريمين موسى ومحمد عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، ولذلك ليس مستغربًا أن تكون قصة موسى هي أكثر القصص ورودًا في القرآن وذلك لكي يتعلم منها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه ما ينفعهم في واقعهم ولتكون أيضًا تسلية للنبي وتذكرة له بموعود الله من النصر والتمكين بعد الاضطهاد والاستضعاف، وقد أشار القرآن إلى ذلك قائلًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل:١٥].

إذن الصفة الأولى من صفات النبي المبشر به في تلك البشارة في العهد القديم **(مثل موسى)** لا تنطبق على أحد مثلما تنطبق على النبي محمد.

ثم بالنظر إلى الصفة الثانية **(من بين إخوة بني إسرائيل)** فسنجد أنها تعني أن تلك البشارة خاصة بنبي ليس من بني إسرائيل ولكنه من إخوة بني إسرائيل، فلو كان من بني إسرائيل لقال الإله (سأقيم لهم نبيًّا منهم)، ولكنه قال: (من بين إخوتهم) !

فمن هم إخوة بني إسرائيل؟! إنهم بنو إسماعيل، فاليهود يقرون بأن بني إسماعيل (العرب) إخوة لبني إسحاق وإسرائيل ولذلك يسمونهم أولاد العم لأن اليهود من نسل إسحاق والعرب من نسل إسماعيل، ولذلك هذه البشارة لا تنطبق على يوشع بن نون كما يزعم اليهود لأنه من بني إسرائيل ولا تنطبق على المسيح لأنه أيضًا من بني إسرائيل.

كما جاء أيضًا في العهد الجديد في إنجيل يوحنا (١/ ١٩-٢١) أن اليهود سألوا يوحنا المعمدان (يقصدون يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ) والذي كان معاصرًا للمسيح:

{هل أنت المسيح؟ فقال: لا. هل أنت إيلياء؟ فقال: لا. هل أنت النبي؟ فقال: لا.}

إذن اليهود كانوا يعلمون أن هذا النبي الْمُبَشَّر به في التوراة لم يظهر حتى زمان عيسى.

أيضًا فيه رد على النصارى الذين ينسبون كل بشارات التوراة بالنبي محمد بأنها بشارات بالمسيح حيث إن كلام يوحنا المعمدان واضح في أن هذا النبي الْمُبشر به ليس هو المسيح، وإنما هناك نبي آخر غير المسيح تبشر به نصوص التوراة وينتظر اليهود قدومه، ولذلك كان يهود الجزيرة العربية يستفتحون على مشركي قريش بأن هذا زمان ظهور ذلك النبي بالرغم من أن المسيح كان قد ظهر قبلها بقرون.

إذن الصفة الثانية من صفات النبي المبشر به في تلك البشارة {من بين إخوة بني إسرائيل} لا تنطبق على أحد مثلما تنطبق على النبي محمد.

ثم بالنظر إلى الصفة الثالثة {سأجعل كلامي في فيه} فسنجدها تشبه إلى حد كبير التعبير القرآني ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣-٤]، كما أنها قد تكون إشارة أيضًا إلى أُمية ذلك النبي فهو يتكلم فقط بما يلقيه الله إليه من الوحي كما تحدث عنه القرآن وقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١]، أي أنه يقول ما يسمعه من وحي السماء.

إذن الصفة الثالثة من صفات النبي المبشر به في تلك البشارة {سأجعل كلامي في فيه} تنطبق هي الأخرى على النبي محمد.

إذن خلاصة القول أن هذه البشارة في سفر التثنية في العهد القديم تنطبق في دلالتها بشكل واضح على النبي محمد.

إضافة إلى ذلك أن باقي البشارة في غاية الأهمية حيث يقول الإله في تتمة الكلام: {وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي موتًا} !

ومعناه أن النبي الذي يكذب على الله هو الذي سيموت حتى لا يُضلل الناس، والواقع التاريخي يشهد بأن النبي محمدًا ظل حيًّا حتى بلَّغ الدين كله ولذا نزلت الآية التي تؤكد ذلك في حجة الوداع: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، ثم مات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدها على فراشه بعدما أدى رسالته وبلغ دعوته على أكمل وجه وبعدما حدث له التمكين بظهور الحجة وبعلو شأن الإسلام على سائر الملل والأديان وأيضًا بإقامه دولة عظيمة يحكمها بكتاب الله.

- **البشارة الثانية:**

سفر التثنية (٣٣/ ٢): {يقول الإله: جاء الرب من طور سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران} .

هذه الآية تتكلم عن ثلاثة أنبياء نطقوا بالوحي وباسم الرب:

١) النبي الأول جاءه الوحي في طور سيناء ومعلوم أنه موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

٢) النبي الثاني جاءه الوحي في ساعير، وهو مكان في الشام في فلسطين حاليًا بالقرب من أورشليم، ومعلوم أنه هو المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

٣) والنبي الثالث جاءه الوحي في فاران، ولكي نعرف من هو لا بد أن نعرف أين هي فاران؟!

يجيبنا العهد القديم نفسه في سفر التكوين عندما تكلم عن إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وأمه هاجر عندما تركهما إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في الجزيرة العربية وحدهما ثم فجَّرُ الله ماء زمزم

تحت قدم إسماعيل، فيتحدث حاكيًا عن إسماعيل ويقول: {وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في برية فاران}[1]، إذن فاران هذه موجودة في جزيرة العرب وتُطلق جبال فاران على جبال بالقرب من مكة المكرمة.

وبذلك تكون هذه البشارة خاصة بالنبي محمد الذي جاءه الوحي في الجزيرة العربية.

وهذه الآية في سفر التكوين تشبه إلى حد كبير قول الله تعالى في القرآن: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]؛ فالتين والزيتون كناية عن فلسطين، وطور سينين هو جبل الطور، والبلد الأمين هو مكة، وكأن الآيتين خرجتا من مشكاة واحدة.

- **البشارة الثالثة:**

المزامير (٨٤/ ٤): {طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يسبحونك، طوبى لأناس عِزهم بك، طرق بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعًا يذهبون من قوة إلى قوة}.

النص يتحدث عن أمة أو مجموعة من الناس سيجتمعون في بيت الله للصلاة والتسبيح والعبادة، ثم يعطي النص بعض الأوصاف لذلك المكان الذي فيه بيت الله مثل:

- أن اسمه وادي البكاء أو الجفاف كما جاء في الترجمات العربية للعهد القديم، ولكننا نجد أن النسخة العبرانية للعهد القديم -وهي أقدم نسخة- ذُكر فيها اسم (وادي بكة) بدلًا من وادي البكاء، وقامت الترجمة الإنجليزية بترجمتها إلى valley of PAKKAH ومكتوبة هكذا بالحروف الكبيرة Capital Letters الدالة على أن PAKKAH هو اسم علم.

---

(١) سفر التكوين (٢١/ ٢١).

ولكن الغريب أن النسخ (العربية) التي تُرجمت من النسخة العبرانية القديمة قامت بترجمة اسم (بكة) إلى البكاء أو الجفاف على الرغم من أن الأسماء لا تُترجم وإنما تُكتب كما هي!، ومعلوم أن بكة هي مكة، والقرآن أيضًا قد أطلق عليها هذا الاسم حين قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، كما أن اللفظة المستخدمة في الترجمة العربية (وادي الجفاف) قد تكون وصفًا لذلك الوادي الجاف في مكة والمعروف بأنه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧] كما وُصف في القرآن.

- أن الناس يصيرونه ينبوعًا، وذلك أيضًا حاصل في مكة حيث الينبوع الشهير للماء الذي لا يجف والمعروف بماء زمزم.
- أن الناس هناك يذهبون من قوة إلى قوة، وفي نسخة الترجمة العربية المشتركة للكتاب المقدس (يذهبون من جبل إلى جبل)، وهذا وصف دقيق لما يحدث في بيت الله في مكة أثناء موسم الحج حيث يذهب الحجاج من جبل الصفا إلى جبل المروة.

إذن الخلاصة أن هذه البشارة من الواضح أنها بشارة بأمة الإسلام الساكنين في بيت الله حيث يسبحون الله ويعبدونه في ذلك الوادي الجاف -الغير ذي زرع- الموجود في بكة، والذي به ينبوع للماء (زمزم)، والناس فيه يذهبون من جبل الصفا إلى جبل المروة!

- **البشارة الرابعة:**

سفر التكوين (٤٩/ ١٠): {لا يزول الصولجان من يهوذا أو التشريع من بين قدميه حتى يأتي شايلوه (أو شيلون) ويكون له خضوع الأمم}.

المقصود بالصولجان هو السلطة الدنيوية السياسية، والتشريع هو السلطة الدينية (النبوة).

وكانت النبوة في بني إسرائيل دائمًا في نسل (يهوذا بن يعقوب) أحد أبناء إسرائيل الاثني عشر، ويقال إن هذا هو السبب في تسميتهم باليهود، والبشارة هنا تخبر أن النبوة ستظل في نسل يهوذا حتى يأتي ذلك النبي الذي تنتقل معه النبوة من نسل يهوذا.

ومعلوم أن النبي محمدًا هو الذي بقدومه انتقلت الرسالة من بني إسرائيل (ومنهم نسل يهوذا) إلى بني إسماعيل، وأيضًا هو الذي خضعت له الأمم بتمكين الله له فخضعت له قبائل العرب ثم الفرس والروم وأقام دولة عظيمة مع العلم أن ذلك الأمر لم يحدث لغيره.

وهناك أيضًا نص آخر يؤكد تلك الفكرة ويبشر بالأمة التي ستحمل راية النبوة والدعوة بعد بني إسرائيل حيث جاء في سفر التثنية (إصحاح ٣٢: ٢١) أن الإله يقول عن بني إسرائيل: {هم أغاروني بما ليس إلهًا، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أغيرهم بما ليس شعبًا، بأمة غبية أغيظهم}، وفي طبعة سنة ١٨٤٤م: {وبشعب جاهل أغضبهم}.

والخطاب هنا مُوجه إلى بني إسرائيل توبيخًا لهم، ومعناه أن الله غضب منهم لأنهم وقعوا في الشرك وقتلوا الأنبياء ولذلك توعدهم أنه سيغيرهم وسينقل مركزية الوحي والنبوة منهم إلى غيرهم.

وهذا وحده كافٍ لإثبات التصاق البشارة بأمة النبي محمد؛ لأن الشخص الوحيد الذي ادعى النبوة وهو حامل أيضًا لصفات النبوة وجاء من خارج بني إسرائيل هو النبي محمد، كما أن الإله في تلك البشارة أعطى وصفًا للأمة الجديدة التي ستنتقل إليهم مركزية قيادة البشرية من خلال النبوة والرسالة وهي أنهم (شعب جاهل أو أمة غبية)، وذلك الوصف يحتمل دلالتين: **الأولى**: أنهم شعب أمي، وهي تنطبق على أمة العرب وقت بعثة النبي كما ذكر القرآن ذلك حين قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

وسبحان الله ما أقرب هذا الوصف بالوصف التاريخي الشهير لأمة العرب وقت

بعثة النبي وهو وصف الجاهلية لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وكانوا محتقرين من اليهود لأنهم أبناء هاجر الجارية.

الثانية: أنهم شعب أو أمة ليس فيهم نبي ولا كتاب وهي تنطبق أيضًا على أمة العرب حيث كانوا وثنيين وعباد أصنام.

إذن الخلاصة أن هاتين البشارتين في العهد القديم تنطبقان على النبي محمد وعلى أمته التي حملت راية ورسالة التوحيد في العالم بعدما غضب الإله على بني إسرائيل واستبدل بهم حين أشركوا بالله وضيعوا الدين ولم يحفظوه وقتلوا الأنبياء بغير حق.

وقد يتبادر هنا سؤال وهو إذا كان الأمر كذلك والبشارات بصفات النبي محمد وبأمته ما زالت موجودة في كتاب اليهود والنصارى المقدس (العهد القديم)، فلماذا إذن لم يدخلوا جميعًا في الإسلام ويؤمنوا بنبوة النبي محمد؟!(1).

نقول هناك أسباب كثيرة لذلك لكننا نلقي الضوء على سببين رئيسين:

الأول: **الحسد**: هناك الكثير ممن لم يدخلوا في الإسلام ولم يؤمنوا بنبوة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ دفعهم الحسد لرفض دعوته، ومن أوضح هؤلاء اليهود؛ فكانوا يعلمون أن هناك نبيًّا مبشرًا به في التوراة؛ كما قال تعالى في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة:١٤٦]، وكانوا يعلمون أن صفات ذلك النبي لا تنطبق على المسيح عيسى بن مريم ولذلك لم يؤمنوا بالمسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ(2)، وظلوا ينتظرون خروج ذلك النبي المبشر به ورغم ذلك لما بُعث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كفروا به وأنكروا نبوته كما قال تعالى:

(١) بالفعل هناك الكثير من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام على مر التاريخ بسبب هذه البشارات أمثال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والنجاشي وسلمان الفارسي الذي كان ملازمًا لعلماء اليهود والنصارى قبل إسلامه وغيرهم الكثير على مر العصور.

(٢) ليس لليهود حجة في عدم إيمانهم بالمسيح لأنه حتى ولو لم تنطبق عليه البشارات إلا أنه نبي مؤيد بمعجزات دالة على صدقه في نبوته.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، حقدًا منهم وحسدًا لأنه بُعث من العرب ولم يكن من بني إسرائيل كما كانوا يظنون.

فمعلوم أن روح العنصرية للشعب اليهودي ولبني إسرائيل مكون أساسي من مكونات الشخصية اليهودية التوراتية؛ فاليهودية (المُحرفة) ديانة قومية عنصرية يؤمنون أنهم شعب الله المختار وأن النبوة لا بد أن تكون فقط منهم ونصوص العهد القديم (المُحرف) تؤكد هذا المعنى بشدة وتجعل باقي الأمم عبيدًا وخدمًا لشعب اليهود المختار، وهذه النزعة العرقية العنصرية هي التي جعلتهم يرفضون نبوة محمد لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون النبي منهم وسيكون القائد لبني إسرائيل وسينتصر على باقي الأمم، فلما بُعث من العرب كفروا به لأنه كما يعتقدون من أبناء الجارية هاجر عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ (على حد وصفهم)، وهم أولاد سارة الحرة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، فكيف لابن الجارية أن يكون سيدًا وقائدًا على أبناء الحرة؟!

ووقع في أنفسهم أنه كيف بعد كل ذلك الانتظار يكون ذلك النبي القائد الذي سيقودهم من أبناء هاجر الجارية ومن نسل إسماعيل!

ظهر هذا جليًّا إبان البعثة المحمدية حيث كان اليهود يستفتحون على مشركي الجزيرة العربية ويتوعدونهم باقتراب خروج النبي المُبشر به في كتبهم والذي سيقودهم إلى النصر والتمكين، والذي تجمعوا في يثرب وحولها انتظارًا لظهوره، ولكن لما جاءهم ذلك النبي الذي عرفوا نبوته وصدقه وصفاته (إلا أنه فقط من العرب من بني إسماعيل) كفروا به فاستحقوا اللعن والطرد والغضب!

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، ثم بين سبحانه السبب الرئيس في عدم إيمانهم بالنبي محمد فقال:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٠-٩١].

فكان أبلغ وصف لأمثال هؤلاء هو الوصف القرآني لهم بـ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]؛ حيث إنهم يعلمون الحق من كتبهم ولكنهم لا يتبعونه بل ولا يستطيعون أن يتبعونه ما دامت تلك النزعة العنصرية تجري في عروقهم وتسيطر على تفكيرهم، ومادام الكبر والشعور بالعُلو والفوقية يملأ قلوبهم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

الثاني: نسبة بعض تلك البشارات إلى غير النبي محمد مثل المسيح عيسى بن مريم أو يوشع بن نون أو نبي آخر الزمان أو المسيا المنتظر(١) الذي لم يأت بعد وفق اعتقاد اليهود.

وهؤلاء نرد عليهم بما تقدم ذكره مما جاء في إنجيل يوحنا (١/ ١٩-٢١) عندما سأل اليهود يوحنا المعمدان إن كان هو المسيح أو إيليا أو النبي، فأجاب بأنه ليس أي منهم!، فهذا النص يثبت أنه وقت زمان المسيح كان اليهود ينتظرون نبيًّا آخر!

(١) المخلص المُنتظَر وهو -بحسب زعم اليهود- القائد الذي تنتظره اليهود ليحكم الشعب اليهودي، ويُوَحِّد أسباط إسرائيل، ويُعلن عن بدء العصر المسياني.

- **أمثلة من بشارات العهد الجديد:**

- **البشارة الأولى:**

إنجيل يوحنا (١٤/ ١٥، ١٦): يقول يسوع المسيح: {إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد}.

أولًا: هذه البشارة من المسيح في العهد الجديد، ومعلوم أن الشخص الوحيد الذي جاء بعد المسيح مدعيًا للنبوة ومعه من المؤهلات والصفات الشخصية ما يجعله جديرًا بأن يكون محل بحث حول صدقه وحقيقة نبوته بالإضافة إلى كثرة من آمن به واتبعه -هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ثانيًا: فإن الأناجيل الموجودة الآن باللغة العربية هي كلها ترجمات عن لغات أخرى لاتينية ويونانية، وكلمة (معزيًا) هي أيضًا ترجمة عن الكلمة اليونانية Periqlytos أو بيركليتوس، وهي كلمة يونانية غير مشهورة، وبعض الباحثين في اللغة اليونانية والأدب اليوناني لم يجدوا لهذه الكلمة ترجمة إلا كثير الحمد أو صيغة أفعل تفضيل من الحمد (أحمد)[1]، ولكنها تُرجمت في النسخ العربية إلى معزيًا أو فاديًا حتى تنطبق على الروح القدس وليس محمدًا[2].

---

(١) هناك قصة مشهورة للشيخ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قصص الأنبياء أنه سأل يومًا مستشرقًا إيطاليًّا يدعى كارلو نلينو وهو دكتور في الآداب اليونانية القديمة عن كلمة بيركليتوس التي جاءت في الأناجيل، فأجاب المستشرق: القساوسة يقولون معناها المعزى، فقال له الشيخ: إنني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على دكتوراه في الأدب اليوناني ولا أسأل قسيسًا!

فقال المستشرق: لم أجد لها معنى إلا كثير الحمد، فقال له الشيخ: مثل أفعل التفضيل من الحمد، فأجابه المستشرق: نعم، فقال له الشيخ: إذن هو أحمد كما جاء بنص القرآن ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]. انظر كتاب (نبوة محمد من الشك إلى اليقين) للدكتور فاضل السامرائي – ص٢٩١ – ط. مكتبة القدس – بغداد.

(٢) يقول البروفيسور عبد الأحد داود: «عندما ندرس العبارات التي وردت في العهد الجديد عن الروح القدس يتبين أنه ليس الشخص الثالث في الثالوث، ناهيك أنه ليس شخصًا قائمًا بذاته في حين أن البرقليطوس =

وقد جاء في كتاب استحالة تحريف الكتاب المقدس لمرقس عزيز وهو أحد علماء النصارى حيث تكلم عن كلمة بيركليتوس وقال إنها بمعنى محمود، ولكنه قال إن هناك أيضًا باراكليتوس ومعناها المعزي![1]

ونحن نتساءل أيضًا هل الكتاب المقدس -مع كثرة الترجمات وثبوت التحريف وإدخال فيه ما ليس منه- نُقل بهذه الدقة المُحكمة التي تجعلنا نثق في أن النسخة الأصلية كانت تحوي كلمة باراكليتوس وليس كلمة بيركليتوس؟!

- **البشارة الثانية:**

إنجيل يوحنا (١٦/ ١٣): {وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية}.

والعجيب أن هذه البشارة يقوم النصارى بتأويلها ونسبتها لروح القدس مع أن الأقرب من ذلك أنها بشارة بنبي لاسيما ونحن نعرف من خلال الإنجيل نفسه والواقع التاريخي أن اليهود زمانَ المسيح كانوا ينتظرون نبيًّا آخر مبشَّرًا به غير المسيح بن مريم، وخير شاهد على ذلك سؤال كهنة اليهود ليوحنا المعمدان (يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ): أنت المسيح؟!

فقال: لا.

ثم سألوه: أنت النبي؟!

= الذي تنبأ به المسيح هو شخص قائم بذاته، وهذه نقطة أساسية جدًّا لأنها تنفي بصورة نهائية فرضية الكنيسة بأن البرقليطوس هو الروح القدس» انظر كتاب (محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى) ص ١٨٧ - ط. مكتبة العبيكان - ترجمة: محمد فاروق الزين.

(١) كتاب (استحالة الكتاب المقدس) للقمص: مرقس عزيز خليل - ص: ٣٣٩ - طبعة كنيسة القديسة مريم العذراء والشهيدة دميانة المعلقة، حيث يقول: «الكلمة اليونانية هي باراكليتوس ومعناها المعزي أما التي يذكرها المؤلف فهي بيركليتوس وهذه التي معناها المحمود أو المشهور».

فقال: لا.

كما أن ذلك الوصف {لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به} يشبه إلى حد كبير الوصف القرآني للنبي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

- **البشارة الثالثة:**

إنجيل متى (٢١/ ٤٢-٤٤): يقول يسوع المسيح: {أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية؟ من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا!، ولذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى إلى أمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه}.

والخطاب هنا موجه إلى بني إسرائيل، ومعنى الآية أن النبوة {ملكوت الله} سينتقل من بني إسرائيل إلى أمة أخرى، وهذا يكفي لإثبات أن المعني بهذه البشارة هو النبي محمد لأنه هو الوحيد الذي جاء بعد المسيح مدعيًا للنبوة ومعه من الصفات الشخصية التي تجعله مؤهَلًا لمقام النبوة بالإضافة إلى العدد الكبير الذي اتبعه وآمن به، وهذا لم يحدث لأحد غيره.

أيضًا هذه البشارة تُشبه إلى حد كبير حديث الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واصفًا نفسه والأنبياء قبله قائلًا: «**إن مَثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وُضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»[١].

ونلاحظ هنا أن كلًا من نص إنجيل متى والحديث النبوي قد وصف المشهد بأنه عجيب في أعين الناس الذين يشاهدونه، وذلك الحجر الذي رفضه البناؤون قد يكون

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

المراد منه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن هاجر الجارية الذي رفضه اليهود ثم عاد إليه الملكوت من خلال نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو من نسله.

- الخلاصة:

أن هناك الكثير من البشارات بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استخرجها العلماء والباحثون من الكتاب المقدس، بالإضافة إلى نصوص وبشارات أخرى لا تعترف بها الكنيسة كالتي جاءت في إنجيل برنابا ومخطوطات تركيا التي ترجع للقرن الرابع الميلادي والتي تُبشر باسم النبي محمد وأنه من الإسماعيليين والتي فيها أيضًا إنكار ألوهية المسيح وإنكار الصلب.

في نهاية ذلك الفصل أكرر ما ذكرته في أوله، وهو أن هذه البشارات ليست أدلة مستقلة على صدق الرسول والإسلام لأن نصوص الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد منها ما هو ظني الثبوت في أحسن الأحوال، بالإضافة إلى بعض نصوصه وأجزائه التي نقطع ببطلانها وتحريفها، ولذلك فليس مصدرًا لتأسيس المعرفة اليقينية، ولكنني -كما أوضحت- نقلت تلك البشارات فقط للرد على من يزعم من أهل الكتاب أن القرآن يكذب في ادعائه أن النبي محمدًا مُبشر به في كتبهم، بالإضافة إلى أنني أردت من خلال عرض تلك البشارات أن أُلزم أهل الكتاب بما يلتزمون هم به وليس بما ألتزم أنا به، فيكون ذلك حجة عليهم.

الباب الثاني

رسالة الله

مقدمة عن المعجزة القرآنية

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[١].

إن المعجزة القرآنية هي معجزة الإسلام الخالدة الشاهدة على صدقه على مرّ الزمان والمكان، وهي معجزة تختلف في طبيعتها عن معجزات الأنبياء الحسية السابقة وذلك لاختلاف طبيعة الرسالة المحمدية الخاتمة عن رسالات الأنبياء السابقين حيث كانت الآيات والمعجزات الحسية للأنبياء مرتبطة بزمان معين ومكان معين وتحدث أمام أشخاص معينين لا تتعداهم ولم يكن من المفترض أن تتعداهم.

ولكن الرسالة المحمدية الخاتمة هي رسالة الإله إلى الناس كافة إلى قيام الساعة على امتداد الزمان والمكان، ولذلك كان لا بد أن تكون المعجزة الخاصة بالرسالة الخاتمة الشاهدة له بصدقه هي معجزة أيضًا يمكن أن تصل إلى الناس كافة إلى قيام الساعة فكانت المعجزة القرآنية، ولذلك فهي في الحقيقة كافية لإثبات صحة الإسلام وصدق نبوّة محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيام الساعة؛ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

والمعجزة كما عرفها بعض العلماء على أنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، ولكن الأولى استعمال اللفظ القرآني (الآية أو البينة) ويقصد به ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواء أقصد به التحدي أم لا؛ فهذا المعنى أضبط وأعم وأشمل من التعريف الآخر الذي يحصره في قصد التحدي. ولكني استعملت لفظ المعجزة في هذا الباب لانتشاره وقصدي منه المعنى الواسع للآية والبينة(١).

ولو نظرنا إلى معجزات الأنبياء الحسية السابقة مثل معجزة موسى عندما قام بتحويل العصا إلى حية، سنجد أن فكرتها الأساسية تقوم على إعجاز العقل البشري عن إيجاد تفسير لتلك الظاهرة وإعجازه عن إيجاد أي علاقة بين السبب (إلقاء العصا) وبين النتيجة (تحويلها حيّة)، وبالتالي يقف العقل البشري عاجزًا عن التفكير أمام ذلك المشهد ثم يعلن إقراره بالعجز فيخر لله ساجدًا منقادًا كما فعل سحرة فرعون.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

لذلك كثيرًا ما تكون المعجزة من جنس ما يتميز به قوم النبي الذين بُعث فيهم، فيكونون هم أهل الاختصاص في ذلك الأمر ويعلمونه جيدًا ويحيطون بفنونه وأسراره فإذا عجزوا عن التحدي كان من هم دونهم (بقياس الأولى) أعجز وأعجز، وبهذا تقوم الحجة على الجميع ويكون ذلك دليلًا على صدق النبي وتأييد الله له.

إذن عَجْزُ سحرةِ فرعونَ وهم أهل التخصص عن تحدي موسى لهم وهو (أميٌّ) في السحر لا يعلم عنه شيئًا هو دليل على صدقه وأن ما جاء به يفوق قدرة البشر، ولذلك بمجرد أن أدرك السحرة ذلك خروا لله سجدًا وضربوا مثلًا عجيبًا في سرعة الاستجابة والثبات على الإيمان.

---

(١) سبق التعليق على استعمال لفظ المعجزة في الباب الأول فراجعه.

وعَجْزُ السحرة هذا هو أيضًا دليل كافٍ لكل من رأى هذه الواقعة أو أُخبر عنها لأنها تقوم على حجة منطقية وهي (قياس الأولى).

فلا يلزمني أن أكون ساحرًا حتى أدرك أن ما فعله موسى هو معجزة تفوق قدرة البشر، ولكن فقط يكفيني عجز المتخصصين.

تأتي المعجزة القرآنية الفريدة من نوعها لتشمل ذلك التصور السائد عن معجزات الأنبياء قبلها من إعجاز العقل البشري عن تفسير ما حدث وعن إيجاد العلاقة بين مُدخلات الظاهرة (حروف اللغة العربية) ومُخرجاتها (القرآن ببلاغته وفصاحته)، وبالتالي يقف العقل البشري عاجزًا عن التفكير فيخرُّ لله ساجدًا، والحَكم في هذه القضية أيضًا هم المتخصصون، والذين عَجْزُهم هو عَجْزٌ لغيرهم من باب أولى (وهذا المعنى سنتحدث عنه بالتفصيل في الإعجاز البلاغي للقرآن)، ولكن المعجزة القرآنية شملت نوعًا آخر حصريًّا من الإعجاز وهو استثارة العقل البشري واستفزازه ليقوم من غفلته وسُباته الذي طال ليتفكر وينظر ويُكرّر التدبر بين كتاب الله المنظور (الكون) وكتاب الله المسطور (القرآن)، فيُوقِن أنّ مصدر الكتابين واحد وأنهما خرجا من مشكاة واحدة.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء:٨٢].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية:١٧].

﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يس:٦٨].

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

حينها يدرك الإنسان أن روح التوحيد تسري في الوجود، وأن مكونات ومفردات الكون بأكمله تردد كلمة التوحيد وتقول (لا إله إلا الله)، وكأن التوحيد وَحَّدَهم وَوَحَّد طريقتَهم.

ينظر الإنسان ويتدبر الرسالتين -المنظورة والمسطورة- من الإله في كل زمان مستعينًا بما توصل إليه من علوم وبما وصل إليه سقف البشر المعرفي.

ينظر ويرى القوانين تحكم كل شيء في عالم المادة، يرى أن مادة الكون كله بعناصره ومفرداته المختلفة تتكون من ذرات لها نفس البنية والتركيب الذري من إلكترونات تدور حول أنوية منقادة لأمر الله.

يرى الأفلاك أيضًا تدور حول بعضها سابحة في الفضاء منقادة لأمر الله.

القمر يدور حول الأرض منقادًا لأمر الله.

والأرض تدور حول الشمس منقادة لأمر الله.

والشمس تدور حول مركز المجرة منقادة لأمر الله.

وكل صغير يدور حول ما هو أكبر منه منقادًا لأمر الله؛ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

وهم في سباحتهم يسبحون بحمد ربهم، وكأن حركتهم عبادة، بل هي بالفعل عبادة خضوع وسجود وانقياد لسنن الله وأوامره الكونية ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج:١٨].

بعد ذلك يترك الإنسانُ عالمَ المادة ويدخل عالم الحياة، فيرى التنوع المذهل في الكائنات الحية والذي شغل الكثيرَ من العقول ممن حاولوا البحث عن تفسير له داخل إطار العالم والمنظومة المادية الاختزالية فما توصلوا إلى يقين!

ثم يرى الناظر المتدبر أن جميع هذه المظاهر المتنوعة والصور المختلفة من أشكال الحياة تتكون في النهاية من نفس البنية واللبنة الأساسية وهي الخلية الحية التي تتكون من نواة حاملة للشفرة الوراثية وحمضها النووي DNA، وبها نفس القواعد النيتروجينية (C، A، T، G) والتي تتكون منها كل صور الحياة كما تتكون الكتب الهائلة والمجلدات من نفس أحرف اللغة فنجد منها مثلًا ما هو في الطب ومنها ما هو في الفقه ومنها ما هو في الأدب وهكذا.

يظل الإنسان هكذا ينظر في القرآن الذي يحثه ويستثيره للنظر في الكون مستعينًا بالعلم الذي توصل إليه ليرى ما لم يكن يراه من قبل على المستويين الذري والمجري ثم يعود مرة أخرى إلى القرآن ويعيش المسلم هكذا يرى آيات الله المتنوعة أمامه لا تغيب عنه ولا تفارقه.

يجد الناظر في القرآن أنه يخبره عن وحدانية الله ويحثه على النظر والتفكر في الطبيعة، فيتفكر فيها فتخبره أيضًا عن وحدانية الله، ثم يستعين بما توصل إليه من علم طبيعي حديث فيخبره أن الطبيعة كلها بمختلف صورها وأشكالها تتكون من وحدات بنائية صغيرة متماثلة ثم من هذا التشابه والتناغم بين الوحدات البنائية للطبيعة تتأكد له مرة أخرى وحدانية الله خالق الطبيعة.

فالكون مادته واحدة وصنعته واحدة وقوانينه واحدة وثابتة ومطردة.

وبذلك تتنوع وسائل المعرفة وتضافر الهدايات الأربع لتؤكد معنى واحدًا وهو التوحيد؛ فهداية القرآن توحيد، وهداية العقل توحيد، وهداية العلم توحيد، وهداية الفطرة توحيد.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النور:٣٥].

يرى الإنسان كل تلك التجليات التوحيدية، فيُدرك أنه أيضًا لا بد أن يسير مع ذلك التناسق الكوني ويدخل معه في سياق تلك العبودية الكونية الشاملة، فيصير متسقًا مع الكون.

ولكنه ينظر في داخله ويتفكر في ذاته فيكتشف أنه مُختلف عن كل مظاهر الطبيعة من حوله! يجد أنها مسخرة منقادة في حين أن له إرادةً واختيارًا.

يجد أنها جامدة صامتة وأن له عقلًا يُدرك الأشياء ويُميزها.

يجد أنها لا تدركه وهو يدركها!

فينظر مرة أخرى في القرآن نظرًا نفسيًّا خاصًّا لعله يفهم ذاته، فيجد الله يخبره بالفعل أنه قد خلقه خلقًا خاصًّا وجعله مركز الأهمية في ذلك الكون الفسيح، فأَسْجَدَ له ملائكته ومنحه الاستخلاف في الأرض، واختصه عن الطبيعة بالعقل والوعي والإرادة، وجعل الطبيعة بأسرها مسخرة له وكأنها صُممت لاستقباله.

ولكنه يعود مرة أخرى فيسأل نفسه: لماذا؟! لماذا إذن هذا الاختصاص الذي أحظى به؟!

لماذا هذه الإرادة والعقل والوعي والشعور بالمركزية في ذلك الكون الشاسع؟! لماذا أنا وليس الطبيعة من حولي؟! لماذا أدرك وأعي وأميز بين الأشياء ثم أختار؟! هل هناك معنى من الحياة؟!

وهل هناك هدف أو غاية من الوجود؟!

فيأتي القرآن مرة أخرى بعد كل هذه التساؤلات ليزيل حيرة الإنسان وينزع عنه غشاوة الجهل التي كادت تسقط به في العبث وتؤول به إلى العدم.

يأتي القرآن ليخبره عن السردية الكونية وقصة الوجود.

يأتي القرآن ليخبره عن الغاية من الوجود التي طالما حاول الملاحدة أن يقنعوه أنها ليست موجودة، وأن الكون موجود فحسب!! وأن الإنسان فقط وُجد على سطح تلك البقعة الزرقاء التافهة الباهتة -وسط هذا الكون الشاسع- والتي تسمى الأرض!

يأتي القرآن ليخبره أن هذا العقل والوعي والإرادة والشعور بالأهمية والمركزية التي اختصه الله بها إنما هي لتحقيق العبودية لله خالق الطبيعة والإنسان، ولكن العبودية هذه المرة من نوع جديد أرادها الله تختلف عن عبودية الطبيعة المُسخرة المنقادة!

هذه المرة العبودية نابعة من اختيار الإنسان وقراره وإرادته.

فعبودية الطبيعة ثابتة وعبودية الإنسان هي المتغيرة.

وبذلك إذا عبد الإنسان ربه وأطاعه اتسق مع الكون بأكمله وحقق بذلك الغاية من الوجود.

وإذا عصى ربه وتكاليفه ولم يحقق العبودية فقدَ مركزيته وسقط في الهامش وصار وجوده بلا معنى ولا قيمة ولا هدف؛ فصدق عليه قول الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة:٦٧].

إن العقل والإرادة من أهم مناطات التكليف، وكأن من حكمة الله أن خلق الإنسان عاقلًا مُريدًا واختصه بذلك ومنحه بهما مركزيته ليتهيأ لحمل أمانة التكليف -بخلاف الطبيعة فهي خاضعة منقادة- فإن فرط في حملها فهو جهول ظلوم.

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

إن القرآن قد جاء بثورة تصحيحية شاملة في المفاهيم وخاصة المفاهيم الوجودية.

جاء القرآن ليستثيرنا ويستفزنا كي نفكر في الكون والوجود والنفس والحياة.

جاء ليجعلنا نقتحم ذلك العالم المجهول الذي أرّق الفلاسفةَ وأرهقهم على مر الزمان.

جاء ليدفعنا إلى إعمال العقل والفكر في الكون ثم إلى طرح التساؤلات والبحث عن الحكمة، ولكنه لا يتركنا في حيرتنا ويمضي كما يفعل الفلاسفة حين يسألون ولا يجيبون.

بل إنه لا يتركنا حتى يزيل حيرتنا وينزع غشاوة الجهل عن أعيننا.

وهكذا يظل المسلم ينتقل بين كتاب الله المنظور وكتابه المسطور فيزداد فهمًا ووعيًا لحقائق الوجود والحياة.

القرآن يلخص قصة الوجود بأسرها في شخصك أنت!! نعم. في شخصك أنت الذي طالما حاول الشيطان وأعوانه من الملاحدة أن يقنعوك بتفاهتك وضُدفيتك.

القرآن يخبرك أنك إذا استخدمت ذلك العقل وتلك الإرادة التي اختصك الله بها ووهبك إياها فسلكت بهما طريق العبودية لله خالق الكون فإنك في تلك اللحظة قد حققت بالفعل معادلة الوجود بأسره!!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج:١٨].

تلك المعادلة التي يسعى الشيطان بخيله ورَجِله وبكل سبيل أن يصدك عنها ويمنعك من تحقيقها مستعينًا بأعوانه من شياطين الإنس لأنه قديمًا فشل في تحقيقها بسببك أنت!!

قديمًا رفض الشيطان السجود لك -والذي كان طاعة لله وتكريمًا لآدم- عندما أمره الله بذلك.

رفض الشيطان ذلك بإرادته واختياره، ولذا فهو يعلم جيدًا ما معنى الاختيار، فأصبح غايته في الحياة أن يصرفك ويمنعك عن الاختيار الصحيح.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢].

بل الأخطر من ذلك ألا يُشعرك أساسًا أن لك إرادة واختيارًا، وأن كل ما تشعر به من تفضيل واختصاص إنما هو محض أوهام لا أساس له في الواقع!

وهذا هو جوهر التعاون الإبليسي الإلحادي.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

إن مهمة الشيطان في هذه الحياة الدنيا وقضيته الكبرى أن يصرفك عن التفكير في الغاية من الوجود، وأن يجعلك تُستغرق في تفاصيل الحياة الدنيوية اليومية البغيضة التي قال عنها النبي محمد ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلِّمًا**»[1].

مهمة الشيطان أن يُشعرك باللامعنى واللاقيمة، وأن ما ثم إلا الحياة، وليست هناك إلا تلك الشهوة الآنية!!

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

فكان من البدهيّ بعد كل ذلك عدو أن يكون الشيطان الأول هو التفكر والتأمل والنظر وإعمال العقل للبحث عن الغاية والحكمة والهدف من خلال الكتابين الحاملين لرسائل المعنى -المنظور والمسطور-، يقول أحد الحكماء: كما يُقال الميت لا يحمل الرسائل، وإنما الحي هو الحامل للرسائل والمعاني.

والطبيعة حية بإتقانها وإحكامها وبقوانينها ونواميسها وثوابتها فهي إذن مليئة بالمعاني والرسائل؛ فكما أن تشابه الوحدات البنائية للطبيعة يدل على وحدانية الله، أيضًا إتقان الطبيعة وإحكامها ودقتها يدل على وجود المعنى والغاية والهدف.

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٩٧).

أرأيت كيف أن المعجزة القرآنية ليست كما كنت تظن؟! أرأيت كيف أنها ليست فقط مجرد تحديًا من رجل عربي أمي لأهل قريش في وقت معين وانتهى الأمر؟!

إن المعجزة القرآنية هي بالفعل معجزة الإله الخالدة على مر الزمان والمكان، والتي تُحيي البشرية دائمًا بالمعنى والغاية من الوجود والحياة.

حقًّا لقد اتصلت الأرض بالسماء.

ولا أدري كيف الحال لو أن الله لم يأذن بنزول ذلك الكتاب على دنيا البشر؟!

فما أصعب ذلك الموقف عندما تجد كل ما حولك يدفعك لطرح التساؤلات ثم في النهاية لا تجد أي إجابات تريحك!

بل وما أشد صعوبتها عندما تكون حياتك مرهونة بتلك الأسئلة لأنها متعلقة بالوجود والمصير لكائن لا تحركه إلا دوافعُه وأغراضُه!!

إحساس حقيقي بالعبث وضياع المعنى وبوصلة الحياة!!

إحساس حقًّا لا يزيله إلا القرآن.

والأصعب من ذلك أن يكون هذا الكتاب موجودًا أمامك، ولكنه يفتقدك.

لأنه إذا افتقد ذلك الكتاب أحدًا فهو مفقود لا محالة.

كثيرًا ما يقول الباحثون في المعنى القرآني والمهتمون بمدلوله ومضمونه أنّ النّظرة التي ينظر بها القرآن للوجود والحياة هي نظرةٌ مجاوزةٌ لحدودِ الزمان والمكان حيث إنّها تخترق حاجز الزمن فتنتقل بك سريعًا بين عوالم الماضي والحاضر والمستقبل.

ترى القرآن يُحدّثك عن قصة بداية البشريّة وحديث الملأ الأعلى قبلها ثمّ ينقلك إلى الحديث عن الأمم والأقوام السابقة للنّبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثم يُحدّثك عن مواقف وأحداث يحياها النّبي محمد وأصحابه في واقعهم المعاصر، كما ينتقل بك أيضًا إلى الإخبار عن بعض النبوءات المستقبلية تليها أحداث النّهاية ومشاهد من يوم القيامة.

يعرض القرآن كل ذلك دون ترتيبٍ زمنيٍ ودون تسلسلٍ مُتعمّدٍ للأحداث، ولكنّ ينتقل خلالها وينتقي منها ما يشاء بما يخدم الغرض المعنيّ والحكمة المقصودة من النّص، بل بلغ تجاوز الخطاب القرآني لحواجز الزمان إلى اللغة ذاتها فنجده كثيرًا ما يصف المستقبل كأحداث النّهاية ومشاهد القيامة مستخدمًا صِيغ الماضي اللغويّة مثل:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١].

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

نجد القرآن أيضًا قد اخترق حاجز النطاق المكاني الضيّق حيث عاش النبي وأصحابه فنراه قد تجاوز الحديث عن بيئتهم العربية المعروفة لديهم إلى الحديث عن بيئات أخرى لم يرها النّبي مُطلقًا مثل وصف البحار والأنهار وما تحويه من حيتان ولؤلؤ ومرجان، ومثل وصف الجنان والأشجار والفاكهة، ووصف الجبال بمختلف ألوانها وخطوطها الأبيض والأحمر والأسود[1]، ووصف السحاب المُسخّر بين السماء والأرض؛ بل وتجاوز ذلك إلى الحديث عن الشمس والقمر والنّجوم وحركة الأفلاك، ثمّ تجاوز الكون بأسره حتى وصل إلى ما قبل الكون والتاريخ.

نجد كذلك تلك النظرة القرآنية تصف أحيانًا عالم النّفس البشرية الداخلي ثم تخرج منها إلى رحابة الكون الخارجي؛ كما تكمن أحيانًا في الذرة ثمّ تتّسع أحيانًا أخرى لتستوعب الفلك والمجرّة.

وبذلك يستحيل أن يكون مصدر ذلك القرآن شخص عادي أو إنسان متزمن بحدود زمنٍ معينٍ في نطاق تاريخي ضيق بل إنّ هذه المظاهر تؤكّد تجاوز النظرة القرآنية التي ترى

(١) قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

الزمان أمامها ككتابٍ مفتوح تنتقل بين صفحاته كيفما تشاء، ولا يتأتى ذلك إلّا بالنظرة الإلهية وبعين الله الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الفصل الأول

الإعجاز البلاغي

لقد نشأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوم أهل فصاحة وبلاغة وبيان حيث كان جُلُّ شغفهم هو اللغة والشعر.

كانت المظاهر على اهتمامهم باللغة اهتمامًا خاصًّا تتجلى في كل شيء حولهم فقد كانت المنافسات الشعرية والأدبية الارتجالية تُقام في الأسواق مثل سوق عُكَاظ وذي المَجَاز ومَجَنَّة وغيرها، وكان منتشرًا عند العرب ثقافة المعارضات الشعرية واللغوية في الشعر والأدب وهي نوع من المناظرات والتحديات، كما أن أهل الشعر والفصاحة كانوا هم أكثر الناس وجاهة، وأعلاهم مكانةً وقدرًا، ومن يجدون منه نبوغًا وموهبةً منذ صغره يتم تأهيله ومعاملته معاملة خاصة.

إضافة إلى ذلك أنهم عندما أرادوا التعبير عن أنفسهم والتسويق لمنتجهم الثقافي وخلاصة ما توصلوا إليه ليكون مُعبرًا عنهم ومحط جذب أنظار السائحين إليهم كان أيضًا من خلال اللغة حيث وضعوا المعلقات على أستار الكعبة تعبيرًا عن مدى قُدسيَّة اللغة ومركزيتها في حياتهم، وقد أحسن الأستاذ محمود شاكر في وصف مدى تلك القدسية التي تمتع بها الشعر عند العربي القديم قائلًا:

«ذلك الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه، نورًا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم»[1].

---

(١) مقدمة الأستاذ محمود شاكر لكتاب (الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي) والتي عنونها بـ: (فصل في إعجاز القرآن) (ص ٤٨).

ولقد كان العرب يقضون جُل وقتهم في اللغة والاهتمام بها، فيتحدثون بها عن أنفسهم، ويتفاخرون من خلالها بأنسابهم، ويصفون بها حروبهم ومعاركهم، ويقصون بها تاريخهم وأساطيرهم، فكانت اللغة هي الأداة الإعلامية التي تُعبر عن كل قبيلة وتُسوق لها بين العرب، وأيضًا هي الأداة التي تهاجم بها القبيلةُ خصومَها أو تستخدمها في المعارضات اللغوية والتحديات الشعرية والأدبية، ولقد اكسبت تلك المعارضات العربي القديم من الفصاحة والبلاغة -إضافة إلى ما عنده من التذوق الفطري- ما يجعله قادرًا على الحكم والتمييز والمفاضلة بين الأفراد والقبائل بعضهم البعض بمدى ما وصلوا إليه من قوة في البلاغة وحسن في البيان، ولذلك نقل الشيخ محمد أبو زهرة إجماع أهل التاريخ على مآثر العرب في ذلك قائلًا:

«ولذلك أجمع المؤرخون في القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر في البيان، وذوق الكلام، والتفريق بين كريمه وسقيمه، وجميله وهجينه»(1).

لذلك لا أكون مخطئًا إذا قلت أنه لم يهتم شعب من شعوب العالم عبر تاريخ البشرية المكتوب باللغة مثل اهتمام عرب الجاهلية بلغتهم، كما أنه أيضًا لم يكن للعرب أي اهتمامات أخرى حقيقية تشغلهم عن الشعر واللغة فلم يصل إلينا أنهم قد تميزوا في أي علم من العلوم أو فن من الفنون فقط تميزوا في الشعر واللغة وسحر البيان.

يقول المفكر مالك بن نبي:

"إن لكل شعب هواية يصرف إليها مواهبه الخلَّاقة طبقًا لعبقريته ومزاجه، فالفراعنة مثلًا كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات يدلنا عليه ما بقي بين أيدينا من آثارهم العظيمة، تلك الآثار التي أثارت اهتمام رجال العلم مثل الأب (مورو) الذي خصص أحد كتبه لدراسة تصميم الهرم الأكبر وما يتضمن من نظريات هندسية غريبة وخصائص رياضية وميكانيكية عجيبة.

---

(1) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٦٥).

كما كان اليونان مغرمين بصور الجمال على ما أبدعه فن (فيداس)، وبآيات المنطق والحكمة على ما جادت به عبقرية (سقراط).

أما العرب في الجاهلية فقد كانت هوايتهم في لغتهم فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى، وإنما كان العربي يفنن في استخدام لغته، فينحت منها صورًا بيانية لا تقل جمالًا عما كان ينحته (فيداس) في المرمر، وما كانت ترسمه ريشة (ليوناردو دافانشي) في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى"[1].

وهنا تخيل معي أيها القارئ الكريم أن وسط كل تلك الأجواء يخرج على هؤلاء القوم رجلٌ أُمِّي لا يعرف القراءة والكتابة ولم يعهد عليه طوال أربعين عامًا منذ مولده أي سابقة اهتمام بشعر أو لغة أو بيان ثم يقول كلامًا بليغًا يتحدى به هؤلاء الفُصحاء البلغاء بكل ثقة وقوة ووضوح ويخبرهم أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل كلامه هذا أبدًا في فصاحته وبلاغته: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم بمزيد من الثقة خفف عنهم التحدي إلى عشر سور فقط: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود:١٣].

ثم يعود فيخفف التحدي مرة أخرى إلى سورة واحدة فقط: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

ولكن القوم عاجزون!

عجز القوم المتخصصون أمام تحدي ذلك الرجل الأمي!

---

(١) الظاهرة القرآنية للمفكر مالك بن نبي (ص ٦١)- طبعة دار الفكر.

عجزوا عن تفسير تلك الظاهرة وعن إيجاد العلاقة السببيّة بين مُدخلاتها ومُخرجاتها شأنهم شأن سحرة فرعون أمام معجزة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلقد كان الفعل المُدخَل أو السبب هو إلقاء العصا، ثمّ كانت النتيجة المُخرجة هي تحول تلك العصا إلى حية، وكان السحرةُ هم أهل التخصص الذين يحكمون على الظاهرة من حيث كونها سحرًا بشريًّا من جِنس الذي يقومون به أو إعجازًا إلهيًّا يفوق القدرة البشريّة، والذي يتحدّاهم هو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأميّ في السحر (أي الذي ليس له فيه أي نصيب)، ثمّ على الرغم من كلّ ذلك عجز السحرة عن التحدي وعن تفسير الظاهرة، وبذلك يكون بقياس أولى من دونهم (أي في تخصص السحر) أعجز.

هكذا الحال أيضًا مع النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقريش؛ فالسبب المُدخَل هنا هو حروف اللغة العربية التي يستخدمونها ليل نهار بطلاقةٍ وبراعةٍ فائقة، والنتيجة المُخرَجة هي القرآن العظيم ببلاغته وفصاحته، وأهل قريش هم أهل التخصص في اللغة والفصاحة المَنوُط بهم الحُكم على الظاهرة بين الإمكان البشري والإعجاز الإلهي، والذي يتحدّاهم هو النّبي محمد الأميّ (أي الذي لا يستطيع القراءة والكتابة والأهم من ذلك أنّه لا يُعرَف عنه فيها وفي غيرها من فنون الشعر أي تميزٍ أو اهتمام بين قومه)، وعلى الرغم من ذلك عجز العرب الأقحاح عن التحدي وعن تفسير تلك الظاهرة، وبقياس الأولى من دونهم في اللغة العربية (وهم الناس جميعًا) أعجز.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦].

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

لذلك ما كان من القوم إلا أن آمنوا وخروا لله سُجدًا بمجرد سماعهم طرفًا من آيات

القرآن العظيم إلا أن البعض ظلّ جاحدًا معاندًا مستكبرًا بعدما استيقنت نفسه كما وصفهم رب العزة بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

ولكن تُرى ما الذي حدث بعد ذلك؟!

أهل الفصاحة والبلاغة والبيان من المعاندين المستكبرين أدركوا ومن أول وهلة أنه لا طاقة لهم بمعارضة القرآن، وأدركوا سمو هذا الكلام ومفارقته لكلام البشر، ولكن الدافع عندهم لإبطال الدعوة المحمدية كان كبيرًا، كما كان الحرص عليه شديدًا(١).

إذن كان الدافع موجودًا، وكانت الوسيلة حاضرة أمامهم (وهي اللغة)، وهم أهل التخصص والبيان، والذي يتحداهم شخص أميّ.

فماذا إذن؟!

وما بالُ القوم عاجزون؟!

---

(١) في رأيي أن هذا العناد والاستكبار من كفار العرب واستمرار محاربتهم للدعوة المحمدية حتى بعدما عجزوا عن معارضة القرآن وتبين لهم الحق له اعتبارات كثيرة من المهم معرفتها **وهي تعود جميعًا في النهاية إلى سبب ودافع حقيقي وهو اتباع الهوى**، ولكن قد يظهر ذلك الدافع من خلال صور وتجليات مختلفة ومنها:

- **اعتبارات دينية عقدية**: متعلقة بما ورثه العرب من معتقدات عن آبائهم وأجدادهم.
- **اعتبارات قبلية**: متعلقة بأمجاد القبيلة وتُراثها الذي ورثوه والذي يصعب التخلي عنه.

وقد أشار القرآن إلى أثر تلك الاعتبارات الدينية والقبلية في تشكيل العقلية الرافضة للحق والمتبعة للهوى حيث يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

- **اعتبارات سياسية**: متعلقة باستمرار نفوذ قريش في الجزيرة العربية والمُرتبط بوجود الأصنام حول الكعبة.
- **اعتبارات اقتصادية**: متعلقة بما تحققه قريش من مكاسب ومصالح مادية بسبب وجود الأصنام التي تحج إليها قبائل العرب من كل مكان، والتي يصحبها حركة ونشاط تجاري وسياحي قوي.

لأجل هذه الاعتبارات خاصة السياسية والاقتصادية والقبلية قبل الدينية رفض كثير من كفار قريش الدخول في الإسلام وخاصة عِلية القوم وأصحاب النفوذ.

وقد أحسن الدكتور صلاح الخالدي حين قام بتعريف إعجاز القرآن البياني على أنه:

«عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر مَلَكَتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحديهم، وتقرير عجزهم عن ذلك»(١).

ثم باستمرار عجز أولئك المكذبين المعاندين عن خوض ذلك التحدي وإبطال الدعوة المحمدية بالحجة والبيان ما كان منهم إلا أن سلكوا طريقًا آخر ولكنه شاقٌ فقد خاضوا الحروب والمعارك لإبطال تلك الدعوة بل وضحوا بأنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل ذلك!، وكأنهم بفعلهم هذا قد أعلنوا للعالم بأسره -دون قصد طبعًا- أنهم عاجزون عن معارضة القرآن، ولم يبق أمامهم الآن إلا العدول عن المعارضة بالحروف إلى المقارعة بالسيوف.

يقول الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

"وإنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان، واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغةً ما بلغتْ!"(٢).

والسؤال هو: لماذا يتحداهم النبي محمد (الأميّ) في تخصصهم بالذات؟!

لماذا لم يتحداهم مثلًا في الطب أو الفلك فهم على الأقل سيكونون فيه سواء؟!

وما هذه الثقة التي يمتلكها محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يقول لهم: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ** ﴾ [البقرة:٢٤].

(١) انظر: كتاب (إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني) للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص ١٧) طبعة دار عمار.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي (طبعة دار الكتاب العربي) ص ٩٨.

وتُرى ما هو مصدرها؟!

ونكرر هنا مرة أخرى السؤال الذي يجب أن يُطرح مع كل دليل من أدلة صدق الإسلام وهو: لماذا يُوفِّق اللهُ الحكيم العليم القدير عبدًا يكذب عليه (كما يظن من لا يؤمن بنبوة محمد) كلَّ هذا التوفيق ويؤيده كل هذا التأييد حتى جعله يتحدى القوم مع عدم امتلاكه لمؤهلات التحدي في شيء هم أعلم الناس به ثم يعجزون عن التحدي، هذا بالإضافة إلى كل ما وهبه الله لذلك العبد من صفات حسنة وصدق وأمانة وزهد وصبر وغيره؟!

كيف يكون ذلك والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [يونس:٦٩].

يقول الأستاذ محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية والتي عنونها باسم (فصل في إعجاز القرآن) نقلًا عن مالك بن نبي:

"لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق البشر"(١).

ولقد أدرك الصحابة ذلك المعنى إدراكًا فطريًّا عميقًا بمجرد سماعهم للقرآن مما دفعهم إلى الاستسلام والخضوع لأمر الله تعالى تمامًا كما فعل سحرة فرعون الذين أدركوا منذ الوهلة الأولى سمو معجزة موسى فوق البشر ومفارقتها لحيز الإمكان والقدرة البشرية.

ومن أفضل ما قيل في هذا السياق ذلك الكلام المنسوب إلى ابن عطية الأندلسي وهو يتحدث عن مدى فصاحة العبارة القرآنية ودقة اختيار ألفاظها ومفارقتها لكلام البشر فيقول:

«إن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده،

---

(١) الظاهرة القرآنية للأستاذ مالك بن نبي (ص ٥٧) – طبعة دار الفكر.

ثم لا يزال ينقحها حولًا كاملًا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيُبَدِّل فيها ويُنقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد.
ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة ومَيْز الكلام»[1].

لقد كانت دعوة الرسول قائمة على القرآن ومجاهدة المشركين به بالحجة والبيان ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الأنبياء:٤٥]، وعلى الرغم من أن قريشًا والعرب كانوا لا يؤمنون وقتها قطعًا بذلك الكتاب ولكنهم بعد ذلك آمنوا بمجرد سماعهم للقرآن وذلك لأنهم أدركوا منذ الوهلة الأولى أن هذا الكلام لا يمكن بحال أن يخرج من ذات النبي محمد ولكنه قطعًا من مصدر آخر يسمو على البشر!

أدرك العرب الأقحاح ذلك سريعًا بمجرد سماعهم للقرآن فكان وقوعه أشبه بالعلم الضروريّ، وذلك لأنّ اللغة عندهم كانت سليقة أو كما يسميها المفكر مالك بن نبي نوعًا من **التذوق الفطري**[2]، فوقع في وجدانهم ذلك العلم الضروري الذي لا يحتاج معه صاحبه إلى نظرٍ وبحثٍ باستدعاء قواعد البلاغة والبيان ليُدرك بلاغة النص القرآني وأنّه ليس بكلام البشر ولا بكلام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان قد نطق به.

فكم من عربي جاء إلى النبي قاصدًا قتله فإذا به يسمع بعض آيات القرآن تُتْلى فيخِرُّ لله ساجدًا؟! وما قصة عمر بن الخطاب منا ببعيد!

وقد أدرك مشركو العرب تلك البلاغة القرآنية المُعجِزة ولذلك كانوا شديدي الحرص على ألّا يسمعه أحدٌ من قبائل العرب المختلفة، وقد بيّن الله عَزَّوَجَلَّ لنا خططهم ونواياهم في ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (١/ ٥٢) طبعة دار الكتب العلمية.
(٢) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (ص ٦٢) طبعة دار الفكر.

تلك البلاغة القرآنية هي التي أغنت لبيدَ بن ربيعة العامري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1] عن الشعر حتى عندما قال له عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنشِدني من شِعرك، رفض وعلّل رفضه قائلًا: ما كنت لأقول شعرًا بعد إذ علَّمني الله سورةَ البقرة وآل عمران[2].

بل إن صناديد قريش الذين كذَّبوا النبي حينما سمعوا القرآن أدركوا الحقيقة؛ كقول الوليد بن المغيرة في عبارته الشهيرة لكفار قريش: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته[3].

فأدرك الوليد أن هذا الكلام لا يُعارَض، ولذا ما فَكَّر في هذا الخيار أصلًا على الرغم من أنه الخيار المباشر والقريب والمتبادر للذهن!!

ولكنه كما قال الله تعالى﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١٨-٢٥].

ويا ليت الوليد بن المغيرة سكت؛ فكان خيرًا له أن يُقال عنه أنه قد عجز عن تحدي ومعارضة الإله الخالق من أن يُقال عنه أنّه عجز عن معارضة العبد المخلوق، فضلًا عن أن يكون ذلك العبد -كما يدعي هو كذبًا وتشويهًا- مجنونًا أو ساحرًا!

ولكن بئس للظالمين بدلًا!

---

(١) هو أحد أصحاب المعلقات وأحد أساطين اللغة في الجاهلية؛ وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» رواه مسلم (٢٢٥٦).

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٢٦٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢)، وقال: صحيح الإسناد على شرط البخاري.

لقد قال الوليد أن هذا الكلام سحر، ويا ليته قال إنه ليس بفصيح أو ليس ببليغ أو في طاقة البشر أن يأتوا بمثله إذًا لكان كلامه حينها مُستحقًا للبحث والرد، ولكنّ الوليد مع كل ذلك الحرص على إبطال دعوة النبي إلّا أنّه لم يجد تفسيرًا للظاهرة القرآنيّة.

تقول الكاتبة وعالمة الأديان البريطانية كارين أرمسترونج:

"أمّا العرب فقد وجدوا القرآن مُدهشًا، فلم يكن كأي من تلك الأدبيات التي عرفونها من قبل، ولذلك فقد اعتنق بعضهم الإسلام فورًا لاعتقادهم أنّ ذلك الأسلوب الغير عادي لا بد وأن يكون مُنزّلًا، أمّا أولئك الذين رفضوا الدعوة فقد أُصيبوا بالذهول ولم يجدوا تفسيرًا لذلك التنزيل المُحيّر"[1].

ثم جاء بعد هؤلاء العرب الأقحاح من هم أقل منهم في اللغة خاصة بعدما اتسعت مساحة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام من لا يجيد اللسان العربي فلم تعد اللغة نوعًا من التذوق الفطري السليقي كما كانت، ولكنها أصبحت عِلمًا له قواعده وأصوله من بلاغة وأدب ونحو وغيرها، وأصبح العلم بإعجاز القرآن في تلك الحالة عِلمًا نظريًّا استدلاليًّا وليس علمًا ضروريًّا كما كان عند العرب الأقحاح أصحاب التذوق الفطري.

ولحدوثِ مثل ذلك العلم النظري الاستدلالي ببلاغة النص القرآني إلى درجة الإعجاز فإنّ ذلك يحتاج إلى دراسة وتخصص حتى يصل الدارس إلى **التذوق العلمي** للغة من خلال تطبيق قواعد البلاغة التي درسها -كالكناية والتشبيه والاستعارة- على النص القرآني.

وهذا الباب (التذوق العلمي) خاض فيه جهابذة اللغة المتخصصون على مر التاريخ الإسلامي ليروا ويدركوا ويكتشفوا بعض أسرار الإعجاز البلاغي في القرآن والذي تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله.

---

(١) كتاب سيرة النّبي محمّد لكارين أرمسترونج (ص٧٦، ٧٧).

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المعجزة الكبرى القرآن):

«عَجْزُ العرب على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابتٌ ثبوتًا لا مجال للريب فيه، لا يرتاب فيه مؤمن، ولا يجحده ولا يماري فيه إلا من يُهمل عقله، ويسقط من حساب المفكرين فعلى ذلك تواترت الأخبار، واتفقت الأمصار لا فرق بين عدو وولي»(1).

فنبغ في هذا الباب (باب دلائل الإعجاز البلاغي في القرآن) الكثيرُ من أساطين اللغة وعلماء الأمة الثقات، ونقلوا لنا شهادتهم بما وجدوه وعاينوه من أوجه الإعجاز البلاغي وهم أهل الثقة والتخصص والأمانة الذين نقبل شهاداتهم كما نقبل الحديث من الراوي إذا كان عدلًا ثقة وضابطًا.

فإذا كنا نحن عموم العرب (فضلًا عن غيرنا في ذلك العصر الحديث الذي ضاعت فيه اللغة أيما ضياع حتى صرنا أشبه بالأعاجم واستبدلنا الفصحى بالعامية) لا نملك تلك السليقة التي كانت عند العربي القديم (التذوق الفطري)، ولا نملك أيضًا أدوات علوم اللغة والبلاغة والأدب ولا نعلم قواعدها التي تُكتسب بالدراسة والتعلم والممارسة (التذوق العلمي)؛ ولكن تأتينا شهادة الواقع التاريخي الذي نزل فيه القرآن عندما تحدى أهلَ السليقة من العرب وقتها فعجزوا جميعًا عن معارضته وصاروا بين مؤمن متبع متواضع وبين عاجز معاند كافر محارب؛ ثم تأتينا أيضًا شهادة المتخصصين والدارسين للغة وعلومها والبلاغة وقواعدها على مرّ التاريخ الإسلامي لتؤكد ذلك الوجه من الإعجاز في القرآن ومفارقته لكلام البشر، ومعلومةٌ تلك القاعدة المستقرة عند عقلاء البشر جميعًا أنّ: (**أهل كل علم وفن هم الأولى بتقرير مسائله**).

فكيف لنا بعد كل ذلك لا نقبل شهادة الواقع وشهادة المتخصصين؟!

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٦-٢٧].

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٧٦) طبعة دار الفكر العربي.

ولا شك أن إجماع المتخصصين في علم معين هو حجة على الناس جميعًا؛ فإجماع أهل الطب -مثلًا- على مسألة معينة هو حجة عند جميع عقلاء البشر يُؤخذ بها طالما أنها سالمة من المعارضة.

وكذلك إجماع المتخصصين في اللغة وأهل الفصاحة والبيان على إعجاز القرآن ومفارقته لكلام البشر هو أيضًا حجة على الناس جميعًا. والذي نقل إلينا هذا الإجماع هم العلماء والمتخصصون قديمًا وحديثًا في كتبهم التي تكلموا فيها عن دلائل الإعجاز البلاغي في القرآن، والأوضحُ من ذلك هو عجزُ البشرية كلِّها على مر تاريخها عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، وإلا لو حدث ذلك لانتشر قطعًا بين الناس يعلمه القاصي والداني وتتناقله وسائل الإعلام التي تطعن في الإسلام ليل نهار وتسعى جاهدة لإسقاطه بغير وجه حق كالذي يبصق في قرص الشمس فلا يناله إلا أن يعود بصاقه على وجهه، أو كما وصفهم الرافعي في غرورهم وأوهامهم قائلًا: «وإنهم وإياه -القرآن- في غرورهم وأوهامهم كالطيّارات غرّها أن تصعد في الجو فمضت حاشدة في حملة حربية إلى فلك الشمس، ألا دون هذه الشمس سُنن الكون وقوانين الأقدار ونظام الأبدية»[1].

فلا يلزمني أن أكون عالمًا في اللغة حتى أدرك أن القرآن الذي جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو معجزة بلاغية تفوق طاقة البشر، كما أنه لا يلزمني أن أكون ساحرًا حتى أدرك أن ما فعله موسى هو معجزة أيضًا تفوق طاقة البشر. فقط يكفيني عجز المتخصصين.

تلك هي الحُجّة المنطقيّة على الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وهي حُجة النّاس جميعًا سواءً كانوا من العرب الأقحاح من أهل التذوق الفطري أو كانوا دارسين للغة وعلوم البلاغة، أو كانوا ضِعافًا في اللغةِ كحالنا نحن المُتحدّثين بالعاميّة أو كانوا حتى أعاجم لا يعلمون حرفًا فيها لأنّ هذه الحُجّة كما قُلت مبنيّة على قاعدة منطقية مُستقرّة في العقل البشري الجمعي وهي (قياس الأولى).

---

(١) كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي- ص١٢ - ط. دار الكتاب العربي.

ومع كل ذلك فإذا خرج علينا رجل قليلُ الحكمة ليقول إنّه لا تعنيه شهادةُ الواقع على عجز البشرية عن معارضة القرآن، كما أنّه لا يقبل إجماع المتخصصين على إعجاز النّص القرآني في بلاغته وأنّه ليس من جنس كلام البشر، وأنّه لن يُسلّم بتحقُّقِ ذلك الإعجاز إلّا إذا استشعره هو بنفسه وتذوقه!

فمثل هذا نقول له: الطريق مفتوحٌ أمامك؛ فلتتعلّم إذن اللغة العربية (الفصحى) وقواعدها كعلوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة والبيان، ولتقرأ الأدب العربي لتحصيل ملكة التكلّم حتى تصير من أهل التذوق العلمي المتخصصين.

ثم انظر أنت بنفسك مرة أخرى في النّص القرآني وحاول جاهدًا مُستعينًا بمن تريد أن تأتي بمثله؛ افعل ذلك ولا تتردّد فالتحدي ما زال قائمًا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة:٢٤].

ولكن إيّاك أن تنسى أنّه كما أنّ التحدي ما زال قائمًا فالجزاء أيضًا ما زال قائمًا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

ملحق بالإعجاز البلاغي

أسرار أخرى في القرآن

بعدما تعرفنا على الحجة العقلية المتعلقة بالإعجاز البلاغي للقرآن كدليل على صدق الإسلام، فإنّه لا يزال هناك أيضًا بعض الأسرار والإشارات القرآنيّة الأُخرى والتي من المهم معرفتها والتعرّض لها واصطحابها مع فكرة الإعجاز البلاغي التي ذكرناها حتى نصل إلى صورةٍ أقرب لحقيقةِ هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فنتأكّد أنّه بالفعل تنزيلٌ من حكيم حميد؛ ومن هذه الأسرار القرآنيّة:

- نزول القرآن طوال فترة الوحي في صورة آياتٍ مُتفرقةٍ تحوي معانٍ مختلفةٍ والتي شكّلت في النّهاية سورًا لها وحدة موضوعية مُستقلة؛ فقد ظلّ الرسول ﷺ يتكلم بما يوحى إليه من القرآن منَجَّمًا (متفرقًا) طيلة ثلاثة وعشرين عامًا، فالقرآن كما نعلم لم ينزل جملة واحدة بل لم تنزل السورة الواحدة من سور القرآن في كثير من الأحيان كاملة، ولكن كانت تنزل على النبي آيات متفرقة مناسبة للظرف أو للواقعة التي يمر بها رسول الله وأصحابه، ولذلك نجد أن هناك عِلمًا كاملًا من علوم القرآن يُعرف بأسباب نزول الآيات والذي يُعْنى بالبحث في السبب أو القصة التي وراء نزول الآية ومناسبتها وذلك قطعًا يزيد من فهمنا للآية من خلال معرفة السياق الذي نزلت فيه.

ثمّ بعد ذلك صارت تلك الآيات -التي كانت تتنزّل في أوقات متفرقة- سورًا مستقلة[1]، حتى إننا نجد بعض تلك السور تحوي آيات مكية وأخرى مدنية!

---

(١) ولإدراك مدى صعوبة ما حدث واستحالة أن يكون النبي ﷺ قد فعل ذلك بمفرده دعونا نستحضر ذلك المثال التقريبي وهو ما يُعرف بـ (لعبة اللغز أو puzzle game)، وهي عبارة عن قطع صغيرة وكثيرة ومُبعثرة والمطلوب من الشخص أن يقوم بتجميعها معًا بالطريقة الصحيحة لتُكوّن في النّهاية صورة =

السؤال هنـا: كيف أن هذه الآيات التي نزلت في سياقات زمنية ومكانية مختلفة وظروف متباينة وتشمل معاني وأفكارًا متعددة مرتبطة ومرهونة بسياقها الزمني طيلة فترة نزول الوحي على النبي تُكوِّن في النهاية سورًا مستقلة تربطها وحدة موضوعية معينة وترابط عجيب بين معانيها وأفكارها من أول السورة إلى آخرها ؟!

وهذا باب لتدبر القرآن قد أبدع فيه الكثير من العلماء في استخراج الوحدة الموضوعية للسور والعقد الذي ينظم آياتها في تسلسل بديع رائق!

- سرعةُ تحدُّثِ النّبي بالآية القرآنيّة المُناسبة للواقعة أو الحدث مع خروجها منه في قمة كمال اللفظ والمعنى؛ فقد كان النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلم بالآيات البليغة من القرآن في نفس وقت حدوث الواقعة أو بعدها مباشرة بفترة زمنية يسيرة يستحيل معها تحضير وتجهيز تلك الآيات التي تجمع بين جمال اللفظ وبلاغة المبنى كما تجمع أيضًا بين حكمة الرأي ودقة المعنى!

والسؤال هو كيف استطاع النبي محمد أن يُعد ويُجهز تلك الآيات البليغة التي تتكلم عن واقعة معينة في هذا الوقت القصير جدًّا بهذه الصورة البلاغية التي أعجزت العرب وأيضًا بهذا المعنى الرشيد؟!

هذا المعنى الذي أردت ذكره يجعلنا نقطع باستحالة أن يكون هذا الكلام الذي يخرج من النبي مناسبًا للوقائع والأحداث هو من كلامه وخارجًا عن ذاته!

التفسير الوحيد على ذلك هو أن يكون هذا الذي يتكلم هو نبي مؤيد بالوحي من الله، ولا أقصد هنا الآيات التي نزلت قبل حدوث الواقعة أصلًا، فهذه سأتكلم عنها في فصل الإعجاز الغيبي في القرآن.

= واضحة ذات معنى كصورة حيوانٍ مثلًا وخلافه، وتزداد صعوبة تلك اللعبة كلما ازدادت عدد القطع الصغيرة المطلوب تجميعها، فما بالك بآياتٍ مُتفرقةٍ تحمل معاني مختلفة لسياقات متعدّدة ظلّت تتنزّل على رسول الله طوال أكثر من عشرين عامًا كاملًا ثم في الأخير جُمّعت لتكون سياقاتٍ مُتّسقةٍ.

- عدم مُناقضة آيات القرآن بعضها بعضًا على الرغم من أنّها نزلت في سياقات مختلفة وطوال فترة زمنية طويلة تفوق العشرين عامًا؛ فكيف يمكن تصور حدوث ذلك في ظلّ الاعتقاد بأن هذا الرجل كان كاذبًا في ادعائه النبوة؟! مع العلم أن الذي يكذب يظهر كذبه هذا من فلتات لسانه ودون أن يشعر!

لذلك كان العرب قديمًا يقولون: (**إذا كنت كذوبًا فكن ذَكُورًا**)!

ولكن حتى هذا المثل العربي قد يصلح كمنهجية يتعامل بها من يخشى انكشاف أمر الكذبة أو الكذبتين في فترة زمنية قصيرة.

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يتذكر ما قاله طيلة ثلاث وعشرين سنة كاملة مليئة بالأحداث والوقائع كتلك التي قضاها النبي في فترة النبوة والتي هي في الحقيقة أشبه بملحمة عظيمة متتابعة الأحداث؟!

يتأكد ذلك الأمر أيضًا عندما نعلم أن كل ما قاله النبي طوال تلك الفترة (فترة نزول الوحي) مُدوَّنا ومحفوظًا، وبالتالي فهذا الأمر قابل للاختبار وقابل للتخطئة إن وجد ما يدعو لذلك!

هذا المعنى -كغيره من المعاني التي نذكرها- يجعل فرضية أن ذلك المتحدث هو نبي معصوم مؤيد بوحي من السماء هي الحقيقة المتسقة مع مضمون ذلك الكتاب المعجز، والأصح تفسيرًا لسياقه التاريخي.

- انعدام الطابع الشخصي للرسول في الخطاب القرآني؛ حيث إنّ من المعاني التي تظهر بوضوح لمن يقرأ القرآن ويتفكّر في مضمونه ما قد سمّاه المُفكّر الجزائري مالك بن نبي بانعدام الطابع الشخصي للرسول في الخطاب القرآني[1].

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي (ص ١٦٣) طبعة دار الفكر.

ويتأكّد ذلك الأمر جليًا في عدم تأثر الخطاب القرآني بالأحداث المؤلمة التي حدثت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته مثل وفاة زوجته خديجة وعمه وسنده أبي طالب في عام واحد، ومثل ما لاقاه النبي من قومه من سوء العشرة والمعاملة بدءًا من المحاولات المستمرة لإيذائه وإيذاء أتباعه وصولًا إلى التخطيط المباشر لقتله، حتى وصل به الأمر إلى أن اُضطُر لترك بلده التي أحبها وعاش فيها طيلة عمره -وقد قال عنها أنّها أحب بلاد الله إليه- وهجرته ضعيفًا طريدًا تاركًا أهلَه وعشيرته، وغير ذلك من تلك الوقائع والأحداث المؤلمة التي مرّ بها النبيُّ في حياته.

من المعلوم أنّ المواقف الشخصية التي يمرّ بها أي شاعر أو كاتب أو أديب في حياته خصوصًا تلك العصيبة المُؤلِمَةِ منها كفراق الأحبة وظلم الناس لاسيما الأهل والأقارب وغير ذلك هي أكبر محرك ودافع إلى الكتابة والتعبير عن ذلك المكنون الداخلي العميق الذي يشعرون به حينها، ولكن هذا ما لا نجد له أي مثيل أو نظير في الخطاب القرآني، فالقرآن لا يحمل أي طابع شخصي يُعبر عن ذات النبي وما يطرأ على نفسه من الحزن والتأسف والضيق بل إننا نلحظ استقلالًا تامًّا للظاهرة القرآنية عن النفس والذات المحمدية.

وتفسير ذلك أن القرآن بالفعل ليس له علاقة بنفس وذات النبي ولكنه من مصدر خارج عنها ومفارق لها؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠].

- عدم نسبة النّبي القرآن إلى نفسه ومجهوده ولكن نسبته إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن المعلوم أنّ النفس البشرية من طبيعتها أنها إذا أنتجت شيئًا عظيمًا ثم اُشتهر أمر ذلك الشيء فإنها تكون ضنينة به حريصة أشد الحرص على أن يُنسب إليها لا إلى غيرها، وأن تنال هي براءة اختراعها وإبداعها، كما تجدها حريصة أيضًا على أن تكون محور اهتمام الناس وثنائهم.

ولكننا نجد كالعادة أن تلك المعادلات المُفسّرة لحالة النفس البشرية لا تتّسق مع الحالة المحمدية، بل يظلّ هناك أبعادٌ غائبة عن المعادلة!

نجد أن النبي محمد لم يقم بنسبة ذلك القرآن البديع إلى نفسه بل قال إنه لا يملك من أمره شيئًا وأنه فقط مبلغ للقرآن لا مُنشئ له!

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:١٥-١٧].

ذلك التأكيد النّبوي على عدم نسبة القرآن إلى نفسه يجعلنا نتوقف قليلًا لنتساءل:

لماذا لم ينسب النبي محمد هذا القرآن البديع إلى نفسه على الرغم من اشتهار أمره وذيوع صيته وتفوقه على كل ما أنتجه البلغاء والفصحاء والأدباء والشعراء في عصره بل وتحدّيه لهم ثم عجزهم عن معارضته، مع العلم أنّه لو نسب ذلك القرآن إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله كان سيعلو به قطعًا على قومه دون الحاجة إلى الصبر على كل ذلك البلاء والإيذاء الشديد الذي تعرّض له النّبي وأتباعه، ودون الحاجة إلى تحمّل الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم كفار قريش حتّى وصل بهم الحال إلى أكل أوراق الشجر، ودون الحاجة إلى خوض المعارك والحروب والتعرّض لمحاولات القتل والاستهداف له ولأصحابه ولأقرب الناس إليه؟

في الحقيقة كل هذه المتاعب والمصائب ما كانت لتحدث لو أن النبي محمدًا قال فقط أنّ هذا الكلام البديع هو كلامي وليس كلام الله!

وعلى النّقيض فإنّه لو قالها لكان له شأن آخر ولنال المكانة والمنزلة الأعلى بين العرب جميعًا دون أن يُشاك شوكة واحدة!

من الأمور الواضحة أيضًا لكل من قرأ القرآن أنّ محور ومركزية المضمون القرآني من أوله إلى آخره هو الحديث عن توحيد الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو النّواة الصلبة التي يقوم عليها المضمون القرآني بأسره، وتستطيع أن تُرجِع أي نص قرآنٍ إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في النهاية، فنجد الحديث إمّا عن صفات الله الواحد وكيفية عبادته ودعوة رسل الله أقوامهم إلى التوحيد أولًا وترك عبادة من سواه من المخلوقين، ثمّ جزاء من آمن بالله وحقّق التوحيد في الدنيا وعاقبته في الآخرة، وجزاء أيضًا من كفر بالله وأشرك معه غيره في الدنيا والآخرة، وبهذه المركزية لله عَزَّوَجَلَّ فإنّ القرآن يتميّز باستقلالية مضمونه وخطابه عن الذات المحمدية.

هذا المعنى يتميّز به القرآن عن الكتب الأخرى كالعهد القديم مثلًا الذي يدور في الأساس حول شعب بني إسرائيل فتستطيع أن تنسب أي سياق وتُرجعه في النهاية إلى بني إسرائيل بدءًا من الحديث عن تاريخ بني إسرائيل وأنبياءهم وقصصهم ومروياتهم وتراثهم وثقافتهم وعقيدتهم ومعاركهم وغيرها، كما نجد القرآن أيضًا يتميز بذلك عن العهد الجديد الذي جعل مركزية الحديث فيه هو يسوع المسيح وسيرته.

وفي ذلك المعنى مؤكّدًا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه»[1].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤١٧-٤١٨).

ممّا يُثير دهشتي وتعجّبي عندما أقرأ القرآن أنّني أجده لم يذكر اسم النبي محمد إلا نادرًا، فقد جاء اسمه خمس مرات فقط منهم واحدة باسم أحمد، وهذا قليلٌ جدًا خصوصًا إذا قارنّاه بأسماء الأنبياء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم وآدم ونوح، فقد ذُكر اسم النبي موسى مثلًا أكثر من مائة وثلاثين مرة، وذكر اسم المسيح خمسة وعشرين مرة، وإبراهيم أكثر من ستين مرة، ونوح أكثر من أربعين مرة، وآدم حوالي خمسة وعشرين مرة!

والذي يُثير دهشتي أكثر أنّ أغلب تلك المواضع التي تحدّث فيها القرآنُ عن النبيَّ محمّد -سواءً ذكر اسمه فيها أو لم يذكره- كانت في موضع المِنَّة والفضل من الله عليه؛ مثل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى:٧-٨]، ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤]، أو موضع توجيه الخطاب له لتنبيه غيره؛ مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الأحزاب:١]، ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وفكانت بذلك مركزية الكلام فيها ليس النبي محمدًا ذاته ولكن أيضًا الحديث عن ذات الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وكأن الوحي يصرف الأنظار عن شخص محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نفسه تمامًا في مقابل النظر والتدبر في ذات الله وصفاته، بل الأبعد من ذلك أنّ هناك مواضع كانت تحمل نوعًا من اللوم والعتاب للنبي على فعلٍ قام به وكان من باب خلاف الأولى، وهذا المعنى لأهميته سأتحدث عنه في عنصرٍ منفصل مع ضرب بعض الأمثلة عليه من آي القرآن.

الخلاصة: إنّ كل ما ذكرناه آنفًا يؤكّد استقلالية الخطاب القرآني التامة عن الذات المحمدية وأنّ هناك ذاتًا أخرى مُتكلمةً هي التي من وراء ذلك القرآن بلفظه ومعناه.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦١].

ولذلك تقول عالمة الأديان البريطانية كارين أرمسترونج في كتابها (سيرة النبي محمد):

"والقرآن بالطبع ليس سردًا لحياة محمد، فإنه كشف عن الخالق أكثر من كونه كشفًا عن رسوله"[1].

هذه الظاهرة -والتي نجدها مُخالفة للطباع البشرية والأنفس الإنسانية- تؤكد أيضًا تلك الحقيقة القائلة بصدق ذلك النبي في أمر الوحي والرسالة.

- اختلاف الأسلوب الأدبي القرآني عن الأسلوب الأدبي للأحاديث النّبوية على الرغم من أنّ ظاهر مصدرهما واحد -من جهة البلاغ- وهو النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهذا أمر واضح جدًّا لكل من له صلة ولو بسيطة بالقرآن الكريم وبأحاديث السنة النبوية، مما يجعل تحديد وتمييز أحدهما عن الآخر بمجرد سماع جزء منه أمرًا في غاية اليسر والوضوح.

فالقرآن تجده جملة واحدة له أسلوب وطابع أدبي واحد مختلف ومتميز تمامًا عن باقي كلام الرسول، ولذلك وصفه الله بأنه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، أي متشابهًا في أسلوبه وطريقته وتميزه وتفرده عن باقي كلام العرب، وهذه هي إحدى معاني ذلك الوصف القرآني.

هذا المعنى يؤكد لنا أن هناك مصدرًا آخر للقرآن خارج ذات النبي محمد، ومفارق لجنس أسلوبه وصنعته الأدبية.

معلوم لدى القراء والنقاد والمهتمين بالأدب والبلاغة أن لكل أديب أو كاتب أسلوبه وطابعه الأدبي الخاص الذي يتميز به عن غيره، حتى كان يُقال قديمًا: (**إن الأسلوب هو الرجل**)؛ تعبيرًا عن تلك البصمة الأدبية الخاصة والمميزة لكل شخص عن غيره فهي أشبه بالبصمة الصوتية أو بصمة الإصبع، وكما أنه يستحيل أن يمتلك شخص

(١) سيرة النبي محمد للكاتبة كارين أرمسترونج (ص ٧٦) – ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني.

واحد بصمتين مختلفتين أيضًا يصعب على أي أديب أن يجمع بين أسلوبين أدبيين مختلفين تمامًا ويظل محافظًا عليهما لفترة طويلة.

فكيف إذن جمع النبي بين هذين الأسلوبين الأدبيين المختلفين والذين لم يختلطا ببعضهما أبدًا طوال ثلاثة وعشرين عامًا في ظل أحداث يومية متشابكة؟!

وافتراض أن هذا من قبيل الصدفة هو افتراض يصعب قبوله جدًّا.

- الإعجاز التأثيري للقرآن، والذي يعني قوة تأثير القرآن في النّفوس البشريّة للدرجة التي جعلته السبب الرئيس في تغيير حياة العديد من الأشخاص، كما يُعرّف أيضًا أحيانًا بالإعجاز النّفسي للقرآن.

والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ منها ما حدث مع عُمر بن الخطاب الذي كان معروفًا قبل إسلامه بغلظة القلب للدرجة التي جعلته يقتل ابنته الصغيرة، كما كان معروفًا أيضًا بشدة عدائه للإسلام وبُغضه للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى قالت عنه العرب: لو أسلم حمار الخطاب ما أسلم ابن الخطاب!

ولكن ما الذي حدث لذلك الشخص مع سوء طويته وغلظ قلبه آنذاك عندما استمع لبعض آيات القرآن العظيم وتدبّر معانيها؟!

لقد دخل مباشرةً في الإسلام وعُرف بالفاروق ذي الوجه المُتميّز بالخطين الأسودين من شدّة تأثره بالقرآن وبكائه عند سماعه!

كيف تغيّر نفس الشخص كل هذا التغيُّر وفي فترةٍ زمنيةٍ يسيرةٍ من حال الكفر والغلظة والشدة والجفاء إلى حال الإيمان واليقين ورقة القلب حتى وكأنّنا نتحدّث عن شخصين مختلفين؟!

بل إن الصحابة جميعهم أيضًا آمنوا ودخلوا في الإسلام ضاربين أروع الأمثلة في البذل والتضحية والأمانة والإخلاص والصدق واليقين ورقة القلوب على الرغم من

أنهم كانوا من قبل أبناء المجتمع الجاهلي البدوي الغليظ وقد حدث هذا فقط بمجرد تدبّرهم لآي القرآن فالرسول لم يدعهم إلا بالقرآن.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

وقد أشار الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه إلى تلك القوة التأثيرية المُعجزة في النّص القرآني ليفتح للنّبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته والمسلمين من بعدهم ذلك الباب الدعوي المُهم الذي كان سببًا رئيسًا في دخول العرب الأوائل في الإسلام فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦]، وتدبّر معي تلك الثقة التي يتحدّث بها القرآن عن نفسه فهو يقول للنّبي محمد ما عليك إلّا أن تُسمعهم ذلك الكلام وفقط!

ولقد أدرك كفار العرب قديمًا ذلك التأثير العجيب للقرآن وما يُحدثه في النفوس والعقول والقلوب بمجرد سماعه، فحاولوا بكل وسيلة مُمكنة منع وصوله إلى الناس.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وما قصة الطفيل بن عمرو الدوسي منا ببعيد، فلقد كان شاعرًا سيدًا في قومه، فأخذ كفارُ قريش وساداتها يحذرونه من سماع القرآن ويقولون إن كلام النبي كالسحر يفرق بين الرجل وأهله حتى وضع الطفيلُ القطنَ في أذنيه كي لا يسمع كلام ذلك الرجل، ولكنه فكَّر قليلًا بعدها فقال في نفسه: والله إن هذا للعجز، وإني امرؤ ثبت، ورجل شاعر لبيب، ما تخفى عليّ الأمور حسنها وقبيحها، والله لأتسمعن منه فإن كان الذي يأتي به حسنًا قَبِلْتُه، وإن كان قبيحًا تركته، فنزع القطن من أذنيه واستمع فقال: ما سمعت لفظًا أحسن ولا أجمل منه، ثم ذهب للنبي وأسلم(١).

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٤٦٠).

ولقد كان هذا النوع من الإعجاز (قوة تأثير القرآن في النّفوس والعقول) واضحًا ولافتًا للانتباه للدرجة التي جعلت الكثير من المهتمين بالقرآن وعلومه يتحدثون عنه واصفين إياه تارة بالإعجاز التأثيري للقرآن وتارة أخرى بالإعجاز النفسي، وهو يشمل نوعين من الإعجاز؛ إعجازٌ في اللفظ القرآني وإعجازٌ آخر في المعنى كذلك، ولذلك فإنّ هذا الشعور الكامن بقوة تأثير القرآن هو أشبه بالسر الذي يشعر به من تعرض له وتفاعل معه، فلا يكاد يدري ما هو السر وراء ذلك التأثير؟! أهي العبارة ذاتها ودقة اختيار الألفاظ أم هو المعنى المُقنع للعقول الكامن فيها أم هو الإيقاع القرآني المطرب للقلوب أم أنها تلك الأمور مجتمعة أم أنها أشياء أخرى مضافة على كل ذلك؟!

ويقول صاحب الظِلال:

«إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشي بالقوة الخفية المودَعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن كلما تفتح القلب، وصفى الحس، وارتفع الإدراك، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحًا كلما اتسعت ثقافة الإنسان ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه»[1].

وإذا تحدّثنا عن الإعجاز التأثيري للفظ القرآني تحديدًا فنجد أنّه يظهر جليًا لدى المشتغلين في مجال الدعوة عمومًا فرديّةً كانت أو جماعيّة، فعندما يتكلّم الداعية مع من يريد دعوته وهدايته بالأساليب العقلية والحجج المنطقية قد يجد منه اقتناعًا عقليًّا يظهر في صورة موافقةٍ للكلام، ولكن إذا ما تلفّظ بالآية القرآنيّة والتي تحمل نفس المعنى العقلي فسرعان ما تجد تأثرًا عجيبًا يجمع شتات العقل والروح والعاطفة والوجدان فيظهر الخشوع على وجه الشخص المدعو ويستشعر كأنّ هناك بُعدًا آخر في تلك الألفاظ والكلمات جعلها تخترق حُجب النّفس وحواجز المعرفة نافذةً إلى عقله ووجدانه.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٠٥) طبعة دار الشروق.

يقول الإمام الخطابي في رسالته المعروفة بـ (بيان إعجاز القرآن):

«فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظورًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانًا»(١).

وهذا المعنى المُراد هنا هو خاصٌ كما قُلت باللفظ القرآني الأصيل تحديدًا كما نزل من السماء ومفارقة تأثيره على النّفوس لتأثير ذِكْرِ معناه مجردًا عن لفظه الذي نزل به، وهناك من القصص قديمًا وحديثًا الكثير والكثير مما يؤكّد ذلك المعنى وهو أمرٌ كما قلت يُدركه الدعاة جيدًا حال دعوتهم.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر:٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

---

(١) بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي(ص٧٠)، وهي رسالة منشورة ضمن كتاب واحد يجمع ثلاث رسائل للرماني والخطابي والجرجاني بعنوان (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) طبعة دار المعارف بمصر.

تقول عالمة الأديان البريطانية كارين أرمسترونج:

"وحتّى يومنا هذا فعند تلاوة القرآن تهتز مشاعر المسلمين بعمق، كما أنهم يقولون إنّهم حين الإنصات إليه يشعرون أنّ بُعدًا سماويًا يحيط بهم، إنّها تجربة مشابهة لتجربة محمد في غار حراء عندما أحاطه عناق الملك أو حينما أبصر بعد ذلك هذا الكائن الغيبي يملأ كل بقعة في السماء يدير إليها بصره"(١).

وعندما يتعهّد الإنسان مع مرور الزمن الاستماع إلى القرآن مِرارًا وتِكرارًا بِنيّةِ فِهم مُراده ومن ثَمّ تطبيقه في الواقع إلى أن يصير شخصيّة مُؤمنةً متكاملةً تُدرك جيدًا تصوّرات الإسلام ومعاني الوحي وتعيش حياتها وفق تلك المعاني والتّصوّرات مُقتديةً بالنّبي محمّد الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض فإنّ ذلك الأثر القرآني يصير أكثر عُمقًا وثباتًا ورسوخًا من مجرد التأثّر اللحظي وقد يُعرف حينها بأثر القرآن في التكوين والبناء الشخصي للأفراد وِفق تصوّرات الإسلام ومضامينه أو تكوين اللبنةِ المؤمنةِ المتكاملةِ في صرح أو بناء الأُمّة الإسلامية ككل.

هذا المعنى بالطبع قد يحدث لأي أحدٍ أدرك معاني القرآن وقام بتطبيقها والعمل بها حتى لو لم يستمع إلى اللفظ الأصلي كما نزل من السماء، وهو بالتالي قد يحدث أيضًا للأعاجم الذين لا يفهمون العربيّة أصلًا بمجرد قراءتهم وإدراكهم لما يحمله القرآن من معاني وعقائد وتصورات تُؤسس لمعنى حقيقي من الحياة بعيدًا عن عبثيّة الغرب وضياع المعنى.

ويصف صاحب الظلال بعض معالم وتجليات ذلك التأثير القرآني مُتعجبًا من امتداده ليشمل غير العرب أيضًا فيقول:

«إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، إن له سلطانًا عجيبًا على القلوب ليس للأداء البشري؛ حتى ليبلغ أحيانًا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون

---

(١) سيرة النّبي محمد لكارين أرمسترونج (ص ٧٧).

من العربية حرفًا.. وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول -وإن لم تكن هي القاعدة- ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل»[1].

ولا تزالُ الأمثلة كثيرةٌ جدًّا حتى يومنا هذا على مدى تأثير ذلك الكتاب في النفوس ومدى إقناعه للعقول وإشباعه للقلوب حتى للأعاجم من غير العرب، ومن القصص الرائعة على ذلك تلك التي قام بعرضها الشيخ فهد الكندري في برنامجه (بالقرآن اهتديت) حيث أجرى عشرات اللقاءات مع أجانب لا يعرفون العربية إطلاقًا وهم مع ذلك يحكون تجربتهم مع ذلك الكتاب المُعجز وكيف أنهم آمنوا واهتدوا وتغير حالهم بمجرد سماعهم آية أو بعض آيات ذلك القرآن العظيم.

وأمّا بالنسبة لأثر القرآن على المستوى الأممي وعلى السياق الحضاري البشري العام ككل فهذا سأتحدث عنه بإذن الله في الفصل الخاص بثمرات القرآن في الباب الثالث من الكتاب.

- قارئ القرآن لا يَملُّ أبدًا من تكرار قراءته؛ بل كلما ازداد من قراءته كلما ازداد القرآن حلاوة على عكس غيره من الكلام الذي يُمل مع الترديد، وهذا واقع مُشاهد يعلمه جيدًا كل من له صلة بالقرآن.

وفي هذا المعنى يقول الرافعي: (**إن القرآن لا يَخْلق على كثرة الرد وطول التكرار**)[2].

ولذلك عندما سُئل عالم الرياضيات جفري لانج الذي كان ملحدًا وأسلم -وكان سبب إسلامه قراءته لترجمة معاني القرآن- ذلك السؤال: كيف أَلِف وتعود على قراءة القرآن باللغة العربية وهي غريبة عنه؟!

فردَّ قائلًا: **ولماذا يرتاح الرضيع إلى صوت أمه رغم أنه لا يفهمه؟!**

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٨٦) طبعة دار الشروق.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص١٧٤).

- القرآن خطابٌ للعامّة والخاصّة؛ فهو أحسنُ الكلام وأحسنُ الكلام كما يقول ابن الأثير هو ما عَرِفَ الخاصّة فضله وفَهِمَ العامّة معناه.

ممّا يُلاحَظ أنّ أي كاتبٍ أو مؤلفٍ إمّا أن يكون أسلوبه الأدبي وطريقة اختياره للألفاظ والعبارات أسلوبًا نُخبويًا كما يقولون بحيث يستخدم مصطلحات مُتَخَصِصَة وعبارات مُقعّرة يصعب على عوام النّاس البسطاء فهمها والتفاعل معها، وبذلك فإن هذا الكاتب يكون قد حَصَرَ جمهوره في تلك الفئة المُثقّفة النُخبويّة فقط.

وإمّا أن يكون أسلوب الكاتب أسلوبًا سطحيًّا بسيطًا مُباشرًا بحيث يختار من الألفاظ والعبارات أبسطها في الفهم وتوصيل المعنى المُراد حتّى ولو كان ذلك على حساب بلاغة النّص وفصاحة الكلام أو على حساب إدراك القارئ للمعاني العميقة، وبذلك فإنّ هذا الكاتب قد كَسَبَ جمهورًا من فئة عوام النّاس البسطاء ولكنّه أيضًا أضاع منه تلك الفئة المُثقّفة الدارسة التي لم تجد ما تبحث عنه وترجوه من أسرار البلاغة وسِحر البيان.

ولكنّنا نجد أنّ خطاب القرآن له صورة فريدة من نوعها وغير مسبوقة بحيث تجد كلُّ فئةٍ ضالتَها المنشودة وما يُشبع رغبتها في نفس الآية الواحدة أو السورة الواحدة أو السياق الواحد بنفس ألفاظه وعباراته!؛ فنجد أنّ ألفاظ القرآن وأسلوبه الأدبي ليس صعبًا معقدًا بحيث لا يفهمه أحد إلا بعضُ المتخصصين، وليس ركيكًا ضعيفًا فيضيع إعجازه وتصبح معارضته والإتيان بمثله في حيز الإمكان البشري، ولكن القرآن بَيْنَ هذا وذاك؛ فقد أنزله رب العالمين ليكون هدايةً للناس كافة لذلك جعله سهل الألفاظ، واضح العبارات، يسير الفهم؛ كما قال عنه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم:٩٧]، ولكنّ مع ذلك اليُسر والسهولة نجد القرآن أيضًا يشتمل على أسرار الفصاحة والبلاغة والبيان وهذا ما لا يُدركه إلّا المُتخصصون والدارسون من أهل العلم والتذوق.

يقول ابن الأثير:

«وإذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام، وجدناه سهلًا سلسًا، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدًا. هذا وقد أُنزل في زمن العرب العرباء، وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالًا، وكفى به قدوة في هذا الباب. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن؛ وهي السبع المثاني»**، يريد بذلك فاتحة الكتاب وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ، يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة حتّى وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة؛ فإنّ أحسن الكلام ما عرف الخاصّة فضله وفهم العامّة معناه، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها، والمقتدي بألفاظ القرآن يكتفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة»[1].

- ردُّ القرآن على التساؤلات الوجودية التي طالما حيّرت البشرية مثل سؤال المعنى من الحياة والغاية من الوجود البشري واختصاص الإنسان بالعقل والإرادة وأيضًا مثل سؤال المآل وما بعد الموت؛ فنجد القرآن مثلًا يرد على الملاحدة الذين ينكرون الصانع فيقول ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

وهذه حجة عقلية تقوم على قاعدة منطقية تُعرف بـ(السبر والتقسيم).

كما يرد القرآن أيضًا على من أنكر القيامة وبعث الأجساد بعدما تصير ترابًا؛ فيقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٦-٦٧].

(١) المثل السائر لابن الأثير (١/ ١٨٧).

أقام القرآن أيضًا الحجة العقلية الدامغة على النصارى الذين يؤمنون بأن المسيح ابن الله لأنه وُلِد بلا أب بيولوجي؛ فرد عليهم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

وهذه أيضًا قاعدة منطقية؛ فإذا كان المسيح هو الله أو ابن الله لأنه وُلد بلا أب فمن باب أولى أن يكون آدم هو الإله أو ابن الإله لأنه بلا أب ولا أم.

والنصارى قطعًا لا يقولون إن آدم ابن الله ولكنه عندهم هو مخلوق لله مثل باقي المخلوقين.

- تكرار بعض القصص القرآني مثل قصة موسى وقصة بداية الخلق وسجود الملائكة لآدم وغيرها، وتكرار بعض المواقف والمعاني في القرآن أكثر من مرة ولكن بصور بلاغية مختلفة وعبارات وألفاظ متنوعة له العديد من الحِكم التي ذكرها البعض فقد تكون توكيدًا لوعيد أو بسطًا لموعظة أو تثبيتًا لحجة أو تذكيرًا للإنسان بالنِّعم والمِنن وهكذا..

إلّا أنّ الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر معنى آخر في غاية الروعة وهو أنّ القرآن عندما تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولكنهم عجزوا عن معارضته فنزل بعدها عليهم بآياتٍ أخرى تحمل نفس المعنى أو تتحدث عن نفس القصة ولكن بصورة بلاغية وأدبية أخرى وألفاظ متغيرة، فكان ذلك بمثابة إعجاز فوق إعجاز، وكأن القرآن يتحدّى نفسه إذ لم يستطع أحدٌ معارضته!، وفي هذا يقول الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

"لأنّ المعنى واحد يتردد في أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجهًا أو عبارة وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون، فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز وأشد عليهم في التحدي، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسي الذي قد تمكن معه الاستطاعة أو تتهيأ المعاريض حينًا بعد

حين إلى العجز الفطري الذي لا يتأول فيه المتأول ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجري الأمر فيه على المسامحة"[1].

- اشتمال بعض الآيات على صورٍ من الإعجاز الغيبي أو التشريعي أو بعض الحجج العقلية البرهانيّة مع الحفاظ أيضًا على الجانب الجمالي والإعجاز البلاغي للنصّ واللفظ القرآني!؛ فعلى الرغم من أنّ الكثير من الآيات في القرآن نجد فيها أوجه من الإعجاز الغيبي أو التشريعي أو الأدلة العقليّة والحجج البرهانية على بعض الأصول الاعتقادية إلّا أنّ العجيب والمُحيّر في الأمر أنه في نفس الوقت نجد أن تلك الآيات تخرج في صور بلاغية إعجازية أيضًا، فيصير بذلك الإعجاز مركّبًا مبنى ومعنى، دالًّا ومدلولًا، ظاهرًا وباطنًا!
- نزول بعض الآيات مخالفة لفعل الرسول وقت نزولها ممّا يدلّ على أنّ مصدر القرآن خارج عن الذات المحمدية؛ ومن أمثلة ذلك:

١- **استغفار النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه أبي طالب بعدما مات والذي حزن لموته حزنًا شديدًا ولكن نزلت الآية تمنعه من ذلك؛ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

٢- **آيات العتاب** التي عاتب فيها القرآنُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليوجّهه إلى الأمثل والأوفق والأرفق والأحسن عندما يفعل ما يكون خلاف الأولى، ومنها:

- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].
- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١-٢].

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - طبعة دار الكتاب العربي (ص١٩٤).

- ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١].

فهذه الآيات تدل على أن النبي ليس له من الأمر شيء.

فقط يبلغ ما يوحى إليه من الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤].

٣- **تأخّر الوحي** على النبي في أوقات هو في أمس الحاجة فيها إلى قول فصل يحسم المشكلة مثل ما حدث في حادثة الإفك مع الحاجة الشديدة إلى وحي يُظهر الحقيقة، والتي تكلمنا عليها في الباب الأول؛ حيث تأخر الوحي عن النبي شهرًا كاملًا خلافًا لما معهود من الطبيعة البشرية من التعجل في مثل تلك المواقف!

- تحدّي القرآن للعرب والناس جميعًا قبل أن يكتمل نزوله؛ فقد نزلت آيات التحدّي أثناء نزول الوحي وبالتالي قبل أن تكتمل جميع أوجه إعجازاته الأخرى المختلفة كالغيبية والتشريعية، وهذا أيضًا يؤكّد أنّ الإعجاز الأساسي في القرآن هو الإعجاز البلاغي والبياني فهو ميدان التحدي الأول وهو الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ تصريحًا في القرآن العظيم.

• فصل في الصَّرْفَة[1]:

لم يشك أحد من العرب الأقحاح (أصحاب التذوق الفطري) من جيل الصحابة والتابعين أنّ القرآن مُعجزٌ في ذاته ولفظه وبيانه.

ولكن دائرة الإسلام قد اتسعت بعد هؤلاء الأوائل ودخل فيها من ليسوا عربًا ولا يحسنون اللسان العربي، وبالتالي كانوا لا يُدركون من بلاغة القرآن ما كان يدركه صاحب السليقة العربية ممن كانوا قبلهم، فتعجب بعضهم من ذلك التحدي القرآني للعرب وللناس جميعًا بأن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله وعجز جميع أساطين اللغة من العرب المكذبين للرسول والحريصين أشد الحرص على إبطال دعوته بكل وسيلة أن يعارضوه وأن يأتوا بمثله.

هذا الأمر دفع بعض المعتزلة والفلاسفة والمتكلمين إلى إحداث قول جديد ليس له أصل، ولم يقل به أحدٌ ممن قبلهم وهو (الصَّرْفَة).

والصَّرْفَة تعني أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن منذ اللحظة الأولى التي تحداهم فيها رسول الله، ومعنى ذلك أن الله فقط صرفهم عن المحاولة وأنّ القرآن ليس معجزًا في ذاته ولكن وجه الإعجاز فيه هو فقط الصرفة.

أول من قال بهذا القول هو النظّام ثم تبعه الجاحظ والقاضي عبد الجبار وغيره.

وهؤلاء القائلون بالصرفة يَرَون أيضًا أنّ القرآن مُعجزٌ وأنّه لا يستطيع أحدٌ معارضته، ولكن موطن الإعجاز عندهم هو الصرفة ذاتها حيث حدث العجز عن معارضة القرآن في نفوس الناس جميعًا والعرب خاصة مقترنًا مع تنزيل القرآن، وليس وجه الإعجاز في البلاغة القرآنية ذاتها.

---

(١) الصرفة في اللغة مصدر للفعل صرف بمعنى أبعد وصرف الشيء عن وجهه إلى جهة أخرى -تهذيب اللغة للأزهري (١٢/ ١٦١)-، ولمزيد من التفصيل في مسألة الصرفة يراجع بحث للدكتور عبد الرحمن الشهري وعنوانه (القول بالصرفة في إعجاز القرآن).

وهذا العجز الحاصل بسبب الصرفة -على قول من يقول بها- لا يمنع العرب والناس من الكلام إطلاقًا ولا يمنعهم من نظم الحروف والكلمات في عبارات بلاغية وأدبية إلا إذا أراد الشخص ونوى في قلبه فقط معارضة القرآن.

ومع ذلك فالحقيقة أنّ القول بالصرفة باطل شرعًا وعقلًا، ولا يقوم عليه دليل، بل إن الأدلة الشرعية والعقلية تُبطله تمامًا كما أنه يُنقص ويقلل من قيمة وبلاغة القرآن من الناحية الموضوعية.

هذا بالإضافة إلى أن علماء المسلمين على مر التاريخ الإسلامي كله أنكروا ذلك القولَ بالصرفة وردوا عليه، ولا أقول هذا من باب الاستدلال بالكثرة بإطلاق ولكن هذا اتفاق المتخصصين من العلماء الذي يُضاف إلى ما سبق من الأدلة والبراهين على إبطال هذا القول.

- والأدلة على بطلان القول بالصرفة يمكن إجمالها في العناصر التالية:

- القائل بالصرفة هو في النهاية ممن يؤمن بالإسلام وبمرجعية القرآن وبالتالي فلا بد له أن يَستدِل على قوله من الكتاب والسنة، ولا يَحِق له أن يبتدع قولًا كهذا إلا بدليلٍ نقلي واضح وصحيح، وفي الحقيقة القول بالصرفة ليس عليه أي دليل من القرآن والسنة لا لفظًا ولا معنى، لا تصريحًا ولا تلميحًا، بل هو قول مخالف لظاهر مدلول آيات التحدي التي فهمها عرب قريش الذين نزل فيهم القرآن بلغتهم وفهمها الصحابة والتابعون على أنها تحدٍ حقيقي لهم أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته، بل وفهمها العرب المكذبون أمثال الوليد بن المغيرة الذي قال عندما سمع القرآن: والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته.

- آيات التحدي في القرآن تُثبت وتُؤكد فكرة إرادة الإنسان واختياره؛ والصرفة حقيقتها الجبر والتسيير ونفي تلك الإرادة، ولا يكون التحدي تحديًا إلا في وجود الإرادة المختارة، لأنها هي مناط التكليف وأساس القرار والفعل البشري بشكل عام.
- القول بالصرفة فيه انتقاصٌ من حكمة الله ووصفٌ له بالخداع والعبث (تعالى الله عن ذلك)؛ إذ إنّه كيف يتحدى قومًا بشيء لا يملكون له أي أداة تمكنهم من خوض التجربة أو التحدّي والتأكد من حدوث الإعجاز البلاغي بالفعل؟!

وكيف يتحداهم الله في حين أنه قد علم سلفًا عجزهم عن امتلاك أدوات ذلك التحدي؟!

- الواقع التاريخي نفسه يشهد بخلاف نظرية الصرفة وبالتالي ببطلانها، فلقد قام البعض قديمًا وحديثًا بمحاولات حقيقية لمعارضة القرآن، ولكنها باءت جميعًا بالفشل مثل مسيلمة الكذاب وبعد ذلك ابن المقفع والذي ندم وتاب عن ذلك بمجرد تدبره لآيات من كتاب الله، وما زال البعض يحاول إلى يومنا هذا، وما كتاب الفرقان–الذي ألفه أحد المنصرين والذي يدعى أنيس شروش– منا ببعيد.

إذن تلك المحاولات الحقيقية لمعارضة القرآن والإتيان بمثله هي دليل على بطلان نظرية الصرفة، حتى ولو كانت جميعها محاولات فاشلة بل ومضحكة في أحيان كثيرة.

- القول بالصرفة يُنقِص من قدر وقيمة القرآن من الناحية الموضوعية، فهو ينفي فكرة إعجازه الذاتي، ويجعل وجه الإعجاز القرآني هو فقط الصرفة.

وهذا الأمر يفتح مجالًا للملاحدة للطعن في القرآن، والادعاء بأنه ليس به أي أوجه إعجاز، على الرغم من أن هؤلاء الملاحدة لو كانوا منصفين لوجدوا أن هناك أوجه إعجاز أخرى في القرآن غير الإعجاز البلاغي مثل الإعجاز الغيبي والتشريعي وهذا ما سنتكلم عنه لاحقًا.

- القول بالصرفة أشبه ما يكون بالسحر، لأنه جعل الناس عاجزين عن مجرد تجميع الألفاظ والعبارات في صيغ بلاغية (فقط) عندما يريدون بها معارضة القرآن.

ولذا يصف الرافعي ذلك قائلًا:

"وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربًا من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، فاعتبر ذلك ببعضه ببعض فهو كالشيء الواحد"[1].

وبذلك يكون كلًّا من مشركي العرب والقائلين بالصرفة قد عجزا عن المعارضة وبدلًا من أن يُعللا عجزهما بإعجاز القرآن وبلاغته أخذا يهذيان بأسباب مضحكة ليس عليها أي دليل مثل السحر والصرفة، وكان أظهر لهما وأقرب للحقيقة أن يعترفا بإعجاز القرآن في بلاغته!

لذلك رد الله عليهم مستنكرًا قولهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

والقرآن قطعًا ليس سحرًا، كما أن إعجازه ليس صرفة.

فيبدو أن القوم بالفعل لا يبصرون.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعي (ص ١٤٦) - طبعة دار الكتاب العربي.

- **سؤال هام:**

هناك سؤالٌ هامٌ يطرحه البعض ويحتاج منّا إلى مزيد من التوضيح والبيان وهو:

إذا كان أهم أوجه الإعجاز في القرآن هو الإعجاز البلاغي البياني المرتبط باللغة العربية، فكيف يمكننا القول بأنّ القرآن حُجّة على غير العرب (غير المتحدثين بالعربية)؟!

وجوابُ ذلك السؤال هو: أنّ ما يَصِل إلى هؤلاء الأعاجم بالفعل ليس هو النص القرآني نفسه وإنما ترجمة لمعاني القرآن، وهذه الترجمة بالطبع ليست معجزة في لفظها (مبناها) لأن الإعجاز البلاغي هو في اللفظ الذي نزل به القرآن والذي هو بلسان عربي مبين، لكن إعجاز القرآن في الحقيقة ليس محصورًا فقط في اللفظ والمبنى بل يشمل أيضًا إعجازًا في المعنى والمضمون وذلك بما يحتويه القرآن من إجاباتٍ على أسئلة وجودية حيّرت البشرية كحديثه الشافي عن قصة البداية وإجاباته على أسئلة المعنى والغاية والمآل، وبما يحتويه أيضًا من حديثٍ فطريٍ عن التوحيد النقي للإله ونفي الشرك والتعدّد والوثنية والخرافة بما يتسق مع فطرة الإنسان، ثمّ حديثه عن صفات الإله الواحد والتي يجد الإنسان السوي في نفسه حاجة مُلِحَّة إلى سماعها للتعرّف على خالقه وخالق الكون من حوله، كما يشتمل المضمون القرآني أيضًا على أوجه الإعجاز الغيبي والتشريعي التي سنتحدث عنها بعد ذلك بالتفصيل، وفي الحقيقة جميع هذه الصور الإعجازية هي خاصة بالمعنى والمدلول القرآني ولا علاقة لها باللفظ ذاته وبالتالي يستطيع إدراكها والتفاعل معها من لا يعرف العربية من أعاجم الشرق والغرب.

أضف إلى كل ذلك أمرًا في غاية الأهمية وهو أنّ الإعجاز البلاغي ذاته أيضًا يستطيع أن يُدركه الأعاجم وبالتالي يصير حجةً عليهم ودليلًا واضحًا من أدلة إعجاز القرآن وصحة الإسلام، ويتحقق ذلك الإدراك للإعجاز البلاغي القرآني من خلال إدراك الحجة المنطقية المُرتبطة بذلك الإعجاز، والتي تقوم كما ذكرنا مِرارًا على عجز جميع المُتخصصين

في اللسان العربي من أصحاب التذوق الضروري الفطري أو العلمي النظري على معارضة القرآن وخوض التحدّي الذي قام به النّبي الأمي أمام العالم أجمع بمن فيهم مِن أفصح وأبلغ من تحدّث العربيةَ على مر التاريخ البشري مع حرصهم الشديد على إبطال تلك الدعوة التي تتعارض مع مصالحهم المُتوهّمة.

كما ذكرت سابقًا أنّه لا يلزمني أن أكون ساحرًا كي أدرك أنّ ما فعله موسى هو معجزة إلهيّة، فإنّه أيضًا لا يلزمني أن أكون عربيًّا كي أُدرك أنّ ما فعله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو معجزة إلهيّة تفوق القدرة البشرية.

يكفيني فقط إدراك تلك الحُجّة المنطقية القائمة على عجز البشرية أجمع بقياس الأولى من عجز المتخصصين، وهذا يستوي في إدراكه وبيان حّجّته العربي والأعجمي.

وبعد ذلك التوضيح لا نتعجب إذن عندما نجد مثلًا أنّ الداعية البريطاني الشاب حمزة أندرياس تزورتزس في إحدى مناظراته في لندن مع أحد كبار دعاة الإلحاد في العالم لورنس كراوس -وكان أغلب الحاضرين من الأجانب- عندما أراد إقامة الدليل على صدق الإسلام تكلم أولًا عن دليل الإعجاز البلاغي في القرآن من خلال ذكر تلك الحجة المنطقية المتعلقة به[1]، وكان دليلًا مُقنعًا وكافيًا لهم على الرغم من أنهم ليسوا عربًا كما قلت وذلك لأنّ هذا السياق التاريخي للتحدي وعجز الناس جميعًا عن المعارضة قد نُقل بالتواتر وأعلى درجات الصحّة التاريخيّة.

ولا نتعجب أيضًا بعد ذلك عندما نجد أنّ العديد من الغرب الأعاجم قد دخلوا في الإسلام فقط بمجرد قراءتهم ترجمةً لمعاني القرآن العظيم وإدراكهم لمعناه المعجز، وخيرُ شاهدٍ على ذلك ما قد عرضه الشيخ فهد الكندري من نماذج مؤثرة جميعها تدور حول ذلك المعنى في برنامجه الذي أنصح بمشاهدته: (بالقرآن اهتديت)، كما أنّ هناك محاضرة

---

(١) https: //www.youtube.com/watch?v=UfMuSHADmPm

تُعد نموذجًا عمليًّا على ما قد يَصِل إليه غيرُ العربي من تدبّرٍ للمعنى القرآني بشكلٍ قلما تجده للأسف عند أغلب العرب الآن، وهذه المحاضرة بعنوان: (الهدف من الحياة)[1] وتعود لعالم الرياضيات الأمريكي جفري لانج والذي كان كاثوليكيًّا في صغره ثمّ مُلحدًا ثمّ دخل في الإسلام فقط بسبب قراءته ترجمةً لمعاني القرآن كما يُخبر هو عن نفسه في بداية المُحاضرة، والنماذج في الحقيقة كثيرةٌ جدًا على مدى توصّل الغرب للإعجاز القرآني.

(١) https: //www.youtube.com/watch?v=cojNpwlkMmk

الفصل الثاني

الإعجاز الغيبي

يُعتبر الإعجاز الغيبي من الأدلة التي يُمكن أن نطلق عليها أدلة دامغة لا تقبل شكًّا على صدق الإسلام وإعجاز القرآن لأنّها ليست أمورًا نسبيّة انطباعيّة قد يُختَلَف في فهمها وتأويلها من شخص لآخر ولكنها أدلة حقيقية موضوعية لا تحتمل الشك.

والفكرة العامة للإعجاز الغيبي قائمة على أن الرسول ﷺ قد أخبر عن أحداث وأمور غيبية سواء ماضية أو مستقبلية ثم تحدث هذه الأمور تمامًا كما أخبر النبي دون أن تنخرم ولو مرة واحدة!

إن مصطلح الإعجاز الغيبي أكبر وأوسع من النبوءات المستقبلية لأن الغيب هو أي شيء يغيب عن حواس الإنسان وبالتالي له صور ومظاهر مختلفة فقد تكون أحداثًا ماضية لا سبيل للوصول إليها ومعرفتها وقد تكون أحداثًا مستقبلية لم تحدث بعد، وقد تكون أحداثًا في الوقت الحاضر ولكنها في مكان آخر لا سبيل للوصول إليه، وأوضحها على الإطلاق النبوءات المستقبلية؛ لأنها عدم ولم تحدث بعد وليس هناك أي احتمال لتلقي الرسول خبرًا عنها من أي أحد من البشر.

والإخبار بالغيوب والنبوءات المستقبلية من الأمور التي اختص الله بها الأنبياء لتكون دليلًا على صدقهم ونبوتهم لأنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦].

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تُعَد أمثلةً على الإعجاز الغيبي أذكر منها:

- ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:٢-٣].

وهذه الآيات من مطلع سورة الروم لها قصة يجب أن تُروى حيث أنّها تخبرنا عن هزيمة الفرس للروم ثمّ تتنبّأ بعدها بهزيمة الروم للفرس في بضع سنين من هذه المعركة على الرغم من أنّ جميع المؤشّرات وقتها كانت في صالح الفرس وتشير بشكل قوي إلى انتصارهم؛ ولذلك لما نزلت الآيات تربص كفار قريش ينتظرون وقوعها؛ لأنه إذا لم تتحقق النبوءة فهذا يعني ببساطة سقوط الدعوة تمامًا بدون الحاجة إلى خوض حروب ومعارك وبذل الأموال والأنفس لإسقاط الدعوة، حتى إن المشركين طلبوا الرهان على ذلك كنوع من التكتيك الإعلامي ليجذبوا اهتمام الناس أكثر لهذا الحدث بعد نزول الآيات، وبالفعل راهنوا أبا بكر الصديق -وذلك قبل تحريم الرهان-.

باختصار كان المسلمون والمشركون مُنتظرين ومُهتمين بهذه النبوءة لاسيما وأنها يُمكن التحقق منها واختبارها بسهولة لأنها من المفترض أن تحدث في بضع سنين وليست بعد زمن بعيد.

وفي ظل هذه الأجواء تتحقق بالفعل النبوءة بعد حوالي تسع سنين ويهزم الروم الفرس ويفرح المؤمنون بنصر الله ويخذل الله المشركين.

وهنا تتحرك في الذهن بعض الأسئلة:

لماذا يورّط النبي محمد ﷺ نفسه ودعوته بأسرها بهذه النبوءة القريبة المنال بعدما أنفق وضحى من أجل دعوته هذه كل ما مضى من عمره من يوم بعثته وبعدما لاقى ما لاقاه من أذى قومه؟!

ولماذا يتنبّأ النّبي ﷺ بشيء من المُفترض أن يحدث في حياته وقد يكون حينها دليلًا إمّا على صدقه أو كذبه مع العلم أن النبي محمدًا كان أحرص ما يكون على دعوته والحفاظ عليها؟!

وما هذه الثقة التي يتكلم بها هذا الرجل وكأن ستار الغيب قد كُشف له، وتُرى ما هو مصدر هذه الثقة؟!

ثم لماذا يُؤيد اللهُ رجلًا (يتهمه البعض بالكذب على الله) كل هذا التأييد الاستثنائي؟!

كما أن لازم قول المكذبين بالنبي هو أن الله يخلّط على الناس الحق والباطل وأدلة الصدق والكذب وبالتالي يُلبس عليهم أمر دينَهم!، فكيف يتسق ذلك مع كونه متصفًا اتصافًا ضروريًا بكمال الحكمة والعدل؟!

وممّا أعجبني واستوقفني تلك الكلمات للدكتور حسام الدين حامد في حواره مع أحد المتشككين فعندما وصل بهم الحوار إلى هذا المعنى أخذ يطرح عليه بعض الأسئلة قائلًا:

"ثم أريدك أن تتخلى عن كذبك في أفضل الظروف للكذب، وتتكلم أحوج ما يلزم كذاب السكوت!

إن سألك قومك عن موعد الساعة؛ فقل: لا أدري، وقل: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾!

إن سألك قومك عن موعد هزيمة الروم للفرس، فقل: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾!

ولا عليك إن مرت السنون ولم يحدث ما قلت، فكل ما سيحدث أن ينكشف كذبك، وينقلب عليك صحبك، ويسكت بك عدوك، ويهجرك أهلك، وعلى اختلاف تصرفاتهم فسيجمعون على وجوب قتلك..

لا عليك! وماذا إن قتلوك؟! بسيطة هي!! بسيطة على كذاب!!"[1].

وفي الحقيقة هذا الأمر واضح لدى عقلاء البشر جميعًا لأنه إن كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذابًا أو كاهنًا لكان أولى به أن يجيب على سؤال: (متى الساعة) عندما سُئل عنه!

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]؛ فالتنبؤ بشيء سيحدث بعد وفاته أكثر أمانًا له من التنبؤ بشيء من المُنتظَر له

(١) كتاب لا أعلم هويتي للدكتور حسام الدين حامد (ص ٥٦، ٥٧)- مركز تفكر للبحوث والدراسات.

أن يحدث في حياته بل في بضع سنين مثل (هزيمة الروم للفرس)!

- قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:١-٥].

وهذه نبوءة أخرى جاءت في القرآن وأخبر بها النبي محمد قومه، وهي أن عمه أبا لهب سوف يظل على الكفر إلى أن يموت ولن يدخل في الإسلام أبدًا مع العلم أن أبا لهب قد عاش بعد هذه الآية فترة طويلة تقدر بالسنين!

لم يستطع أبو لهب طوال تلك الفترة الدخول في الإسلام! فإنه لو تظاهر فقط بالدخول فيه واتباع النبي محمد لكان ذلك سببًا كافيًا لإسقاط الدعوة المحمدية حيث يكون وقتها قد أثبت أمام الناس جميعًا كذب القرآن، ولكنه لم يستطع فعل ذلك!

ويأتي السؤال هنا أيضًا لمن يتهم الرسول الكريم بالكذب: لماذا يجازف النبي بنفسه وبدعوته الذي عاش عليها وتعب من أجلها في مقابل الحديث والتنبؤ عن أمر من الوارد جدًّا أن يحدث خلافه (إن لم يكن نبيًّا) ؟!

وما هذه الثقة التي يتكلم بها ذلك النبي؟!

ولماذا يؤيده الله الحكيم العليم كل هذا التأييد (إن كان يكذب عليه) وخصوصًا التأييد بالحُجة؟!

وهل معنى ذلك أن الله يريد أن يُلبس على الناس حال الصادق والكاذب فلا يستطيعون التمييز بينهما؟!

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

هذه الآية نبوءة عن فتح مكة (على أحد القولين)[1] ووعدٌ من الله للنبي بذلك،

---

(١) القول الثاني أن المعاد هو يوم القيامة.

وقد حَدَثَ بالفعل، وفتح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في العام الثامن الهجري.

- قول الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

هذه نبوءة بدخول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة المسجدَ الحرام مُعتمرين، وحدث ذلك بالفعل كما أخبر القرآن في العام التالي لصلح الحديبية[(١)].

- قول الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥].

وهذه نبوءة أخرى حيث أخبر القرآن عن انتصار المسلمين في غزوة بدر.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناجي ربه ليلة غزوة بدرٍ قائلًا: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»[(٢)].

---

(١) خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصحابته عامَ الحديبية قاصدين بيت الله الحرام لأداء العمرة لكن صدتهم قريش وتم إبرام الصلح مع المشركين على أن يرجع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة إلى المدينة ويعود في العام المقبل معتمرًا؛ وشقَّ على الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أن يُصَدُّوا عن البيت بعد إذ أحرموا حتى قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأتيت نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألستَ نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى**»، قلتُ: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري**»، قلت: أوليس كنتَ تحدثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟**»، قال: قلت: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**». [رواه البخاري(٢٧٣١)].

وبالفعل دخل النبي وصحابته البيت الحرام في العام التالي لصلح الحديبية معتمرين.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١٧٦٣) عن عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر نظر رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبلةَ، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] فأمده الله بالملائكة.

وهذه الأدلة التي ذكرتُها كلها من القرآن، والقرآن قطعي في ثبوته وأيضًا هذه النبوءات قطعية في دلالتها.

لذلك أكرر أن الإعجاز الغيبي والنبوءات المستقبلية في القرآن هي من الأدلة الدامغة على صدق الإسلام، والتي لا تقبل شكًّا لأنها ليست نسبية انطباعية تقديرية ولكنها حقيقة موضوعية.

أيضًا من صور الإعجاز الغيبي في القرآن ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة مع العلم أنها لم تكن معروفة عند العرب ولم يتعلمها الرسول من أحد لأن ذلك التعلم والحفظ لهذه التفاصيل يحتاج الوقت الطويل والذي إن حدث لكان القاصي والداني علمه بل وعلم هذا المصدر الذي أخذ منه الرسول هذه المعلومات!

وبمنتهى الثقة يثير القرآن هذه الجزئية وكأنه يقول للمكذبين بمحمد أخرجوا لنا ما عندكم من إثباتٍ بأن النبي إنما أخذ ذلك عن أهل الكتاب فيقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

فهل يشك عاقل بعد هذا أن كفار قريش وهم أحرص ما كانوا على إبطال دعوة النبي محمد يسمعون هذه الآيات وعندهم الدليل على أن محمدًا (الذي عاش عمره كله قبل الهجرة معهم في قريش) يتردد على أحدٍ من الناس يأخذ منه قصص الأقوام والأنبياء السابقين ثم لا يُعلنون ذلك للناس جميعًا؟!

أضف إلى ذلك أن القرآن استثارهم بهذه الآية.. ولم يتكلموا!

الأعجب من كل ذلك أن القرآن يتكلم ليس فقط عن قصص السابقين بل ويُصحح كل ما فيها من تناقضات وأخطاء تُخالف صريح العقل والفطرة.. وهذا باب واسع سنتكلم عنه في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

والأمثلة كثيرةٌ أيضًا من صحيح السُنّة النّبويّة على الإعجاز الغيبي وتحقّق وقوع بعض النّبوءات التي أخبر عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم انخرام أيٍ منها، ومن هذه الأمثلة ما يلي:

- إخبار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن وقوع التمكين والنصر له وهو لا يزال في فترة الاستضعاف في مكة حيث كان الواحد من الصحابة لا يستطيع أصلًا أن يجهر حتّى بإسلامه![1]

وكما أخبر بالنصر والتمكين يوم الخندقِ والأحزابُ مجتمعون حوله والمسلمون مُحاصَرون في المدينة وانقطعت كل الأسباب المادية.

والطبيعي أن غاية ما يشغل فكر الإنسان في هذا الموقف هو كيف أنجو بنفسي ومن معي؟!

ولكن الحسابات مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأخذ شكلًا آخر، فتجده في هذا الموقف العصيب -الذي قد يظنّ فيه بعض ضعاف النّفوس أنّ فيه نهاية المسلمين وإبادتهم عن بكرة أبيهم- يحفر الصخرة بمعوله مُبشّرًا صحابته بحدوث النصر والتمكين فيقول بكل ثقةٍ: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام! ووالله إني لأبصر قصورها الحُمر**»، ثم يقول: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، ووالله إني لأبصر المدائن**»، ثم يقول: «**الله أكبر، أُعطيت مفاتيح اليمن، ووالله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»[2].

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٣٦١٢) عن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٨٦٩٤) عن البراء بن عازب قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفر الخندق، وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، =

- إخبار النّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عُمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأنّهما سيموتان شهيدان وقد حدث ما أخبر عنه؛ فكما جاء في صحيح البخاري أن النبي صعد جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فاضطرب بهم الجبل، فقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اثْبُتْ أُحُدُ فإنما عليك نبي، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ**»[1].

وبالفعل مات عمر شهيدًا وعثمان شهيدًا، ومات الرسول والصديق على فراشهما دون قتل.

- إخبار النّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن عثمان بن عفان سيتعرّض إلى ابتلاءٍ شديد قبل وفاته وأنّه سيموت على حُسن خاتمة أثناء ذلك الابتلاء؛ فقد جاء في الصحيحين أنّ النّبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَشَّرَ عثمانَ بن عفان بالجنة على بلوى تصيبه[2].

وقد كان بالفعل ما كان من خروج فرقة ضالة من المسلمين عُرفت في التاريخ الإسلامي بالخوارج على عثمان وهو خليفة المسلمين ثمّ حصارهم له وقتله وهو يقرأ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

- إخبار النّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنّ عمّار بن ياسر سيُقتل على يد الفئة الباغية؛ فقد جاء في الصحيحين وقال عنه السيوطي حديث متواتر أنّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال عن عمار بن ياسر: «**تقتله الفئة الباغية**»[3].

= فجاء رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فوضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول فقال: «**بسم الله**» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا**»، ثم قال: «**بسم الله**» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا**» ثم قال: «**بسم الله**» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**».

(١) رواه البخاري (٣٦٧٥).

(٢) رواه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧)، ومسلم (٢٩١٦).

وبالفعل قد حدث قتال بين طائفتين من المسلمين وكلاهما مجتهد في فعله فأحدهما أصاب الحق وهي طائفة علي بن أبي طالب، والأخرى جانبها الصواب وهي طائفة معاوية والتي عُرفت بالفئة الباغية كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩].

وقد تم بالفعل قتل عمّار على يد جيش الفئة الباغية[١] بقيادة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تمامًا كما أخبر النّبي.

- إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته بوفاة النّجاشي في نفس اليوم الذي مات فيه وصلوا عليه صلاة الغائب؛ فعلى الرغم من طول المسافة بين مكة والحبشة والتي يحتاج الراكب لقطعها مسيرة الأيام والليالي الطوال[٢] إلّا أنّ النّبي قد أخبر صحابته بوفاة النّجاشي في نفس يومه الذي مات فيه ثمّ جاءت الأخبار بعد ذلك لتؤكد ذلك الخبر.
- إخبار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهلاك كسرى وقيصر؛ فقد جاء في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، ولتُقسمن كنوزهما في سبيل الله**»[٣].

---

(١) وقد يظنّ البعض خطأً أن كلمة الفئة الباغية تعنى الكافرة أو المُنافقة أو ما شابه ولكن هذا غير صحيح، فالفئة الباغية هي مصطلح شرعي يُقصد به الفئة التي اجتهدت اجتهادًا خاطئًا نتيجة تأويلٍ ما عندها وقد أفضى ذلك التاويل إلى وقوع قتالٍ بينها وبين جماعة المسلمين الذين هم على الإجتهاد والتأويل الصحيح، ولذلك الله عَزَّوَجَلَّ لم ينفْ عنهم صفة الإيمان حتّى بعد تأويلهم الخاطئ وما انبنى عليه من قتال الفئة ذات الاجتهاد الصحيح فقد قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

(٢) أخرجه مسلم (٩٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج بهم إلى المصلى، وكبر أربع تكبيرات».

(٣) رواه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨).

- إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحابته بأنّهم سيفتحون بعض البلاد سواءً في حياته أو بعد مماته؛ ومثال ذلك إخباره عن فتح مصر حين قال: «**إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لكم فيها ذمة ورحمًا**»(1)، وقد حدث ذلك بعد وفاته في عهد الخليفة عُمر الفاروق حيث فُتحت مصر على يد الصحابي عمرو بن العاص، ومثالٌ آخر على ذلك أيضًا تبشيره للمسلمين يوم الخندق بفتح الشام وفارس واليمن(2)، وقد حدث ذلك وأكرم الله تلك البلدان بدخول الإسلام فيها.
- إخبار النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنّ الحسن بن علي سيكون سببًا في إقامة الصُلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين(3)؛ فقد روى البخاري في صحيحه أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين**»، وقد كان بالفعل كما أخبر النّبي حين تولّى الحسن بن علي خلافة المسلمين بعد مقتل أبيه علي بن أبي طالب ولكنّه تنازل عنها بعد ستة أشهرٍ فقط لمعاوية بن أبي سفيان وذلك حقنًا لدماء المسلمين ولَمًّا لشمل الأمة وحِفاظًا على وحدتها ولذلك أطلق المُسلمون على ذلك العام عام الجماعة.

وهكذا كما ترى معي عزيزي القارئ فإنّ تضافُر الأمثلة بهذا الشكل من آي القرآن وأحاديث السُّنّة النّبويّة على إخبار النّبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض الأمور الغيبيّة والأحداث المُستقبليّة والتي حدثت جميعها دون انخرامٍ لا يَدَعْ أي مجال للمُصادفة ولا لتفسيرٍ آخر إلّا أنّ الله عَزَّ وَجَلَّ قد أطلعه عليها ممّا يؤكّد أنّه نبيٌّ مؤيدٌ من قِبلِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن:٢٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٣).

(٢) رواه أحمد في مُسنده (١٨٦٩٤).

(٣) رواه البخاري (٢٧٠٤).

وأختمُ بتلك الكلمات النفيسة للرافعي الأديب بعدما ذكر قصة إلقاء الكفار التراب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمّا سبَّبَ بكاء ابنته فاطمة لذلك المشهد، فقال لها النبي: «**أي بنية لا تبكين، فإن الله مانع أباك**»[1].

يقول الرافعي معقبًا على ذلك المشهد ونردد معه نحن أيضًا تلك الكلمات مُعقّبين على مشاهد الإعجاز الغيبي التي ذكرناها:

"لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبي وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يُوجد هذا التاريخ في الدنيا، فكلمته هي الإيمان والثقة إذ يتكلم عن موجود"[2].

(١) رواه الذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٦١٣) عن عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سفيه من قريش، فألقى عليه ترابًا، فرجع إلى بيته، فأتت بنته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول: «**أي بنية لا تبكين، فإن الله مانع أباك**»، وقال الذهبي: غريب مرسل.

(٢) انظر: (وحي القلم) للرافعي (ص ٤٠٥) - مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

يشتمل القرآن على موقف فكري ومنهجي من كل الأفكار والأطروحات والفلسفات، كما يحتوي أيضًا على منظومة تشريعية متكاملة في مجالات الحياة المختلفة من خلال أحكام وتشريعات لا تصلح حياة البشر صلاحًا حقيقيًّا متسقًا مع الطبيعة البشرية والإنسانية إلا بها.

نجد القرآن من خلال منظومته التشريعية يُفصِّل فيما يحتاج فيه البشر إلى تفصيل، ويُجمل فيما لا حاجة فيه إلى التفصيل أو فيما قد فتح الله فيه المجال للاجتهاد والإبداع البشري وفق متغيرات البيئة ومعطيات الزمان والمكان.

القرآن من خلال منظومته التشريعية يضع لنا منهجًا متكاملًا في العقيدة والتصور عن الإله وصفاته والملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والقدر، وفي العبادة وكيفيتها وشروطها من طهارة وصلاة وصيام وحج، وفي المعاملات التي لا غنى عنها بين الناس في أمور البيع والشراء والإجارة والشركة والمواريث والنكاح والطلاق وغيرها، وفي العقوبات وكيفية الفصل بين الناس في النزاعات عن طريق التعزيرات والحدود والقصاص وسائر الأحكام الجنائية.

وقد أحسن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عرض محاسن الشريعة الإسلاميّة وبيان كيف أنّها كانت سببًا رئيسًا لدخولهم في هذا الدين وفي تغيير أحوالهم ونمط معيشتهم ونظرتهم للحياة ككل لِما عاينوه بأنفسهم من حُسنها وتكاملها، ولذلك قال جعفر للنجاشي ملك الحبشة عندما سأله عن الإسلام: «**أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛**

فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به.....»[1].

يضع القرآن لنا أيضًا منهجًا في شؤون السياسة والحكم وعلاقة الدولة بالمجتمع وعلاقة الدولة بالدول الأخرى وأحكام الحرب والسلم والمعاهدات والمواثيق وغيرها، وفي قضايا المجتمع وشؤونه وآليات لإصلاح الخلل المجتمعي عند حدوثه مثل الحسبة وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي هو حق من حقوق المجتمع المسلم وأيضًا واجب من واجباته.

ولك أن تتخيل معي هذا الكم الهائل من العلوم والمعارف التي يجب أن يكتسبها ويتعلمها من يتكلم في موضوع واحد فقط من هذه المواضيع الإنسانية والاجتماعية.

لكي ندرك مدى هذا الكم الهائل من هذه العلوم والأحكام والتشريعات المُستفادة والمُستخرجة من المنظومة التشريعية من القرآن علينا أن ننظر فقط إلى الكتب الشرعية الفقهية والعقدية وغيرها التي صُنفت خلال تاريخ المسلمين في أربعة عشر قرنًا كاملة؛ والتي هدفها فقط استخراج الأحكام والأصول والعقائد والتشريعات من القرآن الكريم والسنة الصحيحة!

تخيل معي أن الذي وضع هذا الكم الهائل من هذه العلوم والمعارف في كافة التخصصات والتي تحتاج (من أجل إعدادها) عددًا كبيرًا من الأكاديميين ومراكز الأبحاث

(١) رواه أحمد (١٧٤٠)، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ١٨٠): إسناده صحيح، وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ٥٧٨).

في كل مجال من هذه المجالات هو شخص واحد فقط!

يتحدث القاضي عياض واصفًا ذلك الوجه من الإعجاز القرآني فيقول:

«ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، و﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم، والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم. قال الله جل اسمه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، و﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، و﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]»(١).

والعجيب أن هذا الشخص الذي خرج منه كل ذلك هو شخص أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس معه أي فريق من المتخصصين والباحثين ليستشيرهم أو يستعين بهم أو يرجع إليهم، كما أنه كان في مجتمع يُعرف في التاريخ البشري بأنه مجتمع جاهلي، ليس له أي نصيب من علوم أو معارف أو فنون سوى اللغة فقط والحروب وما يتعلق بها من صناعات بسيطة تقوم على خدمتها!

والسؤال هنا أيضًا: إذا كان الرسول ﷺ أميًّا ولم يستعن بأحد -ولو أراد أصلًا أن يستعين بأحد لما وجد من يستفيد منه في ظل ذلك المجتمع الجاهلي- إذن من هو

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/ ٣٤٠، ٣٤١) - طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم وحدة البحوث والدراسات.

مصدر هذه المعارف والعلوم والأحكام والتشريعات في كافة المجالات والتي صُنفت آلاف آلاف الكتب فقط لاستخراج ما بها من علوم ومعارف وأحكام؟!

ليس هناك إجابة إلا أنها من مصدر خارج عن النبي؛ مصدر حكيم عليم بالخلق جيدًا وبما يصلحهم، مصدر كاشف للزمان والمكان؛ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

إنّ قضية الشريعة للأسف من القضايا التي تعرضت إلى تشويه كبير ومُتعمّد كان قد بدأ في الغرب مع ظهور الاستشراق في عصر ما بعد الاستعمار ثم أخذ يردد هذه الشبهات أذنابُهم والمتأثرون بهم من العرب والمسلمون.

وقد استخدم الغرب أجهزة إعلامه المُختلفة من أجل التشويه المُستمر والمُتعمَّد لمصطلحات إسلاميّة شريفة كالشريعة والجهاد والخلافة والحدود وغيرها حتّى أنتج تلك الحالة العامّة من الخوف من الإسلام وشعائره والتي تُعرف بالإسلاموفوبيا فتجد -على سبيل المثال- القنوات الإخبارية العالمية؛ مثل: سكاي نيوز Sky News، وفوكس نيوز Fox News وغيرها، دائمًا ما تقوم بتغطية أخبار المسلمين أو الموضوعات المُتعلّقة بالإسلام في إطار سلبي!

وهذا التشويه الإعلامي للشريعة الإسلامية ليس بسبب وجود خللٍ فيها، ولكنّ السبب وراء ذلك هو إمّا حمل البعض لأجنداتٍ سياسية معينة ومصالح نفعية تجعل من مصلحتهم تشويه الشريعة وما يتعلق بها من أحكام وتشريعات خاصة تلك التي تُصادم أفكار الحداثة الغربية مُصادمةً لا تقبل النقاش، أو أنّ السبب هو جهلهم بالشريعة(١)

---

(١) والجهلُ بالشريعة أحيانًا يكون جهلًا بالتنزيل بمعنى أنّ الشبهة قد تكون برمّتها مبنيّة على حديثٍ ليس له أصل أو ضعيفٍ أو موضوع، أو قد تكون الشبهة مبنيّة على شهرتها وانتشارها فقط وليس عليها في المُقابل أي دليلٍ شرعيٍ صحيح، ومثالُ ذلك ما يظنّه البعض من شعوب العالم وخصوصًا شعوب الشرق الأقصى مِن أنّ المسلمين يعبدون بيتًا ويسجدون لحجرٍ كما يظهر أمام العالم أجمع في مناسك الحج كل عام!، =

ومقاصدها والمفهوم الواسع والشامل لها خاصة من الناحية العلمية والنظرية، أو بسبب عدم قدرتهم على التحليل والتفريق بين الأصل النظري والممارسة التي ترفع شعار النظرية خصوصًا مع ظهور وانتشار أقوام يرفعون كثيرًا اسم الشريعة والجهاد والخلافة ولكنّهم في الممارسة للأسف أبعد ما يكونون عنها وعن مقاصدها بل ومخالفين لظاهرها وصريح نصوصها مثل ما نراه اليوم من جماعات التكفير والقتل أمثال داعش وغيرها، وهذا قطعًا لا يصح أن يكون مبررًا لهم للطعن في الأصل النظري والبناء الفكري.

هؤلاء الذين يُشوّهون الشريعة ويطعنون فيها دائمًا ما ينظرون إليها نظرةً شديدة الضيق فتجدهم يختزلونها في بعض التشريعات الضيّقة التي تخالف بعض أفكار المنظومة الحداثية الغربية كالحدود مثلًا والتي لا تُمثّل في الحقيقة سوى جزء من قانون العقوبات في الشريعة التي تشمل كما ذكرنا من قبل جميع مناحي الحياة من عقائد وعبادات ومعاملات واقتصاد وسياسة وقانون واجتماع وغيرها.

= فأولئك يجهلون أبسط بدهيات الإسلام وأن السجود يكون لله وليس للبيت أو الحجر كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش:٣]، فالمسألة إذن برمتها مسألة مناسك وعبودية وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ ولا علاقة لها بحجرٍ لا يضرّ ولا ينفع كما وصف الحجرَ الأسودَ بذلك عمرُ الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد يكون الجهل بالشريعة جهلًا بالتأويل، بمعنى أنه قد يكون ناتجًا عن فهمٍ خاطئٍ لنصٍّ شرعيٍّ ثابت مثل الشبهة المُنتشرة من أنّ رسول الله قد قال: «**أُمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**»، وبالتالي فإنّ الإسلام يدعو لقتل الناس جميعًا، وهذا قطعًا فهمٌ خاطئٌ للحديث وجهلٌ بسياقه الذي نزل فيه؛ فهذا الحديث إما أنه خاص بمشركي مكة ويدل عليه رواية: «أقاتل المشركين» بخلاف أهل الكتاب فقد ورد في حقهم أحاديث التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال أو أنه على عمومه وخص منه ما ورد في أحاديث النهي عن قتال من لم يكن من أهل المقاتلة والممانعة كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى والرهبان والأجراء، وكلمة النّاس في اللغة العربية تحتمل التخصيص كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] وغيرها من الأدلة الكثيرة، كما أنّ الواقع التاريخي ذاته قد أكّد أن النّبي عندما فتح مكة لم يقتل أهلها ولم يُلاحقهم بل عفا وصفح إلّا بعض الذين اختصّهم الله بخلاف ذلك، ولو كان الحديث المُشار إليه بالشبهة يعني قتل الناس جميعًا لقاتل رسول الله المسلمين والمنافقين ولقاتل أهل الكتاب دون تخييرهم بين الإسلام والجزية والقتال وهذا ممتنع.

لا يستقيم الحديث عن الشبهات التشريعية دون الحديث عن أصل المشكلة وهو ما يُعرف بسلطة الثقافة السائدة، حيث إنّنا نجد أنّه في كل زمن توجد ثقافة سائدة والتي غالبًا ما تكون هي ثقافة الأمّة المُنتصرة والقويّة عسكريًّا واقتصاديًّا فتتأثّر الثقافات الأخرى للأمم المهزومة بثقافة وحضارة وعادات وتقاليد وأعراف تلك الثقافة السائدة للأمة القويّة المنتصرة.

يقول ابن خلدون في مقدمته:

«إنّ المغلوب مُولَع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونِحلَته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبّهت به وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه-والله أعلم- من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله»[1].

والثقافة السائدة في هذه الفترة الزمنية التي نحياها هي بالطبع الثقافة الغربية وأفكار الحداثة بما تحمله من منظومة فكرية مُتّصلة بحزمة من الشعارات (غالبًا ما تكون جوفاء غير مؤسَّسٍ لها) مثل الحريات بأنواعها، وحقوق الإنسان عامةً والمرأة خاصةً، والمساواة والديمقراطية وحق الأمم في تقرير مصائرها والنزعة المادية والعلموية وغيرها.

وتزداد سطوة الثقافة الغربية وانتشارها وتسلّطها في ذلك العصر تحديدًا لأنه عصر العولمة والتكنولوجيا ووسائل الاتصال والانفتاح الثقافي والمعرفي، وبذلك وجدت هذه

(١) مقدمة ابن خلدون (الجزء ١ الفصل ٢٣).

الأفكار الغربية أقصر الطرق كي تسود وتنتشر وتُهيمن على أفكار الناس بل وتُشكل الوعي البشري الجمعي خاصة عند من لا يمتلك من القوة الاعتقادية الصلبة والهُوية الثقافية ما يستطيع به رد ما يخالفها.

والواقع أن المسلمين في تعاملهم وتعاطيهم مع النصوص الشرعية في ظل سلطة الثقافة الغربية السائدة قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: وهم من قاموا بعرض هذه الأفكار الغربية على المُكوّن العقدي والفكري الذي ثبت لهم بالدليل صدقه وصحته، فقاموا بفهم هذه الأفكار الدخيلة وتحليلها جيدًا ثم رفضوا ما كان منها مُخالِفًا للبيّنات وقبلوا ما كان منها موافقًا لصريح العقل وصحيح الدين، واجتهدوا فيما كان بين هذا وذاك مما لا يُصادم ولا يُوافق نصًا صريحًا ولكن وِفق ضوابط الاجتهاد المتفق عليها فلا يكون الترجيح حينها تحت ضغط وسلطة الثقافة السائدة.

القسم الثاني: وهم الذين شعروا بالانهزام التامّ أمام سلطة الثقافة الغربية فآمنوا بها وبحاكمية الذوق الغربي في مقابل حاكمية الله تعالى، فكانت المُحصلة أن قاموا برفض وإنكار صريح النصوص الدينية من آيات وأحاديث وتشريعات ثابتة مستقرة بسهولة شديدة فقط لأنّها تخالف الأفكار الغربية السائدة؛ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

القسم الثالث: وهم قد وقعوا حقيقةً في نوعٍ من الانهزامية أيضًا ولكنها انهزامية مُقنّعة مُستترة تتجلّى وتظهر في التأثر الشديد بالأفكار الغربية وفي الاعتقاد المُسبَق بحاكمية الذوق الغربي ولكن مع وجود بقية إيمان ودين منعتهم من ردّ ورفض صريح النصوص الشرعية فلجؤوا إلى تأويل تلك النصوص الشرعية حتى تكون مُتّسقة ومُتوافقة مع الأفكار الغربية.

إذن: (سلطة الثقافة الغالبة) قد أفضت بهم إلى **(التأويل الحداثي للتراث)**[1].

- مثال للتوضيح:

حد الردة وهو يُعتبر من أكثر التشريعات الإسلاميّة التي تُثار حولها الشبهات والنقد إن لم يكن أكثرها على الإطلاق، وهو أيضًا من أكثر التشريعات التي تُصادم أفكار الحريّة بالمفهوم الحداثي الغربي، ولذلك فهو مثالٌ جيد يُوضّح لنا مدى تأثّر المسلمين بأفكار الحداثة وبسلطة الثقافة السائدة.

في البداية لا بد أن نعلم أولًا أنّ تشريع حدّ الردة قد قامت على صحته الأدلة الشرعيّة المُعتبرة، فقد وردت الأحاديث الصحيحة على وجوب قتل المُرتدّ بعد استيفاء الشروط اللازمة لذلك.

وقد أجمع المسلمون طيلة التاريخ الإسلامي كله على وجوب قتل المُرتدّ، كما أنّه لا يُذكر أنّ هناك أي شبهاتٍ أو انتقاداتٍ قد أُثيرت ضد ذلك التشريع من أي أمّةٍ من أمم العرب أو العجم، فأين إذن المشكلة؟!

بدأت المشكلة مع تبلور وانتشار أفكار الحداثة الغربية بأبعادها وشعاراتها وخصوصًا شعار الحرّية وكان ذلك تقريبًا في القرن التاسع عشر حيث أخذ كتّاب الغرب ومُفكّريه يدرسون الإسلام فظهرت طائفة كبيرة من المُستشرقين والذين بدأوا في إثارة الشبهات عن الإسلام إمّا بسوء نية وتعمّد تشويه الإسلام لإدراكهم المُسبق مدى أهمّيته في بث روح العزّة والجهاد في سبيل الله لدى المُسلمين أو من أجل طرح الأسئلة لفهم ثقافة الشرق وأديانه، وبغض النظر عن الدافع وراء ذلك فقد أخذ مجموعة من كُتّاب المُسلمين -المُنهزمين أمام سطوة ثقافة الغرب- شبهات المُستشرقين ونقلوها كما هي في كتاباتهم

(١) وبالمناسبة هذان الاسمان هما لكتابين هامّين للكاتب إبراهيم السكران.

ومقالاتهم التي هاجموا فيها الإسلام تحت مُسمّيات نقد التراث وتجديد الخطاب الديني وغيره، وبذلك صار موقف المسلمين تجاه حد الردّة إما الإقرار بشرعيّته والخضوع لأمر الله تعالى وإعلاء حاكميته فوق أي أهواء، أو الرفض التّام لذلك التشريع على اعتبار أنّه يُصادم أفكار وتصورات العصر الحديث ومنها الحرية الفردية في كل شيء، وكان الموقف الثالث هو التأويل لذلك التشريع بما يتّسق مع الأفكار الحداثية من جهة وبما لا يكونون به من الرافضين للحاكميّة الإلهيّة من جهة أخرى، فنجد مثلًا بعضهم يقول: إن الردّة المقصود بها خيانة الأمة أو الدولة أو ما يُعرف في قوانين الدول بالخيانة العُظمى، ويقول آخرون: إنّ حدّ الردّة يُشترط لتنفيذه أن يكون الشخص خارجًا عن جماعة المسلمين وليس فقط مجرد الكفر بعد الإيمان وغيرها من التأويلات الحداثيّة.

وبذلك يكون تشريع حدّ الردّة كما قُلت قد أجمع عليه المُسلمون طوال ما يقرب من اثنى عشر قرنًا من الزمان دون أي خلافٍ أو إشكالٍ في ذلك إلّا في آخر قرنٍ أو قرنينٍ من الآن حيث انتشار أفكار الحداثة، وبهذا المثال يتّضح لنا أنّ المشكلة الحقيقية ليست في تشريع حدّ الرّدّة من الناحية الموضوعية وإنّما الإشكال هو سطوة الثقافة السائدة وحاكميّتها وتشكيلها للعقل الجمعي البشري.

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن الشريعة ومدى حاجتنا إليها ونقول: إنّ حاجة البشرية إلى تشريع وقانون من مصدر ثابت مطلق ومن مرجعية متجاوزة هي حاجة ضرورية لا تصلح حياة الناس إلا بها حتى لا تقع البشرية في النسبية والسيولة وبالتالي يفقد القانون أهم شروطه وصلاحياته وهو أن يكون ثابتًا مطلقًا ليكون مُلزِمًا للجميع.

وقد فهم جون لوك وهو أحد أهم مُنظري الليبرالية ذلك المعنى الخطير حين عبر عنه قائلًا:

"وأخيرًا لا يُمكن التسامح على الإطلاق مع الذين يُنكرون وجود الله، فالوعد والعهد والقسم

من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة إلى الملحد، فإنكار الله -حتى لو كان بالفكر فقط- يفكك جميع الأشياء"[1].

ولذا نجد أن المجتمعات العلمانية واللادينية عندما تضع قوانينها لإدارة شؤون الدولة والمجتمع والأفراد والتي من المفترض أن تكون ثابتة مُلزمة للجميع هي بذلك تخالف علمانيتها التي من أهم لوازمها النسبية والسيولة.

وإذا قلنا إنّ القوانين لا بد وأن تكون ثابتة لكي تكون مُلزمة ونافذة، فهنا يأتي ذلك السؤال الهام:

من إذن من البشر يملك الحق في وضع هذه القوانين المطلقة والغير نسبية حتى تحقق شرطها الرئيس؟!

هنا يجيب الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط عن هذا السؤال في كتابه (التاريخ العام) ويقول:

"الإنسان حيوان يحتاج إلى سيد وهو يعيش بين بني نوعه، لأنه بلا شك سيسيئ استخدام حريته فيما يتصل بأقرانه، لذلك لا بد من وضع قانون يضع لحريته قيودًا وحدودًا، لأن ميوله الحيوانية تقوده إلى حيث يجب ألا يذهب ولذلك لا بد من سيد يجبره على طاعة إرادة يعترف بها الجميع وهي القانون"[2].

ثم يسأل كانط:

"لكن كيف نحصل على هذا السيد؟!
إنه لا يمكن أن يكون إلا من بني الإنسان، ولكن هذا أيضًا بدوره سيكون حيوانًا وبالتالي في حاجة إلى سيد.

(١) رسالة في التسامح لجون لوك (ص٥٧)- المجلس الأعلى للثقافة.
(٢) كتاب (التاريخ العام) للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط. ترجمة: عبد الرحمن بدوي (ص١٦٢، ١٦٣).

وبالتالي لا سبيل إلى معرفة كيف يستطيع الإنسان أن يُقرّ بسيد أعلى للعدالة العامة يكون عادلًا لوجه العدالة نفسها".

ثم يقول كانط في النهاية:

"إن ذلك مستحيل؛ فمن هذ الخشب المعوج (يقصد الإنسان) لا يمكن أن نصنع شيئًا مستقيمًا؛ فمتى يستقيم الظل والعود أعوج؟!".

وهنا أجاد إيمانويل كانط في تحليل المشكلة وعرضها؛ وهو أن القانون لا بد أن يكون من مصدر مطلق ثابت متجاوز كامل العدالة، ولذا لا يمكن أن يكون مصدره بشري نسبي ناقص.

وأُكْمِلُ ما لم يكمله كانط أن هذا المصدر ليس إلا القرآن الذي أنزله علينا السيد الذي يبحث عنه كانط.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السيد الله**»[1].. أي الذي له حق السيادة والتشريع.

بالفعل إذا لم يكن هناك عالم آخر تستمد منه الأخلاق قيمتها فهي حينئذ لغوٌ فارغٌ.

فوجود الله خالق الكون والبشر مطلق الحكمة والعدل هو في ذاته دليل على ضرورة وجود مصدر مطلق ثابت من هذا الإله.. ولا يصح أن يُطلق هذا الوصف إلا على القرآن من بين سائر الكتب التي تدعي نسبتها للإله السيد.. وهذا سيتضح لنا جليًّا عند الكلام عن مقارنة الأديان في الباب الثالث.

والحقيقة أن الدول القومية الحديثة في صورتها المركزية (والتي غالبًا ما تكون علمانية) عندما عجزت عن الوصول إلى مرجعية مطلقة ومصدر ثابت للقانون والتشريع، ادعت لنفسها الحق لتخليق تلك المرجعية المطلقة!

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٨)، وصححه الألباني.

فأصبحت الدول المركزية الحديثة كالإله هي مصدر كل القيم والتشريعات المطلقة.

وكما تحدث الفيلسوف الألماني كارل شميت في كتابه اللاهوت السياسي عن فكرته بخصوص الدولة القومية الحديثة وأخذها كل مفاهيم اللاهوت التي كانت تدّعيها الكنيسة لنفسها وإعطائها إلى الدولة، حيث يقول:

"إن مفاهيم النظرية الحديثة للدولة كلها ذات الدلالة هي مفاهيم لاهوتية مُعلمنة، وذلك ليس فحسب بسبب تطورها التاريخي حيث نُقلت المفاهيم من اللاهوت إلى نظرية الدولة فيصبح مثلًا الله القادر على كل شئ، المُشرّع القدير، ولكن أيضًا بسبب بنيتها المنهجية التى يجب معرفتها من أجل الإعتبار السوسيولوجي لهذه المفاهيم"[1].

وبذلك يحاول شميت إثبات العلاقة الوثيقة بين علم اللاهوت وعلم التشريع، حيث إن النظرية السياسية تخاطب الدولة بنفس الطريقة التي تخاطب بها الكنيسة الإله!، فلا تجد تلك النماذج المعرفية العلمانية (كنموذج الدولة الحديثة هنا) في النهاية سبيلًا إلّا سرقة بعض القداسة من الوحي وانتحال بعض التشريعات المطلقة من الدين مع إعطائها مصطلحات جديدة علمانية كي تبدو مُتسقة مع النموذج المعرفي الجديد أو ذلك البارادايم المحتال..

وبذلك تكون الدولة قد أصبحت بديلًا عن الإله!

وأصبح القانون الوضعي بديلًا عن شرع الإله!

وأصبح العلم شعارًا بديلًا عن الصليب!

وأصبح النشيد الوطني بديلًا عن الترانيم!

وأصبحت مركزية الإنسان بديلًا عن مركزية الإله!

---

(١) اللاهوت السياسي للفيلسوف الألماني كارل شميت (ص٤٩) - ترجمة: رانية الساحلي وياسر الصاروط - طبعة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

وأصبحت المواطنة بديلًا عن الولاء والبراء للدين والمعتقد!

وأصبحت التضحية والموت في سبيل القوميات بديلًا عن الجهاد والشهادة في سبيل الله!

كل ذلك يؤكد فكرة حاجة البشر الضرورية إلى مصدر ثابت مطلق مجاوز للزمان والمكان بل إن حياتهم لا تصلح إلا بذلك حتى وإن تطلّب الأمر أن يخالفوا أو يؤولوا منظوماتهم الفكرية كي يؤسسوا لذلك المصدر تأسيسًا معرفيًّا كما فعل أنصار الدولة القومية الحديثة حين جعلوا الدولة هي المركز الثابت البديل عن الإله.

لذلك اقتضت حكمة الله أن يُنزّل على خلقه كتابًا به أحكام وتشريعات في مختلف المجالات التي يحتاجونها في حياتهم بحيث يُفصّل لهم فيما لا بد فيه من تفصيل، ويوجز ويُجمل فيما لا حاجة فيه إلى التفصيل، ثم يترك مساحة أيضًا واسعة للاجتهاد والإبداع البشري وفق ضوابط وأطر معينة حتى يستطيع الإنسان الانتفاع بما يصل إليه.

وطالما أنّ هذا المصدر أو الكتاب لا بد أنّه موجود -لأن ذلك من لوازم حكمة الله وعدله- إذن فهو القرآن ولا غير، لأن كل الكتب التي تزعم انتسابها لذلك الإله السيد حُرِّفت وبُدِّلت، وهذا سيتضح لنا في الباب الثالث.

إن الشريعة الإسلامية القرآنيّة شريعةٌ واقعية متسقة مع العقل والفطرة وطبيعة النفس البشرية وما يصلحها.

فليست شريعة خيالية غارقة في المثالية (بالمفهوم الفلسفي للمثالية) والتي تخاطب جانبًا واحدًا فقط من الطبيعة البشرية المركبة مثل المسيحية في العهد الجديد، والتي نجد مثلًا في إنجيل متى (٥: ٣٩): {من لَطَمَكْ على خدك الأيمن فَأَدِرْ له خدك الأيسر}.

وليست كالشريعة التوراتية الصارمة التي تخص بني إسرائيل والتي لم يُفتح فيها مجال للعفو في القصاص ففي سفر الخروج (٢١/ ٢٣-٢٥): {وإن حصلت أذيّة تُعطى نفسًا

بنفس، وعينًا بعين، وسنًّا بسن، ويدًا بيد، ورجلًا برجل، وكيًّا بكيّ، وجرحًا بجرح، ورضًّا برضٍّ}.

إن شريعة القرآن التي تتسم بالعالمية والشمولية لم تتأطر فيها التشريعات بقوم بأعيانهم ولم تتحيز في مكان ولم تتزمَّن بوقت؛ لأنها شريعة خاتمة تصلح لكل زمان ومكان فنجد فيها التوازن والواقعية في الجمع بين القصاص وإمكان العفو كما في الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]. ثم فتح المجال للعفو فقال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥].

وأيضًا فيها: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

والسبب في كون هذه الشريعة القرآنية متسقة مع الفطرة والطبيعة البشرية المركبة هو أنها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، القائل عن نفسه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤].

- **قاعدة المُحكم والمُتشابه:**

(قاعدة عامّة سريعة يستطيع المُسلم من خلالها التعامل مع جميع الشُبهات التي تُثار حول الشريعة بطريقة منطقيّة).

انطلاقًا من إيماننا بأن الله مطلق الحكمة؛ فإنّ ذلك يعني أنّ الله تعالى لا يُشّرع شيئًا إلا لحكمة قد نعلمها وقد نجهلها، فجهلُنا بتلك الحكمة لا يعني عدم وجودها، وهناك الكثير من الكتب والمقالات والمواد الصوتية والمرئية تحدّثت عن الحكمة التفصيلية لبعض الأحكام والتشريعات التي يُثار حولها جدل، وهذا بالطِبع ما لا يتسع المجال لذكره في هذا الكتاب.

ولكن ما أود ذكره هنا هو **قاعدة منهجية عامة** أستطيع من خلالها أن أتعامل مع كل الشبهات التي تُلقى على الإسلام بطريقة منطقية متسقة مع الطريقة الفطرية التي يعمل بها العقل، وهذه القاعدة المنهجية هي في الحقيقة قاعدة ربانية مُؤسَّس لها في القرآن في سورة آل عمران وهي: (قاعدة المُحكم والمتشابه)[1].

فإذا نظرنا إلى تلك الشبهات جميعها سواءً كانت في تشريعات أو أحكام أو مواقف من السيرة أو آيات قرآنية وأحاديث فسنجد أنّها من باب المتشابه الظني أي أنها تحتمل وجوهًا كثيرة والحكمة منها محل اجتهاد ونظر.

ما يقـوم به الطاعنون في الإسلام هو أنهم يصرفونها إلى معنى معين بحيث يبدو مصادمًا لأعراف الناس وعاداتهم في الفـترة الراهنة والتي هي متأثرة بطبيعة الحال كما ذكرنا بالحضارة السائدة في العالم وهي أفكار الحداثة الغربية وأطروحاتها خاصة في القضايا

(١) المحكم والمتشابه لهما تعريفات كثيرة تراجع في كتب علوم القرآن ولكن المقصود هنا أنهما كما حكى ابن جرير في تفسيره: «المحكم هو ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه منه: ما احتمل من التأويل أوجهًا». فالمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه وهو نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق والفرق بينهما: أن المطلق استأثر الله بتأويله، والنسبي يخفى على البعض دون الآخر.

الاجتماعية الخاصّة بالحريّات الشخصية وحريّة المرأة وحقوق الإنسان والمواطنة وغيرها، والدليل على ذلك أننا لم نشهد طوال القرون السابقة أي جدل حول تشريعات كالجهاد وحدّ الردة والزواج المُبكّر للمرأة وتعدد الزوجات وأحكام المواريث وغيرها، ولكن بدأ هذا الجدل مع ظهور أفكار الحداثة الغربية وتبلورها وانتشارها.

إنّ التصرف المنطقي للإنسان العاقل الرشيد أنّه إذا كان لديه من الأدلة القطعية المُحكمة على صحة أمرٍ ما فإنّه لن يتركه أبدًا ولن يشك فيه بمجرد وجود أمر ظنّيّ مُتشابه، لكن تصرف مرضى القلوب الذين يبثون الشبهات هو أنّهم يتّبعون المُتشابه بل ويتأولونه تاركين القطعي أو غير مُهتمين به من الأساس فكل ما يعنيهم ويُهمهم هو فتنة المسلمين عن دينهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

فإذا كانت هذه التشريعات والأحكام التي يُثار حولها جدل هي من باب المتشابه الظني، فإنّ المحكم القطعي هو أدلة صدق الإسلام القطعية التي نتحدّث عنها في هذا الكتاب، فإذا ثبت للإنسان بشكل قطعي وبأدلة يقينية مُتضافرة أنّ الإسلام هو دين الله الحق، فلا يُمكنه حينها ترك ذلك الحق القطعي المُحكم لمتشابه ظنّي حتى لو لم يعلم الحكمة التفصيلية منه لأنّ اليقين أبدًا لا يزول بشك.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس:٣٦].

- **متى تكون الشبهة سببًا في نقض الدين والحكم ببطلانه؟!**

قد يقول البعض إنّ هناك شبهات على الإسلام والمسيحية واليهودية، فإذا كان الأمر كذلك فإمّا أن تكون جميع هذه الشبهات سببًا في نقض الأديان ورفضها وإمّا أن تكون غير مؤثرة إطلاقًا بمفهوم الُمحكم والمتشابه وبالتالي فلا يُمكننا نقض أي دينٍ منها وبذلك تكون جميعها صحيحة!

وهذا الكلام خطأٌ تمامًا لأنّ من الُمهم ذكره هنا أنّ الشبهات التي تُلقى على الإسلام ليست من جنس الشبهات التي تُلقى على غيرها كالمسيحية واليهودية، فالشبهات التي تُلقى على المسيحية واليهودية سواء في أصولها العقدية أو في كُتبها المقدسة هي شبهات مُحكمة تصادم معارف ضرورية كفطرةٍ مستقرة أو علوم أولية كالبدهيات العقلية أو أنّها تفضي إلى تناقض بين نصيين مُحكمين قطعيين في دلالتهما بحيث يستحيل معهما الجمع والتأويل، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا مثل وصف الإله بصفات النقص التي لا تليق به ومثل وصف الأنبياء بأبشع الصفات ومثل الاختلاف في أشياء مُحكمة مُتعلقة بواقعة واحدة ذُكرت أكثر من مرة في الكتاب الُمقدّس وهذه الأمثلة ستنذكرها بالتفصيل في الباب الثالث.

ولكن إذا نظرنا إلى الشبهات التي تُلقى على الإسلام فسنجد أنّها جميعًا من جنس المتشابه الظني والذي نستطيع التعامل معه وفق منهجية عقلية منطقية (قاعدة المحكم والمتشابه) فلا يمكن لعاقل أن يترك أمرًا قطعيًا لمجرد ظن، كما أنّه لا يترك أحدٌ يقينًا لمجرد شك، فاليقين لا يزول بشكٍ ولكن يزول فقط إذا قُوبل بيقينٍ مثله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٣٦].

لذلك لا يصح في الأذهان أن يأتي أحدٌ من الناس ويقول: إنّ الإسلام كغيره من الأديان مُحاط بكم هائل من الشبهات والتي تجعله لا يختلف كثيرًا عن غيره؛ فالإشكال

ليس في عدد الشبهات كمًّا ولكن الإشكال الحقيقي يأتي من جنس الشبهات ولو كانت شبهةً واحدةً، وكما قلت أنّ الشبهات على الكتاب المقدس ليست من جنس الشبهات على القرآن العظيم فشُبهات الكتاب المقدس هي من جنس المُحكم الذي يزول معه اليقين والإيمان بخلاف شبهات الإسلام والقرآن فهي من جنس الظنّ المتشابه الذي لا يزول معه اليقين والإيمان.

- **نظرية المركز:**

(نظريّة خاصّة سريعة لفهم العديد من التشريعات التفصيلية).

بعد استعراض تلك المنهجيّة العامّة (منهجيّة المُحكم والمُتشابه) للتعامل بشكل منطقي وبمرونة وأريحيّة مع الشبهات المُثارة ضد الإسلام دون أن تُورث شكًّا في عقل أو قلب من يؤمن بذلك الدين العظيم؛ أودّ أن أعرض نظرية أخرى أكثر تفصيلًا أستطيع من خلالها فهم العديد من التشريعات التي تنال النصيب الأكبر من التشويه والنقد وهي مجموعة التشريعات التي تحمل معنى استعلاء الشريعة مثل حد الردة والولاء والبراء والجهاد وغيرها من التشريعات التي تصادم إفرازات منظومة الحداثة الغربية السائدة.

في البداية أود إيضاح أن القرآن قد قرر مبدأ الإرادة وجعلها مناط التكليف تدور معه وجودًا وعدمًا، ولذلك لا يصح أصلًا إسلام من أُجبر على الدخول فيه دون إرادة منه واختيار؛ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة:٢٥٦].

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ [الكهف:٢٩].

فالآية تُؤسِّس لمسؤولية كل إنسان عن اختياره الذي اختاره بإرادته، وفي نفس الوقت تُذَكِّر الإنسان بأنه سيُحاسب على اختياره هذا أمام الله، فهي تحمل نوعًا من التهديد الأخروي.

إنّ أي منظومة أو نسق فكري أو فلسفي لكي نستطيع فهمه والتوصّل لحقيقته فإنّه يجب أن نصل إلى ما يُسمى بالمركز الذي بُنيت عليه المنظومة لأن هذا المركز هو مصدر وأساس كل التفصيلات والتشريعات، كذلك ربما تُشرِّع المنظومة بعض التشريعات القاسية لحماية هذا المركز والحفاظ عليه من أي مساس.

فمثلًا منظومة مثل الدولة القومية الحديثة في صورتها المركزية نجد أنّ مركز المنظومة فيها هو الدولة ذاتها ككيان إداري مؤسسي له هيبته الخاصة التي لا يمكن المساس بها،

وللحفاظ على ذلك المركز (هيبة الدولة) فإنّ أي محاولة للمساس به تقف أمامه أقسى التشريعات والقوانين التي تشرّعها الدولة مثل عقوبة الخيانة العظمى والتي هي القتل تقريبًا في معظم الدول.

الإسلام أيضًا بالإضافة إلى أنّه دين فإنه يحتوى بداخله على منظومته الفكرية الخاصة به، ولكي نفهم الإسلام جيدًا بأحكامه وتشريعاته وأصوله وفروعه لا بد من الوصول إلى مركز منظومته والأساس الذي بُنيت عليه؛ وهو حفظ تلك الرسالة الإلهيّة الخاتمة وذلك الدين الحق الذي أنزله الله للنّاس جميعًا إلى قيام الساعة من أي محاولة للعبث به أو لتشويهه، وأيضًا السعي لأن تكون كلمة الله هي العليا بظهور تلك الرسالة الإلهية الخاتمة بالحجة والبيان على سائر الأديان وأيضًا علو أحكام الله على سائر بلدان الأرض كما في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، وكباقي المنظومات فإنّ أي محاولة للمساس بهذا المركز لا بد أن يقف أمامها أقسى التشريعات والأحكام كحد الردّة مثلًا وغيره، أمّا فتح الباب على مصراعيه لكل من يريد أن يدخل الإسلام ثم يرتدّ عنه متى شاء ففيه نوع من العبث بهذا الدين (الحق الذي أنزله الله)؛ لأنّ ذلك يفتح بابًا عظيمًا من إثارة الفتنة خاصة لدى ضِعاف الإيمان وحديثي الدخول في الدين.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [آل عمران:٧٢].

ومعنى ذلك أنّ فتح الباب لأي أحد للدخول في الإسلام ثم الارتداد عنه متى شاء دون أي رادعٍ قوي لذلك قد يجعل بعض الوجهاء والمنظرين وذوي المكانة العالية (أو ما نسمّيهم حاليًا النخب سواء على المستوى الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي أو المادي والاقتصادي) من الكفار الحاقدين على الإسلام يتظاهرون بالدخول في الإسلام في أول اليوم فيلتفّ حولهم المسلمون خاصة أولئك البسطاء الذين قد تخدعهم المظاهر وتغرّهم

المناصب ثمّ إذا ما التفّ المسلمون حولهم وازدادوا ثقة بهم وظنّوا أنّ الخير قادمٌ معهم، قام أولئك المُتظاهرون بالإسلام بالإعلان عن عدم اقتناعهم بذلك الدين وأنهم سيتركونه إلى ما هو أفضل منه فيكون ذلك بالطبع سببًا كبيرًا لفتنة المسلمين وتشكيكهم في دينهم كما سيكون أيضًا سببًا كبيرًا لصدّ غير المسلمين عن التفكير في أمر هذا الدين.

لذلك جاء تشريع قتل المرتد[1] ردعًا لمن يحاول المساس بمركز ثِقل المنظومة الإسلاميّة؛ مع العلم أنّ ذلك الحدّ لا يُنفّذ إلّا بعد وصول الأمر للحاكم ومن خلال قضاء الدولة الشرعي وليس من خلال آحاد النّاس، كما أنّه لا بد لتنفيذه مِن استيفاء جميع شروطه من استتابة المُرتدّ وإزالة عنه أي شبهةٍ أو سوء فهمٍ للدين فالحدود تُدرأ بالشبهات، وبذلك لا يبقى في النهاية إلّا من كان يُريد بالفعل سوءًا بهذا الدين وأهله.

ومن خلال ما ذكرته يتّضح لنا أنّ محور الحديث هو مركز المنظومة أو النّسق ومدى أهمّيّته بالنسبة لجسد المنظومة وأعضائه وأطرافه، فالصراع والخلاف إذن هو في الأصل خلاف حول مراكز الثِقل وأساس النظرة للحياة والوجود، وبصفةٍ عامةٍ لا أعتقد أنّ هيبة الدولة ستكون أعلى قدسية من هيبة الدين، فالحفاظ على رسالة الله الخاتمة التي أنزلها للنّاس أجمعين بما تحمله من معنى الحياة والتصورات الصحيحة عن الإله بالتأكيد أولى وأهم من الحفاظ على هيبة تراب الوطن بحدوده الافتراضية.

ولو نظرنا إلى تشريعٍ آخرٍ مثل جهاد الطلب فسنجد أنّ الهدف الأساسي منه هو إعلاء كلمة الله وسيادة أحكامه وتشريعاته على الأرض ودعوة الخلق إلى الإسلام وإزاحة ما يمنع ما سبق بإزالة الحكام الطواغيت الذين يمنعون وصول رسالة الله إلى شعوبهم،

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٦٨٧٨) أنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المُفارق للجماعة**».

للتوسع يمكن مراجعة كتاب (عقوبة المرتد في الشريعة الإسلامية وجواب معارضات المنكرين) لمحمد براء ياسين أو كتاب (حديث حد الردة فى ضوء أصول التحديث رواية ودراية) للدكتور سعد المرصفي.

بل ويضطهدون من آمن بها ويُشوّهونها بكل سبيل حتى يؤول حال البشر في العالم إلى نوعين؛ إما مسلم آمنٌ على دينه ينعم بشريعة الإسلام أو مشرك مسالمٌ إما بكونه ذميًّا يبقى على دينه وينعم بحكم الإسلام العادل لبلاده أو معاهدًا له عهد من المسلمين بترك القتال لمدة أو مستأمنًا أُعطى الأمان كالسفراء ونحوهم. وقد جاء النص في القرآن: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

ولذلك كان لا بد من التّخلّص من أولئك الحُكّام الطواغيت للحفاظ على مركز المنظومة الإسلاميّة وحفظ الرسالة الإلهيّة حتّى تصل إلى تلك الشعوب بصورةٍ صحيحةٍ ودون تشويهٍ لأصل الدين يمنع التصور الصحيح عن الإسلام فتتحقق حينها الإرادة التي هي مناط التكليف ويختار كل فردٍ منهم بإرادته ما شاء من إيمانٍ أو كفر مع تحمُّله الكامل لمآل وعاقبة ذلك الاختيار وأيضًا يختار الفرد حينها وهو آمن دون ترهيب أو اضطهاد يمنع اكتمال إرادته وإن كان يمكنه أن يستخفي بإسلامه وله أحكام المكره –ليس هذا موضع تفصيله–، وعلى كل الأحوال يتحمل الإنسان تبعات أي خيار.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا ﴾ [الكهف:٢٩].

دعني أيّها القارئ أُحَدّثك عن أمرٍ آخر قد تظنّه بعيدًا ولكنّه في حقيقة الأمر قريبًا وفي نفس السياق وهو مُتعلّق بالولايات المتحدة الأمريكية التي تدّعي أنّها تحمل منظومة من القيم الإنسانيّة وأنّها ترفع شعارات الحرية والمساواة والديمقراطية وتسعى إلى نشرها بين دول العالم أجمع.

ألم تحتل أمريكا دولة العراق بحجة أنها تريد إنقاذ الشعب العراقي من حاكمها صدام حسين، وأنّها تريد ألّا تحرم الشعب العراقي من العيش تحت ظل هذه القيم الإنسانيّة من الحرية والديمقراطية؟

أليس ما فعلته أمريكا هذا نوعًا من جهاد الطلب الذي تطلّب منها إزالة الحاكم الظالم (من وجهة نظرهم) والذي كان مانعًا من وصول القيم الغربيّة إلى الشعب العراقي؟

ولنا أن نطرح ذلك التساؤل على كل الحروب التي خاضتها أمريكا وغيرها من البلاد الغربية ضد دول العالم الثالث في العصر الحديث.

يمكنني استيعاب هذا المنطق الذي دفعهم للسعي في هيمنة أفكار الحضارة الغربية - بغض النظر عن صحتها من بطلانها-، ولكن إشكالي الحقيقي يكمُن في نقطتين رئيستين؛

الأولى: هل بالفعل ما تريد أمريكا نشره وتصديره للعالم هي منظومة قِيَميّة وأخلاقيّة حقيقيّة مُؤسَّس لها تأسيسًا معرفيًّا؟

وإذا تجاوزنا تلك النقطة التأسيسية الأولى فما زال هناك نقطة ثانية وهي هل قامت أمريكا على مستوى التطبيق الفعلي بما يتّسق ويتوافق مع منظومتها القيمية والأخلاقية التي تريد تصديرها للعراق وغيرها؟!

الواقع يشهد بخلاف ذلك فعندما رفعت أمريكا شعار حقوق الإنسان ما وجدنا منها سوى قتل ما يزيد عن مليون طفل.

وعندما رفعت شعارات الحرية والكرامة الإنسانيّة ما وجدنا منها إلّا تلك الانتهاكات اللاإنسانيّة في سجن أبو غريب.

مشكلة الغرب مشكلة مُركَّبة في الحقيقة جزء منها خاص بالتأسيس النظري المعرفي والجزء الآخر خاص بالتطبيق الفعلي الواقعي بخلاف الإسلام الذي يحمل منظومة قِيميّة وأخلاقيّة واضحة ومؤسَّس لها معرفيًّا قائمة على التوحيد وتجلياته في جميع مناحي الحياة وما يُريده فقط هو إيصال تلك المنظومة إلى شعوب العالم أجمع مع العلم أنّ الأصل في الإسلام هو أن يكون ذلك الإيصال بالدعوة مع ترك مساحة الاختيار كاملةً للناس كي يختاروا مصيرهم ويُحددوا موقفهم ولكن إذا صادف المسلمون شعبًا يمنعه حاكمه من

وصول الدعوة ويقوم بتشويه صورة الإسلام فحينها يجوز للمسلمين أن يُزيلوا هذا الحاكم الطاغوت ومن يعاونه بالقوة دون اعتداءٍ على أحدٍ من الشعب الأعزل المُسالم حتى يتمكن المُسلمون في النهاية من دعوة ذلك الشعب وتوصيل رسالة الله إليهم فيختار مصيره بعد ذلك بإرادته وأن تعلو أحكام الله وشريعته على بلادهم فينعموا بالعدل والأمان.

وهكذا فقد أصبح من الواضح لدينا أن من ثمرات تشريع جهاد الطلب في الإسلام أنه يُعزّز من قيمة حريّة الفرد في تحديد مصيره ليضع أمامه المسؤلية كاملة في تحمّل تَبِعات ذلك الاختيار في الآخرة، وأن الغرض منه -كما يقول جمهور علماء المسلمين- ليس هو قتل الكفار لمجرد كفرهم وإلّا لما نَهى الشارع الحكيم عن قتل الشيخ الكبير والمرأة والطفل والراهب في صومعته[1] أثناء القتال، فلو كان مُجرد الكُفر وحده سببًا للقتل لكان أولى الناس بالقتل هو ذلك الراهب لكونه بطبيعة الحال أشدّهم تمسكًا بالعقيدة الكفريّة وأكثرهم ترديدًا لعباراتها.

بل أكثر من الحفاظ على حُرمة النّفس البشريّة البريئة أثناء القتال فإنّ الشريعة الإسلاميّة قد حَفِظَت أيضًا حقوق الحيوان والبيئة وقد سَبَقَت البشرية في ذلك بقرونٍ طويلة، فقد نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قطعِ الشجر والنبات وعن قتلِ الكائنات الحية[2] دون أي حاجّة

(١) روى البخاري (٣٠١٥)، ومسلم (١٧٤٤) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: وُجِدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ «فنهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل النساء والصبيان»، وعند أبي داود (٢٦١٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**».

(٢) أخرجه البيهقي (١٨١٥٠) عن صالح بن كيسان، قال: لما بعث أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزيد بن أبي سفيان إلى الشام على ربع من الأرباع، خرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معه يوصيه، ويزيد راكب وأبو بكر يمشي، فقال يزيد: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال: «ما أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، يا يزيد إنكم ستقدمون بلادًا تؤتون فيها بأصناف من الطعام، فسموا الله على أولها، واحمدوه على آخرها، وإنكم ستجدون أقوامًا قد حبسوا أنفسهم في هذه الصوامع فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم، وستجدون أقوامًا =

أو نفعٍ عائدٍ من وراء ذلك، وفي المقابل نجد العهد القديم الذي يؤمن به النصارى واليهود يأمُر بني اسرائيل في مواضِع عديدة بقتل كل ما يجدونه أمامهم من مظاهر الحياة في المكان الذي يُريد منهم دخوله بالحرب والقتال فيأمرهم بقتل النساء والأطفال والحيوانات والشجر والنبات بل وشقّ بطون الحوامل أيضًا![1] وسوف نتحدّث عن ذلك بالتفصيل في الباب الثالث بإذن الله تعالى.

ولو تحدّثنا عن تشريعٍ آخر مثل الولاء والبراء والذي يعني موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين فسنجد أيضًا أنّ الغرض منه هو الحفاظ على الدين بأن يظلّ متمايزًا عن غيره من الأفكار والعقائد الأخرى، وعدم ضياع الحقّ باختلاطه مع الباطل كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧].

وهكذا فإنّنا من خلال نظرية تحديد مركز ثِقل المنظومة وعلاقتها بالتشريعات نستطيع فهم كثير من التشريعات الإسلامية خاصة وأن القضيّة عندنا في الإسلام تختلف عن أي شيء آخر، فالإسلام لمن يؤمن به ويعتقد صحته هو دين الله الحق الذي من أجله خلق الإنسان وأوجد الكون والحياة.

وبتطبيق تلك النظرية على منظومات فكرية أخرى مثل منظومة الغرب الحداثيّة

= قد اتخذ الشيطان على رءوسهم مقاعد -يعني الشمامسة- فاضربوا تلك الأعناق، ولا تقتلوا كبيرًا هرمًا، ولا امرأة، ولا وليدًا، ولا تخربوا عمرانًا، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع، ولا تعقرن بهيمة إلا لنفع، ولا تحرقن نخلًا، ولا تغرقنه، ولا تغدر، ولا تمثل، ولا تجبن، ولا تغلل، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥]، أستودعك الله وأقرئك السلام». ثم انصرف.

(١) سفر صموئيل الأول (٣/ ١٥): {فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا}.

وفي سفر هوشع (١٣/ ١٦): {تُجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها، بالسيف يسقطون، تحطم أطفالهم، والحوامل تشق}.

فسنجد أنّ مركز المنظومة هناك هو أفكار الحداثة الغربيّة من مادية وعلمانية وديمقراطية، في حين أنّ مركز المنظومة عندنا هنا في بلاد المسلمين هو الدين -عقيدة وعبادة وسلوكًا ومعاملة-.

وهذا الاختلاف الشديد بين مركزي المنظومتين الغربيّة والإسلامية يتجلّى بدوره مثلًا في تعجّب الغرب الشديد من مظاهر ردّ فعل المسلمين عندما نشر الغرب الصور المسيئة للرسول الكريم كخروجهم في المظاهرات بالأعداد الغفيرة ودعوتهم لمقاطعة المُنتجات الغربيّة بل وطلبهم من الحكومات العربيّة فتح باب الجهاد، وفي المقابل فإنّنا نتعجب نحن كمسلمين من قيام دولة ترفع دائمًا شعار الحريات مثل فرنسا بإصدار تشريعات وقوانين تُجرّم التشكيك في الهولوكوست والتي لها صلة قوية بأفكار الحداثة الغربية[1] -لا يسمح المجال لذكرها هنا-، وقد قامت بالفعل بسجن الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي (والذي أسلم في الجزائر) عندما قام بالتشكيك في الهولوكوست.

أيضًا نتعجب نحن المسلمون من قيام دول الغرب وعلى رأسهم أمريكا باضطهاد كل عالم يُشكّك في صحة نظرية التطور حتى لو كانت منطلقاته علميّة، وخيرشاهدٍ على ذلك الفيلم الوثائقي مطرودون Expelled، والسبب وراء ذلك أيضًا هو أنّ نظرية التطور تُعتبر مكون هام من مكونات الحداثة الغربية المادية حيث إنّها تُؤسّس بشكل بيولوجي حتمي للفروق بين الأجناس البشرية وبالتالي تُؤسّس لمركزية الرجل الأبيض باعتباره رأس الهرم الداروينى وقمة التطور البشري ذلك من خلال ما يُعرف بالداروينية الاجتماعية Social Darwinism.

وإذا تركنا الغرب والعرب ونظرنا إلى الشرق الأقصى فسنجد أنّ دولة مثل الصين

---

(١) ولمن أراد القراءة في ذلك الموضوع ومعرفة وجه العلاقة بينهما فَعَلَيهِ بكتاب (الحداثة والهولوكوست) لعالم الاجتماع البولندي زيجموند باومان.

أو اليابان مثلًا مركز المنظومة هناك ليس هو الدين وليس هو أفكار الحداثة المادية وليس هو الدولة بمؤسساتها، ولكن مركز المنظومة هناك هو الإمبراطور نفسه!

ومن هنا جاءت العبارة الشهيرة لعالم الحفريات الصيني جن يوان شن الذي ذهب لإلقاء محاضرة في أمريكا ينتقد فيها نظرية التطور ففُوجئ بهجومٍ شديدٍ لم يكن يتوقعه إطلاقًا في بلد الحُرّيّات كما تدّعي، ولكنه فَطِنَ إلى السبب بعد ذلك وقال كلمته الشهيرة التي تُلخّص نظرية مركز المنظومة:

(في الصين تستطيع أن تنتقد دارون ولا تستطيع أن تنتقد الحاكم!

وفي أمريكا تستطيع أن تنتقد الحاكم ولا تستطيع أن تنتقد دارون!).

خلاصة الفصل

هناك أمران رئيسان أردّت توضيحهما في هذا الفصل، أولهما هو إثبات وجود حجة منطقية يَثْبُتْ بها صدق الإسلام من خلال الكم الهائل من المعارف والأحكام والتشريعات في القرآن في مختلف المجالات والتي لا يمكن بحال أن تصدر من شخص محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نفسه ولا من بيئته ومجتمعه الذي نشأ فيه وبالتالي لا يمكن أن يكون تعلّم ذلك من أحد، وكل هذه المظاهر لا يمكن تفسيرها إلا من خلال الوحي والنبوة.

الأمر الآخر هو أنّ الشبهات التي تُثار ضدّ الشريعة بحجة أنّها تخالف بعض أعراف الناس السائدة الآن لا تصلح أن تكون دليلًا ضد الإسلام بالنقض، وأنّ غاية ما هنالك أنّها من قبيل المتشابهات الظنّية التي تحتمل أوجهًا متعددة إذ ليس فيها ما يخالف صريح العقل والفطرة ولكنّها فقط تُخالف عقولًا معينة واقعة تحت تأثير أفكار الحداثة الغربية من حيث كونها الحضارة السائدة في العالم الآن، وبالتالي فإنّ الحكمة التفصيليّة من هذه الشُبهات موجودةٌ ولا بد لأنّ ذلك من لوازم حكمة الله، ويبقى الإشكالُ فقط في الجهل بتلك الحكمة وليس في عدم وجودها، وبالتالي فلا يُمكن أن تكون سببًا دافعًا للشكّ في صحة الإسلام طالما ثَبُتَ عندي من الأدلة اليقينيّة ما يؤكّد صدق الدين وصحة الإسلام.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٣٦].

الفصل الرابع

الإعجاز العلمي

تشهد البشرية الآن ثورة علمية هائلة في جميع المجالات خاصة في العلوم الطبيعية، وأصبحت لغة العلم التجريبي هي اللغة السائدة في العالم.

في الواقع القرآن ليس كتابًا علميًّا ولكنه في الأساس كتاب هداية للبشرية يُخبرهم عن الغاية من الوجود والمنهج والمآل.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

القرآن أو الوحي عمومًا كما ذكرنا يُفصل في الأمور التي يحتاج الإنسان فيها إلى تفصيل مثل العقائد والعبادات، ويُجمل في الأمور التي لا يحتاج فيها الإنسان إلى تفصيل ويترك أمورًا ومساحات للإبداع والاجتهاد البشري وهذا ما جعل القرآن مناسبًا لكل زمان ومكان وملائمًا للسقف المعرفي البشري.

من الأمور التي تركها القرآن وفتح فيها المجال للإبداع البشري العلوم الطبيعية، وهناك فقط بعض الأمور المحدودة التي تكلّم فيها بشكل تفصيلي مثل حديثه عن الكون والأفلاك والكائنات الحياة والجبال والأمطار والسُحب وتكوّن الجنين وغيرها، وهذه هي مساحات تقاطع العلم الطبيعي مع القرآن وهي بالتالي موضع البحث سواء بالاتفاق أو التناقض.

ولكن قبل الحديث عن مساحات التقاطع بين القرآن والعلم التجريبي[1] لا بد من

(١) للتوسع في هذه المسألة يراجع كتاب الإسلام والعلم للدكتور هشام عزمي - طبعة مركز براهين.

التأكيد أولًا على أنّ القرآن قد أسّس لمعانٍ ومنطلقاتٍ في غاية الأهمية مُتعلقة بعلاقة الإنسان بالطبيعة مثل:

- **حثَّ القرآنُ الإنسانَ على فهم وتدبر الطبيعة.**

فالقرآن قد أعطى مُنطلقات من شأنها تحفيز الإنسان ومساعدته كي ينطلق في آفاق البحث العلمي وكي يحاول فهم آلية عمل الكون والطبيعة، وذلك من خلال العديد من الآيات التي تدعو للتأمل والتفكر والنظر والبحث مؤكدةً للإنسان أنّ الطبيعة قابلةٌ للفهم والإدراك لأنّ الله قد جعلها تسير وِفق سنن ونواميس كونية.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية:١٧]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

وجميع تلك النّصوص تعني أنّ فهم الظواهر الكونية والطبيعية والتوصل إلى قوانينها الحاكمة لها ممكنٌ ومن المسموحِ به للعقل البشري.

- تأسيس القرآن لفكرة هامة جدًّا في طبيعة علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي عدم خوف الإنسان منها وعدم شعوره بالرهبة والغموض تجاهها.

فالطبيعةُ مُسخرة ومُعدة له وخاضعة لقوانين ونواميس إلهية كونية وبالتالي فهي

ليست خارجة عن إطار قدرة الله الموصوف بالحكمة والرحمة، فلا داعي إذن للخوف منها ومن غضبها بل الخوف كله يكون من الله بالابتعاد عمّا يُغضبه.

وبذلك أزال القرآن شعور الإنسان تجاه الطبيعة بالغموض والخوف الذي لازم كل إنسان لم يتعرض للوحي، بل إن روح القرآن تُشعر الإنسان بقدرته على فهم الطبيعة والتوصل إلى بعض آلياتها.

وذلك بخلاف الأديان والكتب الأخرى التي أشاعت لدى معتنقيها روحًا من الخوف والرهبة والعداء مع الطبيعة باعتبارها شيء غامض لا يمكن فهمه ولا التنبؤ به.

يؤكّد هذا المعنى الفيلسوف المسلم رئيس البوسنة على عزت بيجوفيتش قائلًا:

"لا يحتوي القرآن على حقائق علمية جاهزة ولكنه يتضمن موقفًا علميًّا جوهريًّا وهو الاهتمام بالعالم الخارجي والطبيعة وهو أمر غير مألوف في الأديان.

يشير القرآن إلى حقائق كثيرة في الطبيعة ويدعو الإنسان للاستجابة إليه، الأمر بالعلم (بالقراءة) لا يبدو هنا متعارضًا مع فكرة الألوهية بل إنه قد صدر باسم الله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١].

الإنسان (بمقتضى هذا الأمر) لا يلاحظ ويبحث ويفهم (طبيعة خلقت نفسها) ولكن الكون الذي أبدعه الله، ولذلك فإن الملاحظة ليست بلا هدف أو لا مبالية أو خالية من الشوق، وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الديني. وكثير من أوصاف الطبيعة في القرآن على درجة عالية من الشاعرية"(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب – علي عزت بيجوفيتش (ص٢٨٩).

- تأسيس القرآن لما هو أعمق وأبعد من مجرد فهم الظواهر الكونية والتوصل إلى قوانينها وهو الاستفادة الحقيقية بما توصّلت إليه البشرية من تقدمٍ ملحوظٍ في العلوم الطبيعية وذلك من خلال النظر إليها نظرًا غائيًّا بتدبرٍ وتفكرٍ، ومحاولة ربط تلك المشاهدات العلميّة دائمًا بالحس التأملي الذي يزيد المؤمن إيمانًا بخالقه ومُبدعه الذي أتقن كل شيء حتّى لا يقع العلم في وحل المادية والاختزالية منزوعة الغاية والقيمة.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

إذن الخطاب القرآني ترك مساحة العلوم الطبيعية للإبداع البشري، ثم قام بالحثّ عليه والترغيب فيه وأزال شعور الرهبة والخوف الذي ظلّ ملازمًا للبشرية تجاه الطبيعة لقرونٍ عديدة، كما قام بالاهتمام والتركيز على البُعد الغائي من العلم وهو التفكّر والتأمّل والربط بين المكتشفات العلميّة وبين صفات الإله العظيم.

وفي ثنايا ذلك الخطاب القرآني نجده قد تحدّث في بعض المواضع المحدودة عن بعض القضايا العلمية بشكل تفصيلي كحديثه عن الأفلاك والشمس والقمر وكرويّة الأرض والجبال الرواسي وتكوّن السُحب والأمطار ونشأة الجنين وغيرها، وهنا في هذه القضايا تحديدًا تظهر مساحة التقاطع ويكمُن ذلك البحث الجدلي ثنائي القطب بين القرآن والعلم التجريبي سواءً بالتوافُق والإعجاز أو بالتنافُر والنقض أو بالتوفيق والتأويل وفق ضوابط منهجية معينة [1].

وهذا يعني أنّ هناك إمكانيّة لوجود إعجاز علمي في القرآن طالما هناك مساحة تقاطع مع العلم، ولكن لكون تلك المساحة من التقاطع محدودة في الخطاب القرآني كما ذكرنا فإنّ مساحة الإعجاز العلمي أيضًا ستكون بدورها محدودة.

---

(١) ومن الأمثلة التطبيقية على تلك المساحة من التقاطع: كروية الأرض ونظرية التطور، وكلاهُما يحتاج إلى بحث تفصيلي وتطبيق لمنهجيّة القطعي والظنّي حتى نصل إلى حقيقة المسألة بين التوافق أو التناقض أو التأويل الصحيح والتوفيق لا التلفيق، وللتفصيل في هاتين المسألتين يُراجع كتاب (الإسلام والعلم) وكتاب (التطور الموجه بين العلم والدين) للدكتور هشام عزمي؛ وهما من إصدارات مركز براهين.

وعند البحث والتدقيق نجد أنّه يوجد مستويان من الإعجاز العلمي في القرآن وهما:

- **المستوى الأول:** وهو الأهم والأوضح على الرغم من قلة الحديث عنه وهو أنّ القرآن من خلال عرضه لتلك القضايا العلمية والطبيعية لم يتأثر مطلقًا بالمعطيات العلمية المنتشرة والمشهورة في الفترة الزمنية التي عاش فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتي كان معظمها يخالف ما تم إثباته من حقائق علمية الآن نتيجة لتطور أجهزة الرصد وقدرة الإنسان على رؤية أشياء لم يكن يراها من قبل.

فالقرآن ليس فيه أي شيء يُناقض ما تم إثباته مؤخرًا من حقائق علمية على الرغم من أنه نزل منذ أربعة عشر قرنًا كاملة على رجلٍ في الجزيرة العربية وسط قومٍ كانوا متأخرين عن باقي الأمم والشعوب حينها وعلى الرغم من أن ذلك القرآن قد أشار بالفعل إلى بعض المعلومات العلميّة عن حركة الأفلاك والشمس والقمر والسُحب الثقال المُسخّرة وتكوّن المطر والجبال الرواسي وتكوّن الجنين، كما أنّه تعرّض للحديث عن قصة الوجود وبداية الكون ونشأة الحياة وعلاقة الإنسان بالطبيعة وغيرها من المجالات التي تستفزّ أي كاتب للخوض في المُعطيات والمعلومات العلمية المنتشرة في زمنه عنها لدرجة أنّك تستطيع القول أنّه تقريبًا لم يسلم أي كتاب بشري قديم تعرّض لبعض القضايا العلمية الطبيعية من تلك الأخطاء فكلُ عملٍ بشري هو في النّهاية ابن عصره وزمنه فعلى سبيل المثال أرسطو الملقب بـ(أبو الفلسفة) و(المعلم الكبير) له كتاب في الطبيعيات (العلوم الطبيعية) أغلب معلوماته خاطئة، وهذا في حد ذاته ليس قدحًا في أرسطو؛ لأنه في النهاية ليس إلا بشرًا عاديًا متأثرًا ببيئته وزمنه.

وإذا نظرنا إلى الفترة الزمنية التي عاش فيها النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى طبيعة البيئة والثقافة التي خرج منها فسنجد أنّ هناك العديد من المعلومات العلمية الطبيعية المنتشرة وقتها والتي كانت بسبب شهرتها وانتشارها أشبه بالحقائق العلمية لديهم مثل كون الأرض مُسطّحة ومثل نظرية الإنسان القزم التي تقول بأنّ الإنسان منذ لحظته الأولى في رحم أمه

يكون إنسانًا قِزمًا كامل الأعضاء ثم يكبر شيئًا فشيئًا، وعلى الرغم من ذلك فإنّ القرآن لم يذكر أيًا من هذه المعلومات الخاطئة.

يقول د/ موريس بوكاي:

"ودون أية فكرة مسبقة وبموضوعية تامة أجدني أتوجه أولًا إلى الوحي القرآني باحثًا عن درجة التوافق بين نص القرآن ومعطيات العلم الحديثة، وقد كنت أعرف من بعض الترجمات أن القرآن يسوق كل أنواع الظواهر الطبيعية ولم أكن أملك منها إلا معرفة جزئية. ولكن بعد تدقيق النص العربي بإمعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لي منها أنه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث"[1].

- **المستوى الثاني**: وهو أنّ القرآن قد أشار إلى بعض المعلومات العلمية بشكل تفصيلي، ومع تقدم العلم وتطوره واكتشاف أجهزة رصد دقيقة تُمكننا من رؤية أشياء وعوالم لم نكن نراها من قبل سواء على مستوى الذرة أو على مستوى المجرة وُجد أن تلك المعلومات صحيحة ومتطابقة مع ما تمّ اكتشافه مؤخرًا على الرغم من أنّه لم يكن يعرفها أحد وقت نزول القرآن.

وهذا المستوى من الإعجاز في الحقيقة لا يحتاج منا نحن كمسلمين إلى تكلف وتحميل القرآن ما لا يحتمل، ولكن المثال الواحد فقط يكفي على وجوده كدليل على إعجاز القرآن.

ولا بُدّ من إخضاع تلك الآيات التي أشارت أو تحدثت عن قضايا علمية طبيعية إلى منهجية صارمة مُحدّدة للتأكد من حقيقة كونها دليلًا من أدلة الإعجاز العلمي حتى لا نعبث بآيات الله، وحتى لا نخرج عن مسار البحث العلمي الصحيح مع ضرورة لزوم تفاسير الصحابة والتابعين وعدم الخروج عن معاني اللغة والحذر من التأويلات المنحرفة، بالإضافة إلى أن ذلك يضر أكثر مما ينفع لأن الحق لا يُستدل عليه إلا بحق، لذلك لا بد

(١) (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) للكاتب الفرنسي موريس بوكاي (ص ٢٠) - طبعة المكتب الإسلامي ترجمة: الشيخ حسن خالد.

من النظر في مدى قطعية وظنية دلالة الآية القرآنية وفي المقابل أيضًا مدى قطعية وظنية المسألة العلمية المُشار إليها.

ومن تلك الآيات التي تصلح كإشارة إلى المستوى الثاني من الإعجاز العلمي تلك الآيات التي ذكرت مراحل نشأة وتكوين الجنين في الرحم بدايةً من النطفة الأمشاج أو المُختلَطة من ماء الرجل وماء المرأة معًا كما وصفها القرآن في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم:٤٥-٤٦]، وهذا خِلاف ما كان مشهورًا وقتها مِن أنّ الجنين إنّما يتكوّن من اجتماع ماء الرجل ودم الحيض عند المرأة وبذلك فسّروا انقطاع دم الحيض أثناء فترة الحمل[1].

ويستمرّ الإعجاز القرآني في وصفه الدقيق للمراحل التالية من مراحل تكون الجنين، فتلك النُطفة المُختلطة من ماء الرجل وماء المرأة تصير علقةً ثم مُضغةً ثم يتشكّل الجهاز العظمي Skeletal System والكساء العضلي Muscular System، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٣-١٤].

وتلك الأوصاف القرآنيّة الدقيقة قد وافقت بالفعل ما تمّ اكتشافه ورؤيته مؤخرًا من خلال الأجهزة الحديثة كما تحدّث عن ذلك عالم الأجنة الشهير كيث مور قائلًا:

"ولقد أسعدني جدًّا أن أشارك في توضيح تلك الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف ويتضح لي أن هذه الأدلة حتمًا جاءت لمحمد

(١) وهذه النظرية الخاطئة كان يقول بها أرسطو وتأثرت بها جميع حضارات العالم قديمًا، وقد تأثّر بها أيضًا الكتاب المُقدّس كما جاء في سفر الحكمة (٧/ ٢): {وفي مدة عشرة أشهر صُنعت من الدم بزرع الرجل، واللذة التي تصاحب النوم}.

من عند الله لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثًا وبعد قرون عدة وهذا يثبت لي أن محمدًا رسول الله"[1].

هناك أيضًا بعض الإشارات العلمية الأخرى في بعض آيات القرآن قد تكلم فيها علماء المسلمين ولكنها تحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق، وهذه الإشارات إن ثبت صحتها بالأدلة والبراهين المؤكَّدة فستكون من الأدلة القاطعة أيضًا على صدق الإسلام.

ومن هذه الإشارات:

- ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ [النحل:١٥].

فقد قال الطبري وغيره من المفسرين أنّ الرواسي هي الجبال[2]، وبهذا تتحدّث الآية عن أنّ الله تعالى قد وضع الجبال الرواسي حتى تستقرّ الأرض ولا تهتزّ.

وقد أثبت العلم الحديث أن الجبال بالفعل تحافظ على توازن الكرة الأرضية وتمنع الاهتزازات الأرضية، وبالتالي تعتبر بمثابة دعائم أو أوتاد للأرض كالوصف القرآني لها في آية إخرى حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧].

وبذلك تحمل الآية إشارة علمية تم اكتشافها مؤخرًا في حين أنّه لم يكن أحدٌ على علمٍ بها في زمان النبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهذه الإشارات العلميّة وغيرها الكثير تؤكّد بالفعل وجود إعجاز علمي في ذلك الكتاب العظيم وأنّ الذي تكلم به قد أحاط بكل شيء علمًا ولكن على الرغم من ذلك فذكر تلك الإشارات العلميّة في الأساس من باب الاستئناس وتضافر الأدلة وزيادة اليقين والإيمان، وليس ذِكْرِي لها كي يعتمد المُسلم عليها كدليلٍ منفردٍ مستقلٍ على صدق الإسلام، فالمُسلم يجب أن يُميّز جيدًا وبدقة بين مراتب الأدلة ويتخيّر منها الأنسب لظروف الحال.

---

(١) https: //youtu.be/h0uzTjfAIP0

(٢) انظر تفسير الطبري (١٧/ ١٨٣).

وأمّا تلك الحالة التلفيقية التي يُمارسها بعض المُنشغلين بالإعجاز العلمي والتي تُحمِّل النّص القرآني غير مقصوده ومُراده كي يقترب قليلًا من نظرية علمية أو فرضيّة لم ترق حتى إلى درجة الظنّ الراجح فلا تصح ولا تصلح عند الحديث عن دين الله وإقامة الأدلة على صدقه؛ فالدليل -كما ذكرنا- إذا قامت الدلائل على ضعف ثبوته لم يصلح من جهة الاستدلال المرجِّح بل يذكر استئناسًا، وحقيقةُ الأمر أنّ أغلب أصحاب ذلك الاتجاه الذي يُعطي الأولوية في الدعوة والاستدلال على صحة الإسلام للإعجاز العلمي إنّما يستدلّون بآياتٍ قرآنيةٍ ظنّيّة الدلالة تحتمل أوجهًا متعددة، كما أنّ العلم أيضًا في المقابل أغلبُه نظريات تفسيرية لمشاهدات حسية(١) والتي دائمًا ما تتغيّر بتطور آلات الرصد،

(١) أذكر هنا مثالًا لتوضيح الفرق بين الحقيقة العلمية المُشاهدة والنظرية التفسيرية:
الجاذبية مثلًا هي حقيقة علمية نشاهدها جميعًا عندما نلقي بشيء إلى أعلى سرعان ما تجذبه الأرض إليها.. وهذه حقيقة مُشاهدة لا يمكن لأحد أن يُنكرها.
ولما أراد العلماء تفسيرهذه الظاهرة وفهمها قاموا بوضع فرضيات لها وأخذوا يطبقون المنهج التجريبي عليها، والفرضية التي حظيت بقدرة على التنبؤ وعلى تفسير أكبر قدر من المشاهدات هي التي اعتمدها العلم، وأصبحت هذه النظرية هي كلمة العلم في هذه الظاهرة.. والعلم لا يُخبرك بكل هذه القصة ولكنه فقط يقول رأيه بشكل حاسم فيظن البعض أن ما توصل العلم إليه من خلال ذلك الطرح هو مما لا شك فيه والواقع بخلاف ذلك.
وخير شاهد على كلامي هذا أن تفسير نيوتن للجاذبية ظل لفترة طويلة هو كلمة العلم في المسألة بكل قوة، ثم جاء آينشتين بنظرية أخرى لتفسير الجاذبية حظيت قبولًا أوسع وقدرة تفسيرية أعلى فأصبحت هي كلمة العلم وهكذا.
مثال آخر: التشابه بين الكائنات الحية في الشكل الخارجي Morphology والتشريح Anatomy والجينات المكونة للشفرة الوراثية DNA والتي تتكون من نفس القواعد النيتروجينية GTAC...
هذا التشابه هو حقيقة علمية مُشاهدة لا يمكن إنكارها.. فحاول العلماء تفسير هذه الظاهرة فأخذوا يضعون الفرضيات واعتمد بعضهم أن ذلك التشابه راجع لوحدة الأصل وأن الكائنات كلها تعود لسلف مشترك هو سبب ذلك التشابه فيما يُعرف بنظرية التطور وليس هناك تفسير آخر. وبغض النظر عن أن هذا المنهج اختزالي مادي يريد تفسير الطبيعة من داخلها فقط دون اللجوء لتفسيرات ميتافيزيقية غيبية وبغض النظر عن أن غاية ما هنالك أن فرضية التطور هي مجرد نظرية لها قدرة تفسيرية محدودة المدى عند من يقول بها ولكنها أصبحت لغة العلم المادي الاختزالي الإلحادي لأن ليس هناك غيرها.. ولكن هناك نظرية أخرى لها مدى تفسيري أعلى بكثير بل إن هناك ظواهر لا يمكن تفسيرها إلا من خلالها مثل العقل والوعي والإرادة وهي أن هذا التشابه بين الكائنات يعود إلى وحدانية الصانع... ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨].

فالعلم في النّهاية يعتمد أحسن التفاسير للظاهرة الطبيعية وهو الفرضية الأعلى تفسيرًا للظاهرة فيما يبدو للعلماء حتى يومهم الحالي، ولكن ما كان يُطلق عليه قديمًا أحسن التفاسير لظاهرة الجاذبية مثلًا لم يعد الآن تفسيرًا مقبولًا وإنّما ظهر تفسير آخر هو ما يُعرف الآن بأحسن التفاسير والذي قد يتغيّر هو الآخر بعد ذلك، وهكذا العلم بنظريّاته وفرضيّاته في حالة حركة وتطوّر وتغيّر مستمرّ لا ينقطع.

أضف إلى ذلك مشكلة أخرى من مشاكل العلم ونظرية المعرفة وهي ما يُعرف بالاستقراء الناقص Incomplete Induction، والتي تكلّم فيها فلاسفة العلم أمثال كارل بوبر حيث إنّ هذه المشكلة تهبِط بالعلم (أعني النظريات العلمية المُعتَمَدَة الآن فضلًا عن باقي الفرضيات) من منزلة الجزم واليقين إلى الظن والاحتمال.

وهكذا هو الحال، فبين بعض آي القرآن الغير قطعية في دلالتها من جهة، وبين نظريات أو فرضيات علمية ظنية من جهة أخرى، لا يمكن التأسيس لدليلٍ قطعيٍ وبرهانٍ جليٍّ يُمكننا الوثوق فيه والاعتماد عليه[1].

(١) للتوسع في هذا الباب يراجع كتاب (الإعجاز العلمي إلى أين؟) للدكتور مساعد الطيار – طبعة دار ابن الجوزي.

- **خلاصة الباب الثاني**

- أوجه الإعجاز القرآني

في هذا الباب قدّمنا الأدلّة الكثيرة على أنّ القرآن كتاب معجز على مستوى اللفظ والمبنى وأيضًا على مستوى المعنى، وبالتالي تتضافر فيه صور الإعجاز المختلفة لتشكل إعجازًا مُركّبًا يُحدث وقعًا وأثرًا عجيبًا لكل من يتعرض له أو يلقي السمع وهو شهيد.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المعجزة الكبرى القرآن):

«إن القرآن في أعلى درجات البيان من حيث لفظه ومن حيث نغماته ومن حيث مغازيه، ومن حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته، حتى إن كل عبارة تلقي في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها، ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة، وبتآخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة وحقائق بينة وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الإنساني القويم الهادي إلى الصراط المستقيم»[1].

- إعجاز القرآن على مستوى (اللفظ والمبنى) يتجلى في إعجازه البلاغي والذي يظهر جليًّا لكل إنسان على وجه الأرض من خلال حجته المنطقية القائمة على تحدي القرآن لمتخصصي اللغة على مر البشرية والناس عمومًا أن يأتوا بمثله وعجزوا جميعًا عن معارضته مع حرصهم الشديد على إبطال الدعوة وظهر ذلك الحرص جليًّا في حروبهم للرسول ومن أسلم معه وإنفاقهم في سبيل ذلك النفس والجهد والمال والأهل، بالرغم من أن الذي تحداهم هو شخص أميّ لا يعلم القراءة والكتابة.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن (ص ٦٦).

وإدراك هذا الوجه من الإعجاز البلاغي في صورته وحُجته المنطقية العقلية واضحًا جليًّا لكل أحد ولا يلزم أن يكون الشخص عربيًّا فضلًا أن يكون متخصصًا في اللغة العربية وقواعد البلاغة والأدب حتى يُدرك ذلك كما أنه لا يلزم أن يكون الشخص ساحرًا لإدراك أن ما فعله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (من تحديه للمتخصصين في السحر وعجزهم عن التحدي مع كونه أميًّا في السحر) هو أمرٌ معجز.

يظهر ذلك العجز عن المعارضة جليًّا كما قلت عند العربي القديم في زمان النبي من أصحاب التذوق الفطري حيث كانت اللغة سليقة، ويظهر أيضًا بدخول نفس العربي القديم في دين الله فقط لسماعه آيات القرآن تُتلى عليه لإدراكه مفارقتها لكلام البشر من أول وهلة.

وأيضًا ندرك هذا الإعجاز من خلال من جاء بعد ذلك ودرس اللغة العربية وتخصص فيها ووصل لمرحلة التذوق العلمي لها ثم نقل شهادته بتذوقه لهذا الوجه من إعجاز القرآن.

ومنهم القليل ممن حاول معارضة القرآن وعجز عن ذلك أمثال مسيلمة وابن المقفع بعد ذلك ولكنه تاب ورجع عن ذلك خوفًا من الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

- إعجاز القرآن على مستوى المعنى يتجلّى في عدة صور منها:

أوجه الإعجاز الغيبي والتشريعي والعلمي التي تكلمنا عنها.

إعجاز القرآن في إجابته عن الأسئلة الوجودية المتعلقة بقصة الخلق والسردية الكونية والغاية من الوجود والمصير والمآل والتي كما قلنا هي البحر الذي غرق فيه كل من خاضه بغير سفينة الوحي الصافي.

- إعجاز القرآن في تأسيسه للأصول الاعتقادية تأسيسًا عقليًّا، ثمّ ردّه على أسئلة المخالفين مثل:

الملاحدة المنكرين للخلق، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

الملاحدة المنكرين للبعث، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٦٦-٦٧].

المشركين المؤمنين بتعدد الآلهة، فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

النصارى الذين ادّعوا أن المسيح هو ابن الله لأن ليس له أبٌ مثل باقي البشر، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩].

وجميع هذه الصور والأمثلة تؤكّد إعجاز القرن في معناه خاصة وأن الذي قالها وتكلم به شخصٌ أمي (هو أشرف الخلق) خرج في مجتمع ليس له أي نصيب من حضارة أو فلسفة أو علم، وإنّما كان كل ما يعرفه هذا المجتمع فقط هو اللغة بفنونها وسِحرها وبيانها.

هذه الأوجه من الإعجاز سواء في اللفظ والمبنى وأيضًا في المعنى وتجلياته المختلفة تردّ على جميع الذين اتّهموا النبي محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن العظيم اتهامات باطلة مثل:

- من اتهم القرآن بالوحي النفسي وهو شيء أشبه بالهلاوس والتخيلات التي لا تتعدى عقل صاحبها.

ولكن نسي هؤلاء أو تناسوا أن الهلاوس لا تتعدى العقل البشري الذي خرجت منه في حالة ضعف أو عدم إدراك فضلًا عن أن يكون عقل بشري مُدرك.

فكيف بهذه الهلاوس تظهر في إعجازات غيبية ونبوءات مستقبلية ومعارف تشريعية ومعانٍ عقدية توحيدية تنزيهية وتأسيسات عقلية ومكارم أخلاقية مصوغة في صور بلاغية أدبية أعجزت البشرية!

- من اتهم الرسول بأنه مصلح اجتماعي أو شخص مُتفلسف مُتأمل محب للحكمة والمعرفة، ولكن أيضًا من قال ذلك نسي أو تناسى أن المُصلح أو الفيلسوف لا يخرج عن دائرة القدرة البشرية ولا يقدر بحال من الأحوال أن يتعداها وأن يصل به تأمله وتصوفه إلى أوجه إعجاز مثل التي ذكرناها.

أيضًا تناسى من اتهم الرسول بذلك أن المصلحين والفلاسفة لهم طريقتهم التي تختلف تمامًا عن طريقة الأنبياء (أو ما أطلقنا عليها ظاهرة النبوة المشتركة).

فنجد المصلحين والفلاسفة غاية ما يدعون إليه هو مكارم الأخلاق وحُسن التعامل مع الناس والطبيعة والتقلل من الشهوات الدنيوية وعدم الإفساد في الأرض (وهذا كله حسن).

ولكنه يختلف تمامًا عن أولويات الأنبياء جميعًا، حيث إن أول ما يدعون إليه هو توحيد الله بالعبادة ونبذ كل صور الشرك والمعاصي والكلام عن الله وصفاته واليوم الآخر والجنة والنار والوحي والغاية من الوجود والكتب المقدسة وكيفية العبادة والصلة بالإله بالخالق.

ولذلك قال تعالى مؤكدًا لنبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال هذا المعنى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧]، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

- من اتهم الرسول بأنه تأثّر بكتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فنقول لهم: إن أوجه الإعجاز البلاغي والغيبي ترد عليهم إذ لا علاقة لها بالكتب السابقة بحال.

ولا يذكر هؤلاء القوم مَن هم بالتحديد الذين جالسهم النبي كل هذه الفترة الطويلة ليتعلم على أيديهم كل ذلك العلم عن الأنبياء والأقوام السابقة وقصة بداية الوجود والحياة والتفاصيل الغيبية عن تصور الإله والجنة والنار وغير ذلك؟!

وكيف لم يعلم أحد بذلك وقد نُقلت إلينا سيرة الرسول كاملة؟!

كيف حدث ذلك والعرب في قريش لم يكن لديهم أي علم بالكتب السابقة ويظهر ذلك جليًّا في المصدر الوحيد الذي خلفوه وراءهم ليكون مُعبرًا عنهم وعن ثقافتهم وهو الشعر الجاهلي فلا تجد فيه أي ذكر للمصطلحات الكتابية اليهودية أو النصرانية ولا أي عبارات لاهوتية؟!

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

كيف ظل النبي متذكرًا كل هذه المعلومات (التي لا نعلم ممن اكتسبها ومتى وأين؟!) وهو يتنزل عليه القرآن متفرقًا آية آية طيلة ٢٣ سنة؟!

وإن كان كل ذلك غير كافٍ لك فاسمح لي أن أفاجئك بأن الوحي الذي جاء به النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالف كثيرًا من الروايات في الكتب السابقة (التوراة والإنجيل المحرفتين)!

وكان الخلاف في مواضع تأسيسية محورية مثل تنزيه الله عن أي نقص نُسب إليه في هذه الكتب وتنزيه الأنبياء عما نسبوه إليهم، وأيضًا مخالفته لبعض المواقف التاريخية التي لها ارتباطات عقدية في غاية الأهمية مثل صلب المسيح المُرتبط بعقيدة الخطيئة والفداء.

أيضًا خـالف الكتب السابقة في كل النصوص المُخـالفة لصريح العقل والفطرة.. وهذا سنذكره بالتفصيل في الباب الثالث إن شاء الله.

لكن السؤال هنا: كيف يُخالف النبي مَن علَّمه من أهل الكتاب (على حد زعمهم)؟!

ومن الذي أعلمه الروايات الصحيحة فيأخذها والروايات الخاطئة فيتركها، ثم كيف له أن يُكذِّب بعد ذلك من علَّمه ويتهمه بالكفر وتحريف كتب الله وتكذيب الأنبياء كما اتهم اليهود والنصارى؟!

ثم كيف يتسنى لهؤلاء الذين علموه أن يتركوه يفعل ما يشاء دون أن يُحذروا الناس منه ويُعلنوا لهم أنه تعلم على أيديهم؟!

ثم إذا كانوا موافقين له على ذلك فلماذا لم ينالوا هم شرف تصحيح عقائد الناس وتصوراتهم إن كانوا بهذا الحرص المزعوم (لأنهم في الحقيقة هم أصلًا المزعومين) ؟!

وأخيرًا كيف بعد كل ذلك أن يتبعوه ويؤمنوا به رسولًا ونبيًّا كأمثال ورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبحيرى الراهب (إن صحت الرواية) وكعب الأحبار وغيرهم الكثير؟!

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

- من زعم أن القرآن غير مُعجز لغير العرب الغير مُدركين لوجه الإعجاز البلاغي فيه؛ وقلنا إن غير العرب مُدركون لكل أوجه الإعجاز في المعنى القرآني التي ذكرناها من إعجاز غيبي وغيرها مثل الإجابة على الأسئلة المصيرية ومثل التأسيسات والردود العقلية أو ما يُعرف بالأدلة النقلية العقلية.

إذن القرآن مُعجز أيضًا لغير العرب.

هذا بالإضافة إلى أن غير العربي قادر على إدراك الحجة المنطقية المُتعلقة بالإعجاز البلاغي القائمة على فكرة عجز المتخصصين.

أؤمن بشدة أنني مهما حاولت أن أتكلم عن القرآن وأوجه إعجازه فسيظل لمن يقرؤه ويعيش في ظلاله أكبر بكثير من أن تُحيط به العبارات والكلمات.

ورضي الله عن عكرمة الذي كان دومًا يقرأ القرآن ويقف عند ألفاظه ويتفاعل مع معانيه قائلًا: «كلام ربي.. كلام ربي»[1]، فقد كان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مدركًا أن القرآن مُفارقٌ لكلام البشر كما هو الفرق بين الحي والميت، فكلاهُما جسدٌ كما أنّ كليهما كلمات ولغة.

ولكن يبقى الحيُّ حيًّا والميتُ ميتًا.

(١) مسند الدرامي (٣٦١٤)، والحاكم في المستدرك (٥١١٠)، وابن المبارك في الجهاد (٥٦)، ونصه: كان عكرمة يأخذ المصحف ويضعه على وجهه ويبكي ويقول: «كلام ربي.. كلام ربي».

الباب الثالث

مقارنة بين القرآن والكتب السابقة

تمهيد

كنّا قد تكلّمنا في البابين الأول والثاني عن إثبات صحة الإسلام عن طريق استنتاج العلاقة المباشرة بين الإسلام من جهة وبين الله من جهة أخرى من خلال محوري الإسلام الرئيسين الرسول والقرآن.

ولكن منهج الاستدلال هنا في هذا الباب يختلف بعض الشيء؛ فقد جمعت فيه بين مسلكين أو منهجين للاستدلال على صحة الإسلام:

أحدهما استبعادي: قائم على قاعدة منطقية وهي (السبر والتقسيم) والتي تعني حصر كل الاحتمالات المُمكنة في عدد مُحدّد ثم استبعاد وإبطال ما لا يصلُح منها بالدليل، وبالتالي نتيقن من أن الاحتمال الوحيد المُتبقي والذي لم نستطع إبطاله واستبعاده هو الاحتمال الصحيح.

والمنهج الآخر استنتاجي: وقد أثبتنا فيه العلاقة المباشرة بين المضمون القرآني وبين التصور الفطري الضروري عن الإله وصفاته وعن طبيعة الدين الحق.

ولكن قد يسأل سائل ويقول أنّ دليل السبر والتقسيم في باب مقارنة الأديان لن يتحقق إلا إذا كان هناك علم يقيني مُسبق بأنّ الدين الحق لا يزال موجودًا وسط الأديان الآن فنقوم باستبعاد ما ثبُت لدينا بُطلانه بالدليل حتى يتبقى لنا ذلك الدين الذي لا نستطيع إثبات بطلانه، ولكن:

لماذا هذا اليقين بأن الدين الحق موجودٌ بالفعل وسط الأديان في العالم الآن؟

أليس من الممكن أن تكون كل تلك الأديان إمّا باطلةٌ في أصلها أو أنها قد تعرّضت للتحريف والضياع؟

الحقيقة أن دين الله الحق ليس فقط موجود وسط أديان العالم الآن، بل وعلى صورته الصحيحة النقيّة كما أنزله الله، وذلك اليقين ليس إيمانًا دوغمائيًّا ولكنه يرجع إلى ما ذكرته في بداية الكتاب من ضرورة الاتصال بين البشر وخالقهم من خلال رسالته أو دينه الذي أرسله إليهم(١)، حيث إنه السبيل لتحقُّق الحكمة الإلهية من خلق الإنسان بوجود تلك الرسالة الإلهيّة ووصولها إلى البشر على صورتها الصحيحة تمامًا كما أنزلها الله تعالى حتى يتمّ بذلك مُراده وحكمته.

وبذلك فإنّ هناك أمرين مُهمّين يتأسّس عليهما دليل السبر والتقسيم في مقارنة الأديان وهما:

١- ضرورة وجود الدين الحق بين البشر؛ لأنّ ذلك من لوازم حكمة الله.

٢- الحق واحد لا يتعدّد، وبالنظر إلى الأديان سنجد أنها تختلف عن بعضها اختلافًا جوهريًّا في التصور عن الإله وصفاته وفي كثير من الأصول الكلية، ولذلك فإن الدين الحق هو واحد فقط وليس أكثر.

هناك أمر آخر خاص بدين الله الحق وطبيعته وهو أنّه لا بد أن يكون ظاهرًا على باقي الأديان وأدلة صحته واضحة خاصة في أصوله الكلية، كما ينبغي أن يكون متّسقًا مع الفطرة ولا يخالف أيًّا من العلوم الضرورية، وذلك لأن مسألة عدم وضوح دين الله وعدم ظهور أدلة صحته يحمل طعنًا في حكمة الإله الذي ترك الإنسان في حيرته دون أن يزيلها، ويحمل طعنًا في عدله حيث كلّفه بما لا يطيق وتركه تائهًا بين جَنبَات الحق والباطل ثم يحاسبه بعد ذلك، كما يحمل أيضًا طعنًا في قدرة الله حيث عجز عن حفظ دينه وإظهاره على باقي الأديان بتوافر الأدلة البيّنة الكافية على صحته.

أضف إلى ذلك أيضًا أنّ الدين الحق الذي نبحث عنه ونريد أن نصل إليه لا بد أن

(١) يُرجى مراجعة فصل ضرورة الرسالات في أول الكتاب.

يدّعي ابتداءً أنه دين سماوي وأنه مُنزّل من الإله وأن يثبت ذلك بالدلائل والآيات والبراهين، وبذلك نكون قد أخرجنا من دائرة البحث عن الرسالة الإلهيّة جميع المذاهب والفلسفات الوضعية والأديان الأرضية والمنتشرة خاصة في منطقة شرق آسيا(1) كالبوذية والهندوسية والكونفشيوسية والزرادشتية أو المجوسية وغيرها؛ وبالتالي فقد حصرنا البحث فقط في تلك الأديان التي تدّعي أنها سماوية المصدر.

وبناءً على كل ذلك يمكننا تقسيم الأديان الموجودة في العالم الآن إلى قسمين رئيسين:

أديان غير سماوية: وهي تلك الأديان التي لا تدعي أنها نزلت بوحي من الإله، ولكنها أديان أرضية نشأت من خلال تأملات بعض الفلاسفة والحكماء أمثال بوذا وغيره وكذا غلاة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود، حيث قضوا أوقاتًا طويلة في تأمل الطبيعة وأحوال الناس حتى توصلوا إلى منظومات أخلاقية وأنساق قيمية غايتها إصلاح الجانب الروحي والأخلاقي للإنسان وإصلاح العلاقات والمعاملات بين الأفراد، لكنها لا تهتم كثيرًا

(1) يستنكر البعض عدم وجود أي أخبار تتحدث عن رسل في تلك المنطقة من الكرة الأرضية ذات التاريخ الطويل والتجمعات البشرية الهائلة، وفي المقابل تتمركز الرسل والرسالات في منطقة الشرق الأوسط تحديدًا دون غيرها، وهذا الاستشكال كان سببًا دافعًا لدى البعض للشكّ في أمر الدين وفكرة النبوة والرسالة من الأساس، ولكن هناك رؤية أخرى أو وجهة نظر ثانية أكثر اقناعًا واتّساقًا عند بعض الباحثين وهي أن تلك الأديان قد تكون بقايا رسالات سماوية وأن هؤلاء الحكماء كبوذا وغيره قد يكونوا رسلًا من عند الله ولكن ضاعت هذه الرسالات ولم يبق منها شيء، وهذا القول قطعًا ليس عليه أي دليل يؤكد صحته كما أنه أيضًا ليس هناك أدلة على نفيه وبطلانه خاصة وأن القرآن يتحدث عن أن كل الأمم والشعوب قد وصلتها رسالة السماء: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ويؤكد أنه ما من أمة إلا وخرج فيها رسول من عند الله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، كما يتحدث أيضًا عن وجود رسل كثيرة لا نعلم عنها شيئًا: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤].

وفي كل الأحوال هذا ليس محل بحثنا لأنه سواء كانت تلك الأديان بشرية من الأساس أو أنها كانت في الأصل أديان سماوية نزل بها رسل الله ثم ضاعت ولم يبق منها شيء فالنتيجة واحدة، ولذلك كل ما نريد التأكيد عليه هنا هو أن تلك الأديان الموجودة الآن لا تدعي أنها أديان سماوية نزلت بوحي من الإله وبالتالي لا يمكن أن يوجد بينها دين الله ورسالته الخاتمة التي نبحث عنها.

(وأحيانًا نهائيًّا) بفكرة الألوهية ومركزيتها؛ فبعضها يشترط الاعتقاد بوجود كائن علوي أسمى وروح مُطلقة للوجود ولكنه كائن غير مُحدد المعالم والصفات، وبعضها لا يشترط ذلك أصلًا كالبوذية، كما أن تصور الألوهية عندهم غالبًا ما يكون من خلال فكرة وحدة الوجود والتي تعني أن كل ما في الوجود ما هو إلا صور وتجليات للإله وأن الهدف من تلك الطقوس والتأملات التي يؤدونها هو التوحد مع الطبيعة ومنها جاء تقديسهم لها أو لبعض صورها وعدم الإضرار بها.

لذلك فإنه أثناء رحلة البحث عن الدين الحق الذي أنزله الله للعالمين فإن مثل هذه الأديان ليست محل بحث ونظر لأنها كما قلت لم تدعِ أصلًا أنها جاءت بوحي سماوي ولكنها تؤكد أنها نشأت من الأرض ابتداء من خلال تأملات الفلاسفة والحكماء وغلاة المتصوفة في الكون، حتى إن مجرد تسميتها أديانًا فيه نظر عند بعض العلماء والباحثين في فلسفة الأديان ولكن باعتبار الطقوس والشعائر والتجمعات البشرية والنظرة الروحية أُطلق عليها مجازًا بالأديان، وهكذا أطلق عليها في القرآن: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦].

أديان سماوية[1]: وهي تلك الأديان التي تدعي أنها نزلت بوحي من السماء، وهي أديان كاملة منظمة Organized Religions لها كتب أصلها سماويّ وترى مركزية الألوهية كمنطلق لمنظومتها العقدية والتشريعية مع اختلافات في تصوراتها عن الإله، وهي أديان لها نظرة للوجود والحياة من حيث البداية والغاية والنهاية.

ولذلك فهذه الأديان هي محل البحث والنظر في هذا الباب للوصول إلى الدين الحق لأنها تدعي النسبة إلى الله وهي الإسلام والمسيحية واليهودية.

---

(١) استعملت هذا المصطلح على اعتبار أنها أديان يدين بها أصحابها وينسبونها إلى السماء وكما استعمل القرآن ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، وأما في سياق الحديث عن الدين الحق فحينها نقول: إن الدين السماوي واحد وهو الإسلام وإن تعددت الرسالات والشرائع من نبي لآخر كما جاء في الحديث: «**الأنبياء إخوة لعلَّات دينهم واحد وأمهاتهم شتى**» رواه أحمد (٩٦٣٤)، وصححه أحمد شاكر.

وقبل بدء رحلة المقارنة بين الأديان فإنّ هناك بعض القواعد والأصول التي من المهم التأسيس لها وذلك لضمان صحة الاستدلال وسلامته من المغالطات المنطقية:

- أدلة صدق الدين الحق الذي نبحث عنه بين الأديان والذي أنزله الله للبشر لا بد أن تكون ظاهرة وواضحة لأن ذلك من لوازم حكمة الله وعدله التي تقتضي أنه لا يريد شرعًا أن يُلبس على خلقه الحق بالباطل، فكما أن من لوازم حكمته إنزال الدين والرسالة لتحقيق الغاية المطلوبة من خلقه للإنسان كما ذكرنا، فإن أيضًا من لوازم حكمته ظهور هذا الدين على باقي الأديان ووضوحه بالحجة والبيان والدليل والبرهان بمجرد النظر الموضوعي المتجرد الباحث عن الحقيقة.
- موطن البحث وعقد المقارنة بين الأديان سيكون من خلال النظر في الأصول الاعتقادية الكلية التي بُني عليها كل دين وليس من خلال النظر في الفرعيات والجزئيات والاستغراق فيها، وهذا مسلك منطقي وطريقة صحيحة في التفكير فكما يُقال: (ثبت العرش ثم انقش).

وهذه الأصول الاعتقادية التي ستكون محل البحث والنظر مثل تصور كل دين عن الإله وصفاته وعن العقائد المركزية التي تعتبر بمثابة شرط الانتساب للدين في الدنيا وشرط لتحقيق الخلاص في الآخرة وغير ذلك مما أسميه (مفاتيح الدين)، فلكل دين مفاتيحه الرئيسة والتي تعبر عن حقيقته وهذه المفاتيح من المفترض أن تكون هي محل البحث لأنّ الله قد جعل فيها الأدلة الواضحة على صحة الدين الحق وأيضًا الأدلة الواضحة على بطلان الأديان الخاطئة أو المحرّفة، فإن وضوح الدين الحق وظهوره على باقي الأديان لا بُدّ أن يتجلّى ويظهر في أصوله وتصوراته الكلية كما ذكرنا.

- أفضل وسيلة عند مقارنة الأديان للوصول إلى الدين الحق هو البحث في الكتاب المقدس لكل دين لأنه هو المُعبر الحقيقي عن الدين والموجود بين أيدينا الآن والذي يُمثّل الجانب النظري والمعرفي فيه، ولا يصحّ أن يكون محل البحث والمقارنة بين الأديان

من خلال تفسيرات علماء هذا الدين فقد تصيب وتخطئ أو من خلال وقائع تاريخية لتطبيقات وممارسات ترفع شعار الدين.

بناءً على ذلك سأقوم بعقد المقارنة بين الأديان الثلاثة من خلال كُتبها المقدسة وهي: الكتاب المقدس لليهودية (العهد القديم) والكتاب المقدس للمسيحية (العهد القديم مع العهد الجديد) والكتاب المقدس للإسلام (القرآن).

وستكون تلك المقارنة بين هذه الكتب الثلاثة من خلال خمسة عناصر رئيسة والتي تُعتبر بمثابة معايير لتمييز الدين الحق، وسيكون ذلك من خلال مقارنة تحقُّق تلك العناصر في الكتاب المقدس لكل دين مع تحقُّقها الضروري الوجودي أو بمعنى آخر المقارنة بين صفة كل عنصر من العناصر الخمسة كما جاءت في الكتاب المقدّس لكل دين مع حقيقته التي من المُفترض أن يكون موجودًا عليها والتي يستطيع العقل إدراكها والوصول إليها، وهذه العناصر الخمسة أو معايير الدين الحقّ هي:

١) صفات الإله.

٢) صفات الأنبياء.

٣) الحفظ من التحريف.

٤) مدى معقولية العقائد الكلية وفطريتها والتماسك المنطقي بينها.

٥) ثمرات الدين.

نبذة عامة عن الكتاب المقدس

إذا كانت مقارنتنا بين الأديان الثلاثة ستكون في الأساس من خلال مقارنة الكتب المقدسة لكل دين فمن المهم أن يكون لدينا تصور عام عن الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى؛ وفيما يلي بيان ذلك:

كتاب اليهود المقدس يتكون من أربعة أجزاء رئيسة وهي:

١- **التوراة أو أسفار الشريعة أو التناخ**: وهي تتكون من خمسة أسفار[1]: التكوين - الخروج - التثنية - العدد - اللاويين.

٢- **الأسفار التاريخية**: وتتكون من اثنى عشر سفرًا: يشوع - القضاة - صموئيل الأول والثاني - الملوك الأول والثاني - أخبار الأيام الأول والثاني - أستير - راعوث - نحميا - عزرا.

٣- **أسفار الأنبياء**: وتنقسم إلى الأنبياء الكبار؛ وهي خمسة أسفار، والأنبياء الصغار؛ وهي اثنى عشر سفرًا.

٤- **الأمثال أو الأشعار**: وهي خمسة أسفار؛ منها المزامير، ونشيد الإنشاد.

وبذلك يتكون كتاب اليهود من ٣٩ سفرًا أو كتابًا.

هذا هو إذن كتاب اليهود المُقدّس الذي يُعرف بالعهد القديم وهو ذاته جزء من كتاب النصارى المقدّس حيث أنّ هناك نصًّا منسوبًا للمسيح في إنجيل متى (٥/ ١٧) يقول فيه: {لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض ولكن لأتمم}،

---

(١) كلمة (السفر) تعني (الكتاب)؛ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] أي كتبًا، وكل سفر يتكون عدد من الإصحاحات مثل السور في القرآن، وكل إصحاح يتكون من عدد من الأعداد مثل الآيات.

و(الناموس) المراد منه كما هو معلوم شريعة موسى وأحكامه المدونة في التوراة كما أن (الأنبياء) المراد منها أحكامهم ووصاياهم المدونة في باقي أسفار العهد القديم.

وبذلك فإنّ الكتاب المقدس عند المسيحيين يتكون من قسمين رئيسين وهما: العهد القديم (وهو نفسه كتاب اليهود كما ذكرنا) مُضافًا إليه العهد الجديد وهو ما سنتحدث عنه الآن.

وبذلك يصبح تقسيم الكتب المقدسة التي سنقوم بعقد المقارنة بينها كالتالي:

العهد القديم: وهو كتاب اليهود والمسيحيين، وبالتالي فإنّ وجود أي نقضٍ أو خللٍ فيه هو حجة عليهما معا.

العهد الجديد: وهو كتاب المسيحيين فقط، ووجود أي نقضٍ فيه هو حُجة على المسيحيين فقط.

القرآن: وهو كتاب المسلمين.

ومصطلح العهد القديم هو مصطلح مسيحي وليس يهوديًّا، أي أنّ المسيحيين هم من أطلقوا عليه هذا الاسم وذلك لأنّ اليهود عندهم عهدٌ واحد فقط، أما النصارى فلديهم عهد قبل المسيح وهو العهد القديم وعهد بعد المسيح وهو العهد الجديد.

ويتكوّن العهد الجديد من أربعة أجزاء رئيسة وهي:

١- **الأناجيل**: وهي عبارة عن سيرة المسيح ذكرها البعض وهي أربعة أناجيل؛ مَتَّى ولوقا ومرقس ويوحنا.

٢- **سفر أعمال الرسل**: والتي كتبها لوقا لتكون تكملة لإنجيله، حيث إن الأناجيل تتحدث -بحسب اعتقادهم وما دوَّنه كتَّاب الأناجيل- عن حياة المسيح بداية من مولده حتى صلبه ثم قيامته وأمره للرسل أن يبشروا بالمسيحية ثم صعوده إلى السماء عن يمين الرب، وتقف الأناجيل -ومنها إنجيل لوقا- عند هذه النقطة، فأكمل لوقا في سفر أعمال الرسل

الحديث عن تبشير الرسل ودعوتهم للمسيحية في الأمصار المختلفة.

٣- **رسائل الرسل**: وهي تتكون من سبعة رسائل لبعض الرسل والتلاميذ مثل بطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا، بالإضافة إلى أربعة عشر سفرًا خاصة ببولس وحده تتضمن رسائله إلى أهل الأمصار التي بشر فيها، وكما سنلاحظ أن بولس له النصيب الأكبر من العهد الجديد وأن حظه أكبر من حظ المسيح نفسه، ولذلك البعض يرى أن المؤسس الحقيقي للمسيحية والمقرر لعقائدها هو بولس وليس المسيح.

٤- **سفر رؤيا يوحنا**: وهو سفر مليء بالرموز والتي حاول تأويلَها كثير من الشراح.

وبذلك يتكون العهد الجديد من ٢٧ سفرًا أو كتابًا.

إذن الكتاب المقدس عند المسيحيين يتكون من ٣٩ سفرًا في العهد القديم بالإضافة إلى ٢٧ سفرًا في العهد الجديد فيكون المجموع ٦٦ سفرًا.

وأضاف الكاثوليك والأرثوذكس ٧ أسفار إضافية إلى العهد القديم يسمونها بالأسفار القانونية الثانية؛ ليصبح بذلك الكتاب المقدس عندهم ٧٣ سفرًا، بَيْدَ أن اليهود والبروتستانت لا يعترفون بها ويسمونها بالأسفار الزائفة أو الأبوكريفا.

- تنبيه:

النص الأصلي لأسفار الكتاب المقدس مفقودٌ بالكامل، وتلك الأسفار الموجودة الآن هي ترجماتٌ عن ترجمات لمخطوطات قديمة تبعد كثيرًا زمنيًّا عن النص الأصلي، وسنتكلم عن هذا في الفصل الخاص بالحفظ والتحريف في هذا الباب إن شاء الله.

الفصل الأول

صفات الإله

وهو المعيار الأول من المعايير المُمَيِّزة لرسالة الله الصحيحة، والمقصود من هذا الفصل هو عقد مقارنة بين القرآن والعهد القديم والعهد الجديد من خلال الحديث عن صفات الإله المذكورة في كل كتاب ومقارنتها بصفات الكمال التي يدركها العقل إجمالًا بالبداهة والضرورة عن الإله الذي خلق الكون وأبدعه من العدم، وهذه الصفات المقصودة هنا هي تلك الصفات التي يستطيع العقل البشري إدراكها إجمالًا والتوصُّل إليها من خلال النظر في الكون وفي مخلوقات الله فهي أشبه بالمعلوم من العقل بالضرورة.

إن الإله الذي خلق هذا الكون البديع الغاية في الدقة والإحكام والإتقان وأوجده من العدم يتصف ببعض الصفات التي يستطيع العقل الوصول إليها بمجرد تأمله في الكون والطبيعة من حوله بل وبمجرد تأمل الإنسان في نفسه؛ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

فما هي إذن تلك الصفات المُتصوّرة عن الإله الحق بالضرورة والتي ينتظر الإنسان سماعها منه عندما يتحدث عن ذاته؟!

- الإله خالق الكون لا بد أنه مُتصفٌ بالوجود والحياة.
- الإله خالق الكون البديع والمتقن والمحكم لا بد أنه متصفٌ بالقيوميّة والحكمة والقدرة والعلم والخبرة لأنه أوجد الكون بعلمه وقدَّره بقدرته وحكمته.
- الإله خالق الكون الذي تحكمه تلك القوانين الصارمة والميزان المنضبط لا بد أنه متصفٌ بالعدل ومنزه عن الظلم.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان:٢].

- الإله خالق الكون البديع الجميل لا بد أنه متصفٌ بالكمال والجلال مُنزَّه عن النقائص والعيوب.
- الإله خالق الكون أيضًا لا بد أنه متصفٌ بالعلو -علو الشأن والقهر والذات- فليس له مثيل أو سَميٌّ من مخلوقاته وهو عال عليهم بائن منهم ليس من طبيعة الكون المادية؛ فهو كما قُلنا سابقٌ لها زمانًا ومنفصلٌ عنها مكانًا، فالنجار الذي صنع الكرسي من الخشب لا يمكن أن يقول عاقل أنّه هو أيضًا مصنوعٌ من الخشب، بل هو مُنفصلٌ عن الكرسي مكانًا وسابقٌ له زمانًا ومن طبيعة أخرى مُخالفة له، وهذا يلزم منه أيضًا أن يكون هذا الإله مُنزَّه عن التشبيه والمماثلة وعن أن يحل أو يظهر في أحد من مخلوقاته.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١].

- خالق الكون يتصف بالوحدانية؛ فهو إله واحد وليس آلهة متعددة، فكما ذكرنا في الباب الثاني في المعجزة القرآنية أن وحدة الطبيعة المتمثلة في وحدة قوانينها ووحدة بنيتها الأساسية (الذرة) المكوِّنة لكل عناصرها المختلفة وأيضًا وحدة البنية البيولوجية وهي الخلية بشفرتها الوراثية المتكونة من نفس الأحرف والمكوِّنة لكل صور الحياة المختلفة تؤكد جميعًا وحدانية الإله الخالق وأن مصدر كل ذلك العالم العضوي والغير عضوي واحد وليس أكثر.

وبالنظر أيضًا إلى الإتقان والإحكام في الكون والذي لا يتخلف ولا ينخرم فإنه يؤكد هذه الوحدانية، فلو كان في الكون آلهة أخرى غير الله لفسد ذلك الكون، فوجود أكثر من إله سيجعل كلًّا منهم يريد أن يعلو فوق الآخرين ويريد أن يفرض كلمته وبالتالي

يفسد الكون ولا ينضبط لأن وجود أكثر من إله معناه أن قدرة ومشيئة كل إله على حدة ستكون قدرة ناقصة غير مُطلقة، والإله لا بد أن يكون مُطلق القدرة.

هذه مجموعة من صفات الإله والتي يستقل العقل بإدراكها إجمالًا والوصول إليها بمجرد النظر والتأمل في الكون والإنسان وسائر صور الحياة.

وتتأكد هذه الصفة كلما تقدم العلم والسقف المعرفي وأجهزة الرصد التي نرى بها ما لم نكن نراه من قبل وأيضًا باكتشاف الطبيعة والقوانين التي تحكمها.

وفي هذا الفصل سنعرض صفات الإله كما جاءت في الكتب المقدسة ثم نقوم بمقارنتها ومحاكمتها بصفات الكمال التي يدركها العقل بالضرورة عن الإله الحق لنرى أيها أكثر موافقة لهذه الصفات التي أسسنا لها عقلًا.

- **صفات الإله في العهد القديم:**

تحدّث العهد القديم بالطبع عن الإله وصفاته في مواضع كثيرة إمّا بالذكر المباشر لصفته أو من خلال عرض قصة أو موقف يدل على صفة من صفاته، وسأذكر هنا بعض تلك الصفات لإله العهد القديم مع ذكر الدليل على كل منها:

- **إله قومي عنصري** يُحابي أبناء سام بن نوح على أبناء حام بن نوح بدون أي ذنب منهم.

قضى وقرر إله العهد القديم أن يكون كنعان بن حام بن نوح وبنوه من بعده خدمًا لأسيادهم من بني سام!

فقد جاء في سفر الخروج أن نوحًا شرب الخمر حتى سَكر وتعرى، فرآه ابنه حام على هذا الوضع فما كان منه إلا أن أخبر أخويه سام ويافث بذلك، فذهب سام ويافث إلى نوح ووضعوا الرداء على أبيهما نوح، فلما أفاق نوح من سُكره أخبرهم بالوحي الذي نزل عليه من إلههم (إله العهد القديم) بأنه قضى وقرر أن يكون كنعان بن حام ملعون!

وما ذنب كنعان بذلك وهو ليس طرفًا في هذه القصة أصلًا؟!

ولماذا كنعان تحديدًا دون سائر إخوته من أبناء حام الذين أيضًا لا ذنب لهم؟! بل وما الذي فعله حام أصلًا حتى يُلعن؟!

ولماذا ترك إلهُ العهد القديم نوحًا الذي سكر وتعرى (بزعمهم وحاشاه) دون أي عقوبة، ثم لعن أحد أبناء حام بن نوح؟!

ثم لماذا قضى ذلك الإلهُ (وفق زعم اليهود) أن يكون أبناء كنعان بن حام خدمًا وعبيد العبيد لأبناء سام؟!

ودليل ذلك ما جاء في سفر التكوين (٩/ ٢٠-٢٧): {٢٠ وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا ٢١ وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ٢٢ فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا ٢٣ فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما ٢٤ فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ٢٥ فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته ٢٦ وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدًا لهم ٢٧ ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدًا لهم}.

ولذلك كثيرًا ما يُدندن اليهود في العالم الآن وخاصة يهود الكيان الصهيوني حول شعار معاداة السامية ليقفوا به في وجه شعوب العالم بأسره، وبالطبع يقف مُساندًا لهم شركاؤهم من البروتستانت.

ومن صور قومية وعنصرية إله العهد القديم أيضًا أنه يُحابي بني إسرائيل ويرى فيهم العلو والفوقية على باقي الشعوب حتى ولو أجرموا وتمردوا على أمر الله وهو ما وقع من اليهود فيما يعرف بعقيدة الاختيار (شعب الله المختار) وحلول الإله في شعب اليهود وفوقية العرق اليهودي على باقي الأجناس؛ ولذلك نجد أن الديانة اليهودية ديانة قومية مُقتصرة

على بني إسرائيل؛ وبالتالي ليس لديهم تبشير ودعوة للمخالفين إلى اعتناق اليهودية (بخلاف المسلمين والمسيحيين)!

- سفر التثنية (١٤/ ٢): {لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًّا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض}.
- سفر اللاويين (٢٠/ ٢٤): {أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب}.
- سفر اللاويين (٢٠-٢٦): {وتكون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب، وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي}.

• **إله ظالم دموي** يأمر بني إسرائيل بقتل كل من ليس منهم من باقي الشعوب، حيث أنهم يستحضرون حالة الصراع بينهم وبين بني كنعان في تعاملهم مع كل من ليس من بني إسرائيل ولذلك يسمونهم الأغيار أو الجوييم؛ ومن أمثلة ذلك:

- أمر الإله يشوع بن نون[1] أن يدخل ببني إسرائيل إلى عماليق (وهم الفلسطينيون وقتها) لا لدعوتهم إلى الدين الحق ولكن ليقوم بإبادة كاملة شاملة لكل مظهر من مظاهر الحياة، حتى الأطفال والنساء والشيوخ لم تسلم منهم بل حتى الحيوانات لم تسلم أيضًا!

سفر صموئيل الأول (٣/ ١٥): {فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا}.

سفر يشوع (٦/ ٢١): {وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف}.

والتحريم مصطلح توراتي معناه الإبادة التامة لكل مظاهر الحياة!

---

(١) نبي الله (يوشع بن نون) -الذي جاء ذكره في بعض أحاديث السنة النبوية وتحدث عنه القرآن الكريم في سورة الكهف حيث كان هو فتى موسى الذي رافقه قبل لقائه بالخضر عليه السلام- هو ذاته (يشوع) الذي تحدث عنه العهد القديم وأفرد له سفرًا خاصًا باسمه.

- أمر الإله بقتل الأطفال وشق بطون النساء!

هوشع (١٣-١٦): {تجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها، بالسيف يسقطون، تحطم أطفالهم والحوامل تشق}.

مزمور (١٣٧-٩): {طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة}.

أشعياء (١٣-١٥): {كل من وجد يطعن وكل من انحاش يسقط بالسيف ١٦ وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نسائهم ١٧ هأنذا أهيج عليهم الماديين الذين لا يعتدون بالفضة ولا يسرون بالذهب ١٨فتحطم القسي الفتيان ولا يرحمون ثمرة البطن. لا تشفق عيونهم على الأولاد}.

- يجعل الملك شاول يطلب من داود مهرًا في غاية القسوة والدموية، فقد طلب شاول (بعلم الرب) من داود مائةَ غُلفة[1] من الفلسطينيين لكي ينتقم منهم! فقام داود بقتل مائتين منهم وأحضر غلفهم، فيقول شاول بعدها إنه علم أن الرب مساند ومؤيد لداود!!

صموئيل الأول (١٨/ ٢٥-٢٨): {فقال شاول هكذا تقولون لداود: ليست مسرة الملك بالمهر، بل بمئة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك، وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين، فأخبر عبيده داود بهذا الكلام، فحسن الكلام في عيني داود أن يصاهر الملك، ولم تكمل الأيام حتى ذهب داود هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك، فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة، فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود..}.

والنصوص كثيرة جدًّا على تحريض إله العهد القديم بني إسرائيل على القتل والإرهاب واستباحة دماء كل من ليس منهم بل حتى الأطفال والنساء والشيوخ وشق بطون الحوامل

(١) الغُلفة والقُلفة: الجُليدة التي يقطعها الخاتن من غلاف رأس الذَّكَر. [انظر: التعريفات الفقهية (ص١٥٩)].

وإبادة كل مظاهر الحياة حتى الحيوانات!!

- **إله يتعب من كثرة العمل ويرتاح مثل البشر!**

حيث يصفه سفر التكوين أنه تعب بعدما خلق السماوات والأرض في ٦ أيام ثم استراح في اليوم السابع!

سفر التكوين (١/ ٢، ٣): {فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا}.

- **إله ينام كما ينام البشر!**

الزمور (٤٤/ ٢٣-٢٤) في الترجمة العربية المشتركة: {أَفِقْ، لماذا تنام يا رب؟! انهض لا تخذلنا إلى الأبد، لماذا تحجب وجهك عنا وتنسى ما نعاني من الضيق}.

- **إله يشبه البشر في أنه يجهل أشياء ويبدو له أشياء خلاف ما كان يظن ويعتقد، بل ويندم أيضًا على أفعاله؛** مثل:

- جهل الرب لمكان اختباء آدم في الجنة بعدما أكل من الشجرة حيث جاء في سفر التكوين (٣/ ٩): {فنادى الرب الإله آدمَ وقال له: أين أنت؟}.
- ندمه على أنه خلق الإنسان بعدما رأى كثرة فساده وشره، وكأن الرب يجهل كما يجهل البشر!

سفر التكوين (٦/ ٥): {ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثُر في الأرض، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه}.

- ندمه على تولية شاول ملكًا على إسرائيل!!

صموئيل الأول (٣/ ١٥): {والرب ندم لأنه ملَّك شاول على إسرائيل}.

- **إله يُصارع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من الليل حتى الفجر، والرب لا يستطيع الفرار من يعقوب حتى اضطر أن يعطيه البركة فأصبح يعقوب يُلقب بإسرائيل أو بالعبري (اصرع إيل) أي الذي صرع الرب!**

سفر التكوين (٣٢/ ٢٤-٣٠): {فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلًا لأني نظرت الله وجهًا لوجه ونجيت نفسي..}.

وهذا فيه وصفٌ للإله بالعجز وعدم القدرة بل وأنّ قدرة أحد خلقه وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فاقت قدرته!

- **إله العهد القديم يأمر نبيه هوشع بالزواج من زانية!**

فقد أمر الرب هوشع النبي بالزواج من امرأة زانية وقد جاء ذلك في سفر هوشع (١/ ٢): {أول ما كلم الرب هوشع قال الرب له: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب!}.

- **إله يُشجِّع على الخيانة والغدر والخداع للوصول إلى الأهداف والغايات:**

ويظهر ذلك بوضوح في سفر التكوين (الإصحاح ٢٧) والذي يتحدث عن قصة أخذ يعقوب للبركة من أبيه إسحاق بالخداع والمكر والكذب.

والقصة مفادها: إن إسحاق كان قد كبر في السن وفقد بصره، فأراد أن يُعطي البركة لابنه الأكبر عيسو، فطلب منه أن يذهب ليصطاد له ثم يجهز له طعامًا ويأتي به في نفس اليوم ليعطيه البركة.

سمعت ذلك زوجة إسحاق والتي كانت تفضل يعقوب عن أخيه عيسو، فتآمرت مع يعقوب لخداع إسحاق واتفقت معه بأن يقوم بتجهيز الطعام قبل أخيه عيسو، واتفقت معه أيضًا أن يضع على يديه فرو ماعز كي يجعل يديه الناعمتين تشبه ملمس يد أخيه عيسو الخشنتين من العمل.

وبالفعل حدث ذلك وأخذ يعقوب البركة من إسحاق بالكذب والخداع!

وعندما علم عيسو ما حدث طلب بركة أخرى من إسحاق، ولكن إسحاق أخبره أن يعقوب صار سيدًا له وأن عيسو سيصير عبدًا لأخيه![1].

هذه القصة هي في الحقيقة قصة محورية في الديانة اليهودية وفي العهد القديم حيث إن القصة تتكلم عن كيفية حصول يعقوب (إسرائيل) على البركة من أبيه إسحاق وبالتالي حصوله على التفضيل والاختيار الإلهي والذي امتد بعد ذلك إلى أبنائه (بني إسرائيل) ومنها إلى الشعب اليهودي المختار (وفق اعتقادهم)!

هذا الأمر بالطبع في غاية الخطورة ويؤسس إلى مجموعة من الاعتقادات الباطلة في حق الإله وفي حق أنبيائه؛ لأن الوسيلة التي انتهجها يعقوب للوصول إلى أمر مقدس كهذا -بل هو الأمر الذي كان سببًا في قداسة شعب بني إسرائيل وحلول الإله فيهم بزعمهم- كانت وسيلة قائمة على الكذب والخداع والميكافيلية، والغريب أن إله العهد القديم قد رضي بذلك وأقر يعقوب على بركته وصارت تلك القصة كلامًا مقدسًا وإلهامًا يرجعون إليه ويستلهمون منه كيفية الوصول إلى الأهداف والغايات![2]

---

(١) ولمن أراد الإطّلاع على القصة كاملةً سيجدها في سفر التكوين الإصحاح ٢٧.

(٢) هذا النص كما قلت هو في الواقع يؤسس للميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة) بامتياز من قبل أن يأتي ميكافيلي بكتابه الأمير بقرون طويلة، ولذلك ليس من المفترض أن نتعجب عندما نرى تلك الممارسات التي يمارسها الكيان الصهيوني من نقض العهود والمواثيق ومن الكذب والخداع والمكر فهذا -كما علمنا الآن- إن كان بدوافع علمانية برجماتية إلحادية عند البعض فهو عند البعض الآخر دين يدينون به إلى إلههم واتباع لسنة وطريقة نسبوها لأنبيائهم وتطبيق لما هو مكتوب في كتابهم المقدس.

إذن هذه هي صفات الإله في العهد القديم:

- إله قومي عنصري مُحابي لبني إسرائيل ومُنحاز إليهم على حساب كل الأجناس الأخرى بإطلاق دون النظر إلى استجابتهم لأوامره وعملهم بشريعته!.
- إله يُحرض بني إسرائيل على ظلم وقتل كل من ليس منهم، حتى الأطفال والنساء والشيوخ بل والإبادة التامة والتحريم التام لكل مظاهر الحياة حتى الحيوانات!
- إله جعل الخلاص فقط لبني إسرائيل وبالتالي فهو إله يتصف بالظلم.
- إله يتصف بصفات نقص مثل التعب والعجز والنسيان والبداءة والندم والجهل، وهو بذلك يُشبه المخلوقين في نقصهم.
- إله تحتويه الطبيعة ويحل في مخلوقاته وغير مباين لهم!
- إله يُشجع على الغدر والخيانة.

ومن هنا يتضح لنا أن صفات إله العهد القديم تتناقض تمامًا مع الصفات المُتصورة عن الإله الحق خالق الكون ومُبدعه ومُوجده من العدم والتي تم التأسيس لها من قبل، وبناء عليه فالعهد القديم ليس هو الكتاب الحقيقي المُعبر عن الإله الحق، وبالتالي اليهودية والمسيحية ليست هي دين الله الذي أنزله وارتضاه للناس أجمعين.

- **صفات الإله في العهد الجديد:** (وفق تفسير الكنيسة بمختلف طوائفها)(١):

تحدث العهد الجديد عن الإله وصفاته في بعض المواضع، ولكن نصوص العهد الجديد التي تتحدث عن الإله نصوص متشابهة وغير محكمة، فأقرت الكنيسة تصورات معينة عن ذلك الإله من خلال المجامع المسكونية التي كانت تقام لتقرير العقائد وقانون الإيمان المسيحي.

لذلك سأقوم بعرض بعض صفات الإله في المسيحية كما جاءت في الكتاب المقدس أو أقرتها الكنيسة من خلال العناصر الآتية:

- **إله مُتجسد ظهر في جسد المسيح وَحَلَّ به،** ولذلك يُسمون المسيح بالله الظاهر في الجسد.

وهذا هو اعتقاد المسيحيين في العالم بمختلف كنائسهم وطوائفهم وإن كان العهد الجديد ليس فيه نصٌّ قطعيٌّ في الدلالة على ذلك، وغاية ما هنالك نصوص ظنية في دلالتها قد يفهم منها ألوهية المسيح ولكن تقابلها نصوص محكمة الدلالة على بشرية المسيح وكونه في منزلة أدنى من منزلة الإله.

وهناك بعض النصوص في العهد الجديد يستدل بها النصارى على ألوهية المسيح

(١) الأمر هنا مع العهد الجديد مختلف قليلًا عن العهد القديم؛ لأن العقائد الكلية للديانة المسيحية لم تذكر صريحة في العهد الجديد ويصعب الاستدلال عليها، ولكن تم وضعها وتثبيتها على يد آباء الكنيسة الأوائل من خلال المجامع التي كانت تقام لتقرير قانون الإيمان المسيحي؛ لذلك نحن في هذا الفصل بصدد الحديث عن صفات الإله كما يؤمن بها المسيحيون اليوم بطوائفهم المختلفة لأن هذا هو تصور الإله في العقلية المسيحية والذي قد تكون في الأساس من خلال كلام وتفسيرات آباء الكنيسة حتى ولو خالف الكتاب المقدس.

وهذا يصدق فيه وصف الله تعالى لهم في القرآن: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١].

وكما جاء في الأثر أن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أحد صحابة النبي كان نصرانيًّا ثم أسلم- تعجب من تلك الآية وقال للنبي: لسنا نعبدهم (ظنًّا منه أن العبادة تعني السجود لهم والاعتقاد الصريح بأنهم آلهة)، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألم يحرموا الحلال ويحلوا الحرام فاتبعتموهم؟**» فأجابه عدي: نعم، فقال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فتلك عبادتهم**» [أخرجه الترمذي (٣٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣)].

ولكن في الحقيقة هذه النصوص ليست صريحة في إثبات الألوهية وفي المقابل هناك العديد من النصوص المحكمة والواضحة الدلالة على أن المسيح ليس إلّا بشرًا رسولًا، فعلى سبيل المثال يستدل النصارى بنص إنجيل يوحنا (٣٠/ ١٠) والذي يقول فيه المسيح: {أنا والآب واحد}، ويذكرون أنه نص مُؤسِّس لألوهية المسيح، وفي الحقيقة نجد أن النص يحتمل كون المسيح والآب واحد في الجوهر والطبيعة، ويحتمل أيضًا أنهما واحد في الطريق والمنهج، وهذا شبيه إلى نص القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، وأيضًا قول النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**» رواه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥)، وهذا بالطبع لا يعني أن النبي محمدًا مساوٍ لله في طبيعته و جوهره!

وفي المقابل إذا نظرنا إلى النصوص الدالة على بشرية المسيح في الأناجيل سنجدها واضحة وصريحة، فعلى سبيل المثال يقول المسيح في إنجيل يوحنا (٣/ ١٧) مخاطبًا الآب: {وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته!}.

وفي موضعٍ آخر من إنجيل يوحنا (٤٠/ ٨) يقول المسيح لليهود: {وأنتم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله}.

يقول المسيح أيضًا في إنجيل يوحنا (١٧/ ٢٠): {لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى ربي ولكن اذهبي إلى أخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم}.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ المسيح دائمًا ما يؤكد أنه في منزلة أدنى من منزلة الآب، فحتى موعد الساعة لا يعلم بها المسيح (الابن) ولا أحد من الملائكة، ولكن الآب فقط هو الذي يعلم كل شيء، وهذا بالطبع يحمل وصفًا للمسيح بالجهل بأمر غيبي عظيم، وهذا قطعًا ينقض ألوهيته من الأساس!

يقول في إنجيل مرقس (٣٢/ ١٣): {وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد،

ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب}.

نجد المسيح أيضًا حين كان مُعلقًا على خشبة الصلب -وفق اعتقادهم- ففي رواية إنجيل متى (٢٧/ ٤٦) سُمع صوته يخاطب الآب وهو يصرخ قائلًا: {إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟!}.

بل الأكثر من ذلك أنّ تلاميذ المسيح أنفسهم لم يفهم أحدٌ منهم أنّ المسيح هو الله أو ابن الله، ولذلك نجد بطرس كبير التلاميذ وصخرة الكنيسة يقول في شهادته أمام اليهود كما جاءت في سفر أعمال الرسول (٢/ ٢٢) عندما سألوه عن المسيح بعد اتهامهم له بالتجديف: {أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون}.

وأختم ذلك الحديث بهذا القول الهام للأنبا شنودة الثالث عندما سُئل سؤالًا مباشرًا عن كيفية تصديق لاهوت المسيح في حين أنه لم يقل عن نفسه إنه إله ولا قال للناس اعبدوني؟، فأجاب الأنبا شنودة الثالث قائلًا: لو قال عن نفسه إنه إله لرجموه، ولو قال للناس اعبدوني لرجموه أيضًا، وانتهت رسالته قبل أن تبدأ، إن الناس لا يحتملون مثل هذا الأمر، بل هو نفسه قال لتلاميذه في يوحنا (١٢/ ١٦): {عندي كلام لأقوله لكم، ولكنكم لا تستطيعوا أن تحتملوا الآن}[1].

وفي الحقيقة هذا الكلام لا يمكن أن يتصوره عاقل في سياق الحديث عن رسالة إلهية قد أنزلها الله ابتداءً كي تصل إلى خلقه بيضاء نقية واضحة بلا لبس أو غموض لتتحقق بها الحكمة الإلهية وتُقام بها الحُجة على العباد فيحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، ولا يكون لأحد حجة بعد الرسل. ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

---

(١) سنوات مع أسئلة الناس – أسئلة عقدية ولاهوتية – البابا شنودة الثالث (ص ٤٦، ٤٧).

بل إنّ الكتاب المُقدّس نفسه على لسان المسيح ينفي قيامه بكتمان أي أمر مُتعلّق بالدين والعقيدة وعدم إعلانه للناس بكل وضوح وذلك حين كان يخاطب المسيح الكهنة كما جاء في إنجيل يوحنا (٢٠/١٨): {أنا كلمت العالم علانية، أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل، حيث يجتمع اليهود دائمًا، وفي الخفاء لم أتكلم بشيء}.

وبذلك لا توجد أي صحة لكلام الأنبا شنودة، كما أنّه لا يستقيم ذلك التبرير الذي ذكره لا عقلًا، ولا نقلًا من خلال النظر في كُتبهم ذاتها.

- **إله مستحيل الوجود فهو واحد ولكنّه ذو ثلاثة أقانيم مُنفصلة مُستقلة (الآب والابن وروح القدس):**

حيث إن اعتقاد النصارى أو الإيمان المسيحي كما يُعرفونه هو أن: الآب إله كامل، والابن إله كامل، وروح القدس إله كامل، والآب ليس هو الابن وليس هو روح القدس.

ثم في النهاية يعتقدون أن: الآب والابن وروح القدس هم إله واحد!

وهم بذلك في حقيقة الأمر يؤمنون بثلاثة آلهة (وإن زعموا خلاف ذلك)، فهذه الأقانيم إما أنها صفات لذات واحدة، وبالتالي لن يكون كل أُقنوم ذاتًا مستقلة كاملة، وهذا القول بالطبع هم يرفضونه لأنهم يعتقدون أن كل أقنوم من الأقانيم إله كامل مستقل!

وإما أن تكون هذه الأقاليم ذواتًا منفصلة، وبالتالي نحن نتحدث عن ثلاثة آلهة ولكنهم أيضًا يرفضون ذلك لأن ذلك سيوقعهم في التناقض الصريح مع العهد القديم الذي يؤمنون به أيضًا والذي يتحدث عن إله واحد!

ولذلك نجد أن عقيدة التثليث تقع -ولا بد- إما في الشرك أو في المستحيل العقلي (اجتماع النقيضين)، وكلا الأمرين كافٍ لبطلان هذا الأصل الاعتقادي.

ولذلك فإن هذا الثالوث ليس له أي وجود إلا في ذهن وعقل من يؤمن به فقط من المسيحيين في العالم بمختلف كنائسهم وطوائفهم بل إنه حتى لا وجود له في الكتاب

المقدس بأكمله، فمع البحث والنظر نجد أن العهد القديم لم يذكر مطلقًا عقيدة التثليث على الرغم من مركزيتها وأهميتها كأصل اعتقادي في الإيمان المسيحي، كما أن العهد الجديد بأكمله لا يحتوي على أي نصوص صريحة تدل على الثالوث بخلاف نصين اثنين فقط أحدهما في إنجيل متى (٢٨/ ١٩) حيث يقول المسيح للتلاميذ بعد قيامته من بين الأموات -حسب اعتقادهم- واجتماعه بهم: {فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس}، وهذا النص كما هو واضح ليس صريحًا في ذكر عقيدة التثليث لأنه لم يذكر أن الثلاثة واحد، فالعطف لا يعني أنهم في النهاية شيءٌ واحد بل يعني أنهم ثلاثة، وذلك مثل قول الله تعالى في القرآن: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

فهذا لا يعني أن الملائكة وأولوا العلم آلهة مثل الله فضلًا عن أن يكونوا جميعًا إلهًا واحدًا في النهاية، فكيف فهم النصارى كل ذلك من نص إنجيل متى؟!

والنص الثاني في ذكر التثليث والذي كثيرًا ما يستدل به النصارى لأنه صريحٌ في ذكر الثالوث إلا أنه في الحقيقة نص دخيل وغير أصيل بشهادة علماء النقد الكتابي أنفسهم إذ يقولون أن هذا النص في رسالة يوحنا الأولى (٥/ ٧) والذي يقول: {فإنّ الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد} بخلاف أنه ليس من أقوال المسيح نفسه ولكنه قول ينسبونه إلى يوحنا الرسول إلا أنّه أيضًا ليس موجودًا في أي من النسخ اليونانية القديمة ولكنه أدخل بعد القرن السادس عشر[1] ولذلك كثير من النسخ الحديثة الموجودة الآن إما أنها تكتفي بذكر الجزء الأصلي فقط:

---

(١) وقد ذكرت (دائرة المعارف الكتابية - ٣/ ٢٩٥ - طبعة دار الثقافة) تعليقًا على هذه الزيادة في نص رسالة يوحنا الأولى: (وقد حدثت أحيانًا بعض الإضافات لتدعيم فكرٍ لاهوتي؛ كما حدث في إضافة عبارة: {والذين يشهدون في السماء هم ثلاثة}... حيث أنّ هذه العبارة لا توجد في أي مخطوطة يونانية ترجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر، ولعل هذه العبارة جاءت أصلًا في تعليق هامشي في مخطوطة لاتينية، وليس كإضافة مقصودة إلى نص الكتاب المقدس، ثم أدخلها أحد النساخ في صلب النص).

{والذين يشهدون هم ثلاثة} دون أي إشارة للزيادة المقحمة (مثل ترجمة الآباء اليسوعيين والترجمة الكاثوليكية وترجمة الأخبار السارة)، أو أنها تضع تلك الزيادة في الهامش (مثل الترجمة العربية المشتركة) أو تكتبها بين قوسين (مثل ترجمة الحياة) وذلك كما ذكرنا لأن تلك الزيادة المذكورة (وهؤلاء الثلاثة هم واحد)[1] لا وجود لها في أصل النسخ اليونانية القديمة التي تعتبر مصدرًا للترجمات والنسخ الحديثة، ولا يوجد تقريبًا إلا نسخة ترجمة الفانديك العربية هي التي وضعت ذلك النص في أصل الإنجيل، وقد وصل الأمر إلى أن قام عالم الفيزياء الشهير إسحاق نيوتن -وقد كانت لديه اهتمامات لاهوتية- بتصنيف رسالة شهيرة بعنوان: (وصف تاريخي لتحريف نصين مهمين من الكتاب المقدس: التثليث والتجسيد)[2]، وقد ذكر فيها نيوتن نقطة هامة وهي أن هذه الزيادة في نص رسالة يوحنا الأولى لم يأت ذكرها ولم تستخدم في أي مجادلات لاهوتية حول الثالوث من وقت جيروم[3] وحتى زمن طويل بعده على الرغم من أنه يعتبر النص الوحيد الصريح الدال على التثليث في الكتاب المقدس كما أنه أشهر النصوص وأكثرها استخدامًا من قبل المسيحيين للتدليل على التثليث في الأزمنة الحديثة![4]

(١) وهذا النص الموجود في النسخ القديمة دون الزيادة الدخيلة: (والذين يشهدون هم ثلاثة) ليس به أي إشكال وليس له أي علاقة بعقيدة التثليث وهو قريب جدًا من الآية القرآنية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، ومن الآية القرآنية الأخرى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٦٦].

(٢) وقد قام مركز نماء للبحوث والدراسات بترجمة هذه الرسالة للسير إسحاق نيوتن.

(٣) جيروم (٣٤٧-٤٢٠)م: هو أول من ترجم الكتاب المقدس من اللغة اليونانية والعبرية إلى اللغة اللاتينية، وتنسب إليه الترجمة اللاتينية الشهيرة التي تعرف بـ(الفولجاتا).

(٤) في رسالته المُعنونة بوصف تاريخي لتحريف نصّين مهمين من الكتاب المُقدّس: التثليث والتجسيد طبعة مركز نماء (ص ٥٦) يقول السير نيوتن: (أما الآن فالنص في فم كل شخص، ويُستخدم بشدة لإثبات الثالوث، وبلا شك كان السابقون سيستخدمونه بنفس الشكل إن كان موجودًا في كتبهم، ولم يُقابلنا هذا النّص ولو مرة واحدة في كل النزاعات والرسائل والخطب والكتابات الأخرى لليونانيين واللاتينيين)... =

خلاصة الحديث إن ذلك الأصل الاعتقادي وتلك العقيدة المركزية في الإيمان المسيحي -والتي تتحدث عن طبيعة الإله وحقيقته وأصل صفاته والتي لها أبعاد ولوازم ضرورية في تصور العبد لربه وعلاقته به- ليس لها أي ذكر ولا عليها أي دليل في العهد القديم بأكمله والذي كما نعلم يمتلئ بالحديث عن تفاصيل غير مهمة وذكر أمور ليس لها أي مردود أو أثر إيماني ثم في الوقت ذاته يغفل الحديث تمامًا عن حقيقة الإله وأهم صفاته!

كما أن تلك العقيدة أيضًا ليس لها أي ذكر في العهد الجديد إلا موضعين كما ذكرنا أحدهما منسوب للمسيح في إنجيل متى ولكنه ليس صريحًا مطلقًا في دلالته على التثليث بل إنه في الحقيقة لا يمكن الاستدلال به، والنص الآخر بخلاف أنه ليس من أقوال المسيح ذاته ولكنه منسوب إلى يوحنا الرسول فهو أيضًا نص به زيادة مقحمة غير أصيلة كما أوضحنا ذلك[1].

- **إله غير عادل**؛ فهو يُحاسب البشر على خطيئة لم يرتكبوها وهي خطيئة آدم عندما أكل من شجرة المعرفة (على حد قولهم) ومنها توارثت الخطيئة إلى كل بني آدم من بعده،

= ثمّ يُكمل قائلًا: (كتابات هؤلاء في ذلك العصر كانت كثيرة جدًا وغزيرة، ولا يوجد أي موضوع أو نص كتابي إلا وناقشوه مرات ومرات، فنص {أنا والآب واحد} في إنجيل يوحنا نجده مذكورًا في كل مكان، بعكس نص الثلاثة الذين في السماء وأنّهم واحد، فلا نجده في موضع واحد حتى عهد طويل حين جاءت عصور الجهل فبدأ يتسلل تدريجيًا إلى النسخ اللاتينية من خلال نسخة جيروم، حتى أنهم حين كانوا يقتبسون شهادة {الثلاثة في السماء} في كل مناسبة لذكر هذا النّص كانوا يقومون بحذفه، وهذا أيضًا كان قبل عصر جيروم كما كان في عصره وبعده أيضًا).

(١) ويجدر بنا هنا التأمّل في عقيدة التوحيد المركزية في الإسلام (والتي نستطيع أن نقول أنها توازي في أهميتها عقيدة التثليث في المسيحية فكلاهما يمكن اعتباره أصل أصول الإيمان والاعتقاد وأصل صفات الإله في الدين الخاص به) تجدها موجودة في القرآن كله من أوله إلى آخره، فهي العقد الناظم الذي يربط آي القرآن جميعًا في ميثاق غليظ محكم، فالقرآن كله توحيد لأنه إما حديث عن أهمية توحيد الله وكيفية تحقيقه على الوجه الصحيح أو حديث عن نبذ الشرك والتعدد أو حديث عن الرسل وكيف أن التوحيد هو دعوتهم الأولى للبشر ثم حديث عن عاقبة وجزاء الموحدين في الدنيا وما ينتظرهم من النعيم في جنة الآخرة وأيضًا عاقبة ومصير من رفض التوحيد في الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة وهكذا الأمر يسير في القرآن بهذا الوضوح والاتساق والتراتبية.

فأصبح الأصل في الإنسان الإدانة والشر والهلاك باستثناء فقط من آمن بأن الإله تجسد وتأنس في شخص يسوع المسيح ومات على الصليب فاديًا ومُخلصًا لبني آدم من خطيئتهم الموروثة (التي لم يرتكبوها)!، وهذا التصور لخلاص الإنسان هو عقيدة محورية بل هو أساس التصور والسردية المسيحية فيما يُعرف بعقيدة الخطيئة والفداء، وتحمل تلك العقيدة كما هو واضح وصفًا صريحًا للإله بالظلم لأنه كما ذكرنا يحاسب البشر على أخطاء لم يرتكبوها كما تحمل أيضًا أوصافًا لا تليق بالذات الإلهية كالتجسد فى هيئة بشرية مع الاتصاف بكل صفات النقص البشري من ضعف وعجز واحتياج لضروريات الحياة كالأكل والشرب والخلاء بل والتعرض للإهانة من اليهود والرومان حتى وصل الأمر إلى أن بصقوا في وجهه قبل أن يقتلوه مصلوبًا متروكًا هكذا أمام الناس!

وعلى الرغم من مدى مركزية عقيدة الفداء في السردية الكونية لدى الديانة المسيحية وعلى الرغم من ادعائهم أن مصير البشرية بأكمله متعلق بالإيمان بها إلا أنها غير مُؤسَس لها التأسيس الكافي الموازي والمتسق مع تلك المركزية!، حيث نجد أن الأدلة الكتابية التي يستدل بها المسيحيون على عقيدة الخطيئة والفداء من العهد القديم ليست أدلة محكمة واضحة في دلالتها، كما أن أدلتها من أقوال المسيح (في أناجيل العهد الجديد) أيضًا غير صريحة وغير محددة في أن الصلب كان تحديدًا من أجل حدوث المغفرة من خطيئة آدم الأصلية وبذلك لا يمكن الاعتماد عليها، وذلك مثل ما جاء في إنجيل متى (١/ ٢١) حين يقول: {فتلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم}، ومثل ما جاء في إنجيل يوحنا (٣/ ١٦): {لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية}، ومثله أيضًا ما جاء في إنجيل متى (٢٠/ ٢٨): {كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليَخدِم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين}، وتلك النصوص -كما هو واضح- إما أنها تحمل معنى عامًا؛ فالمسيح بطبيعة الحال كغيره من الأنبياء

جاء ليرشد الناس إلى كيفية الخلاص من الشرك والخطايا بطاعة الله وحده واتباع أوامره وهذه المهمة -مهمة النبوة والبلاغ عن الله- تتطلب جهدًا كبيرًا ومشقة بالغة لما يلاقيه الأنبياء من التحديات الهائلة والابتلاءات الشديدة، فالنبي بهذا المعنى بعثه الله ليكون خادمًا لا مخدومًا، ومضحيًا فاديًا بوقته ومتاع حياته لإنقاذ الناس من عذاب يوم شديد.

وبذلك لا نجد ذكرًا صريحًا مباشرًا لعقيدة المسيح الفادي للبشرية من الخطيئة الأصلية إلا في رسائل بولس في العهد الجديد، فهو الذي ابتدع فكرة العلاقة الإلزامية بين حدوث المغفرة وسفك الدم، فلا تحدث مغفرة من الخطايا إلا بسفك الدم، وهذه الفكرة بالطبع مناقضة تمامًا للعهد القديم الذي أشار في نصوص عدة إلى إمكانية حدوث المغفرة من الرب دون قتل أو سفك دماء في المقابل؛ فالله إذا أراد أن يعفو عفا والله أيضًا يغفر خطايا التائبين كما يقول سفر حزقيال (١٨/ ٢١-٢٢): {فإذا رجع الشّرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفِظ كلّ فرائضي وفعل حقًا وعدلًا فحياةً يحيا لا يموت؛ كلُ معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه في بِرّه الذي عمل يحيا}. وكما جاء في سفر حزقيال (١١/ ٧): {ليترك الشّرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا فإنه يكثر الغفران}.

وبذلك يتضح لنا (كما ذكرت) أن تلك العلاقة الشرطية بين مغفرة الله للبشر جميعًا من درن خطيئة آدم الأصلية وبين سفك الدم بحيث إنه لن يغفر الله تلك الخطيئة التي التصقت بجميع بني آدم إلا بحدوث القتل أو سفك الدم هي علاقة لم يكن لها أي وجود أو تأسيس كتابي قبل بولس، وبذلك يكون المؤسس الفعلي لعقيدة الخطيئة والفداء هو بولس شاول.

يقول بولس في رسالته إلى العبرانيين (٩/ ٢٢): {وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة}.

ويقول في رسالته إلى أهل رومية (٥/ ١٠): {أنّه إن كنّا ونحن أعداءٌ قد صُولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيرًا ونحن مصالحون نخْلُصُ بحياته}!

ثم يؤكد ذلك أيضًا في رسالته إلى أهل كورنثوس الأولى (٢/ ٢): {أنِّي لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلا يسوعَ المسيح وإيّاه مصلوبًا}.

هناك مسألة تجدر الإشارة إليها أيضًا وهي أنه وفقًا للأناجيل لم يحضر أحد من تلاميذ المسيح واقعة الصلب وبالتالي ليس هناك نقل صحيح متصل عن تلك اللحظة التاريخية الفارقة يمكن الاعتماد عليه، فقد جاء في إنجيل مرقس (١٤/ ٥٠) أنه قال: {فتركه الجميع وهربوا}، واصفًا ما حدث من التلاميذ عند قدوم حرس الهيكل ليأخذوا المسيح للمحاكمة عند رؤساء الكهنة وعند بيلاطس بعد وشاية يهوذا، وكانت تلك المحاكمة هي التي حكم عليه فيها بالصلب، ويصف أيضًا إنجيل مرقس موقف بطرس (صخرة الكنيسة) في تلك الليلة حيث أنكر المسيح ثلاث مرات تزامنًا مع صياح الديك مرتين متتاليتين؛ وقد أكد أيضًا إنجيل متى (٢٦/ ٥٦) ذلك الموقف من التلاميذ في واقعة الصلب حيث تركوه وهربوا ولم يشهد أحد منهم الواقعة إذ يقول: {حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا}.

- **يصف العهد الجديد الإله بأنه خروف**؛ فكما جاء في سفر رؤيا يوحنا (١٧/ ١٤): {هؤلاء سيحاربون الخروف، والخروف يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك}!

  وهذا الوصف قطعًا لا يليق بالإله حتى لو من باب التشبيه.

- **إله قومي عنصري**؛ فكما جاء في قصة المرأة الكنعانية التي وردت في إنجيل متى (١٥/ ٢١-٢٨) وإنجيل مرقس (٧/ ٢٤-٣٠) حيث سجدت للمسيح وسألته أن يعطيها حاجة ويساعدها، فلم يجبها إلى حاجتها ورد عليها ردًّا صادمًا فقال لها: {ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب}!، وهذا القول عند النصارى هو قول الإله ذاته لأن المسيح كما يعتقدون هو الله الظاهر في الجسد وهو أقنوم الكلمة،

وبذلك يكون النص فيه وصف للإله بالظلم والعنصرية وخاصة ضد الكنعانيين لسبب غير مفهوم لأن المسيح وصف الكنعانيين ومعهم تلك المرأة بالكلاب، ولكنها ردت على يسوع بكل ذل وخذلان قائلة: {نعم يا سيدي حتى الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها}، حينها قال المسيح قولته الشهيرة: {لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة}.

وفي الحقيقة هذا النص يهدم عقيدة الفداء لديهم؛ إذ إن اعتقادهم أن المسيح الفادي -الإله المتجسد عندهم- نزل ليخلص البشرية من الخطيئة بالرغم أنه في ذات الوقت لم يبعث إلا إلى بني إسرائيل!

وهذا النص يؤكد أن الدين المسيحي دين قومي مقتصر فقط على بني إسرائيل، وبهذا فإنه يهدم عقيدة الفداء من أساسها ويهدم فكرة الديانة المسيحية بأكملها، ولكن كما قلنا إن الذي أسس للعقائد اللاهوتية المسيحية هو بولس شاؤول وليس المسيح، ومن تلك التصورات التي استخدمها بولس فكرة عالمية الديانة المسيحية.

- **إله العهد الجديد يتصف بجميع صفات النقص البشري**؛ فهو قد وُلد في رحم مريم وظلّ في أحشائها حتى خرج إلى الدنيا وصار طفلًا رضيعًا يلتقم ثدي أمه ثم يأكل ويشرب ويدخل الخلاء، ثم يعيش مستضعفًا طوال حياته حتى تسلط عليه اليهود فعذبوه وأهانوه وبصقوا على وجهه ثم قتلوه مصلوبًا!

وكل تلك الصفات هي صفات نقص لا تليق في حق الله.

إذن هذه هي بعض صفات الإله كما جاءت في العهد الجديد:

- إله مُتجسد يحل في البشر.
- إله متصف بكل نقص بشري يُصيب الإنسان.
- إله له ثلاث ذوات منفصلة كاملة، وهذا شرك بالله صريح.

- إله يستحيل وجوده في الواقع أو حتى مجرد تصوره في الذهن لما تحمله عقيدة التثليث من صفة التناقض التي يستحيل معها الجمع، فهم ثلاثة آلهة كاملة ولكنهم أيضًا إله واحد فقط! (١)
- إله مات وصُلب على الصليب!
- إله ملعون! لأن العهد القديم -الذي يؤمن به النصارى كجزء من كتابهم المقدس- يصف من تعلق على خشبة الصليب أنه ملعون كما جاء في سفر التثنية (٢١/ ٢٢-٢٣): {وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقُتل وعلقته على خشبة؛ فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المُعلق ملعون من الله فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا}، بل ولقد ذكر بولس

(١) يمكن تقسيم الأشياء من ناحية الوجود والعدم إلى أربعة أقسام: الأول: الأشياء التي لها وجود وتصور داخلي في الذهن (ذاتي) كما أن لها وجود حقيقي خارجي في الواقع (موضوعي) ومثاله: كل ما هو موجود أمامنا في الحياة كالإنسان والحيوان والنبات والجمادات وغيرها، والقسم الثاني: الأشياء التي ليس لها وجود خارجي موضوعي ولكن لها تصور داخلي في الذهن المجرد أي أن وجودها ممكن إلا أنه ليس هناك أي دليل عليه مثل وجود الإنسان الخارق (السوبرمان) والحصان ذو الجناحين وعروسة البحر والقسم الثالث: ما له وجود حقيقي ولكن ليس له تصور في الذهن مثل كيفية صفات الله كصفة اليد والوجه وغيرها والتي نؤمن بأنها موجودة بالفعل ولكن لا نملك لها أي كيفية أو تصور ذهني -في الدنيا على الأقل- ونفوض علم كيفيتها إلى الله تعالى، ثم يأتي القسم الرابع: وهي الأشياء التي ليس لها وجود واقعي كما أن ليس لها أي تصور ذهني، وهذا القسم الرابع يختلف عن الأقسام الثلاثة السابقة لأن الأقسام السابقة جميعها تدخل في حيز الإمكان (إمكان الوجود أو الحدوث) حتى لو كان مجرد إمكانًا ذهنيًا نظريًّا، ومثل هذا يمكن أن يوجد في الدين الحق لأنه ليس مستحيلًا ولكنه فقط قد يكون مُحيرًا أحيانًا مثل وجود الملائكة أو الجن، لكن القسم الرابع فهو ما نسميه بالمستحيل أي لا يمكن وجوده بأي حال من الأحوال وهذا بالطبع لا يمكن أن يوجد في الدين الحق، ومن الأمثلة عليه اجتماع النقيضين كأن يكون الشيء موجودًا وغير موجودٍ في نفس الوقت ونفس المكان أو أن الشيء موجودٌ في مكانين مختلفين في نفس الوقت أو أن [١+١+١=١] أو أن الجزء أكبر من الكل!
وبذلك تكون عقيدة التثليث من النوع الرابع (المستحيل وجوده نظريًّا في الذهن وعمليًّا في الواقع) لما تحمله -كما ذكرنا- من اجتماعٍ للنقيضين.

في رسالته إلى أهل غلاطية (٣/ ١٣) ذلك الوصف للإله باللعن بشكل أكثر وضوحًا وصراحة حين قام بإسقاط ذلك النص العام في سفر التثنية على شخص المسيح ذاته فقال: {المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلق على خشبة} !

- إله ظالم يُحاسب البشر على خطيئة لم يرتكبوها !
- إله عاجز لم يستطع أن يغفر خطيئة آدم على الرغم من أنه يريد أن يغفرها، ولم يجد لذلك حلًّا إلا أن ينزل هو بنفسه إلى الأرض ويتجسد في شخص المسيح ويُقتل بالصلب ليُقدم نفسه فداء للبشرية من تلك الخطيئة!

بناء على كل ذلك فإنه يتضح لنا أن صفات إله العهد الجديد تتناقض تمامًا مع تلك الصفات المُتصورة عن الإله الحق خالق الكون ومُبدعه ومُوجده من العدم والتي تم التأسيس لها من قبل في مطلع ذلك الفصل.

إذن العهد الجديد ليس هو الكتاب الحقيقي المُعبر عن الإله الحق، وبالتالي المسيحية ليست هي دين الله الذي ارتضاه وأنزله على الناس أجمعين.

- ملاحظة:

هناك نقطة هامة تدعو للتأمل والتفكر وهي أننا نجد أن صفات الإله في العهد القديم تختلف جملة وتفصيلًا عن صفات الإله في العهد الجديد على الرغم من أن كلا العهدين يؤمن بهما النصارى على اعتبار أنهما وحي إلهي مُعبر عن إله واحد!

فمثلًا نجد إله العهد القديم يتصف بالعنصرية والدموية حيث يُحرض على قتل الأغيار أو الجوييم -كما يسميهم اليهود- ويأمر في نصوص كثيرة بإبادتهم مثل أمره ليشوع بأن يدخل عماليق ويقوم بتحريمهم وإبادتهم وباتخاذهم عبيدًا ولا يستثني من ذلك امرأة ولا طفلًا ولا شيخًا ولا حتى حيوانًا!

في حين أننا في الجانب الآخر نجد أن إله العهد الجديد يتصف بالسلبية والخنوع والضعف والاستسلام للظلم والفساد، ويتجلى ذلك في القول المنسوب ليسوع المسيح في إنجيل متى (٥/ ٣٩): {وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر} !

وأتعجب هنا أشد العجب من عقل المسيحي الذي يجمع بين تلك النصوص المتناقضة ويؤمن بأن مصدرها في النهاية إله واحد!

- **صفات الإله في القرآن:**

- **إله واحد لا شريك له.**

في الحقيقة القرآن مليء بآيات التوحيد الخالص، والأدلة فيه على وحدانية الله ونفي الشرك أكثر بكثير من أن يتم حصرها ولذلك سأذكر فقط بعض الأمثلة:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

كما أن القرآن أيضًا نزَّه الإله عن الأوصاف الشركية التي وصفه بها الكتاب المقدس مثل ألوهية المسيح والتثليث وغيرها من أوصاف الشرك المنافي للتوحيد:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١].

وذكر القرآن أيضًا الأدلة والأقيسة العقلية على استحالة تعدد الآلهة –والذي يسميه البعض بدليل التمانع– وضرب لذلك عدة أمثلة:

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١].

- **إله منزه عن كل نقص.**

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤].

وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠].

- **إله لم يلد ولم يُولد.**

قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣].

وقال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٠١].

- **إله يتصف بالقدرة المطلقة المنافية للعجز.**

قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ [المائدة:١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ [فاطر:٤٤].

- **إله يتصف بالعدل المنافي للظلم.**

قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [يونس:٥٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾ [النساء:٤٠].

- **إله للناس جميعًا غير قومي ولا عنصري.**

فهو إله لا يُحابي أحدًا على حساب الآخرين بل يدعو الناس جميعًا للتعارف دون تمييز بسبب لون أو عرق أو جنس وبيّن أن التفاضل بينهم يكون بالتقوى والإيمان والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ [الإسراء:٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣].

- **إله غير ظالم لا يُحاسب أحدًا بذنب أو بخطيئة لم يفعلها.**

والقرآن بذلك يُنزه الإله من صفات الظلم التي نسبها إليه النصارى من خلال عقيدة الخطيئة الأصلية المتوارثة.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

- **إله خلق الإنسان على الفطرة والخير ولا يُحاسبه إلا بما ارتكبه الإنسان من شر وفساد.**

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

وعلى خلاف المسيحية أيضًا فالإله في القرآن خلق الإنسان على الفطرة وجعل الأصل فيه الخير والخلاص والنجاة، وليس الأصل فيه الشر والخطيئة.

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

- **إله منزه عن التعب والاحتياج للراحة،** بل ويرد القرآن على ما نسبه إليه العهد القديم في سفر التكوين عندما تحدث عن خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم راحته في اليوم السابع!

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨].

واللغوب هو التعب والإرهاق.

- **إله يتصف بالعلم الواسع المنافي للجهل** فلا يخفى عليه شيء.

قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران:٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس:٦١].

- **إله لا ينسى شيئًا.**

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة:٦].

وبهذا يتبيّن لنا أنّ أولى أولويات القرآن هو تصحيح التّصوّر عن الله وصفاته فهو داخل ضمن حفظ الدين ورسالة التوحيد، ولذلك فإن حركة التصحيح القرآني هذه تدور بين إثبات صفات الكمال المُطلق لله تعالى وبين نفي صفات النقص التي لا تليق في حقه سبحانه وتنزيهه عن أي مُماثلة لأحدٍ من خلقه؛ فقد بيّن سبحانه منهجيّة القرآن في التعامل مع صفاته إثباتًا وتنزيهًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الله عَزَّوَجَلَّ لم يُوصف مُطلقًا في أي كتابٍ موجودٍ في العالم الآن بمثل ما وُصف به في القرآن من صفات الكمال المطلق المُنزّه عن كل نقص وعيب، وقد اعتنى القرآن بالحفاظ على قضية صفات الإله في صورتها التنزيهية النقيّة دون أن يلحق بها أي محاولة من محاولات العبث البشري بالتأويل الفاسد أو التشبيه بأحدٍ من خلقه أو التكييف بأي صورةٍ كانت، فالله وفق التصور القرآني كما قلنا ليس كمثله شيء، وإذا كان القرآن قد أثبت لله تلك الصفات التي أثبتها هو لنفسه في كتابه ومن خلال رسوله فإنّ ذلك من تمام الكمال على ما يليق به سبحانه حتّى لو كانت تلك الصفات ممّا يشترك الإنسان في إمكانية الوصف بها -بما يليق به كمخلوق- كالوجود والحياة والرحمة والقدرة واليد والوجه وغيرها لأنّ مُجرّد الاشتراك في الأسماء لا يلزم منه بالضرورة اشتراكًا في الحقائق، ولذلك احترز القرآن كثيرًا لذلك ومنع الفهم الخاطئ أو التأويل الفاسد بوضع تلك الإشارات والضوابط التنزيهية مثل: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، و﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك:

«وأعظم المطالب العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه، وهذا كله لا تنال خصائصه لا بقياس الشمول ولا بقياس التمثيل، فإنّ الله تعالى لا مثل له فيُقاس به، ولا يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، فلهذا كانت طريقة القرآن -وهي طريقة السلف والأئمة- أنّهم لا يستعملون في الإلهيّات قياس تمثيل وقياس شمول تستوي أفراده، بل يستعملون من هذا وهذا قياس الأولى، فإنّ الله له المثل الأعلى»[1].

وعدم وجود ضوابط واضحة تحفظ التصور الذهني عن الخوض في الإله وحقيقته وصفاته سيفضي بالضرورة لما وجدناه من بُطلانٍ وفسادٍ في التصوّرات البشريّة للإله عبر التاريخ الإنساني المكتوب بدءًا من الفلسفات القديمة كالإغريقية والفرعونيّة والفارسية والصينية وغيرها حيث الحديث عن صراع الآلهة المادّية المُجسّمة وزواج الآلهة وغدرها بل وموتها وغيرها من صفات النقص البشري، ثمّ الأديان والكتب المُحرّفة كالكتاب المُقدّس -كما بيّنا آنفًا- وما فيه من وصف لا يليق بالإله.

إذن تحدثت في هذا الفصل عن المعيار الأول من معايير مقارنة الأديان وخَلُصت منه إلى أنّ هذه الصفات التي وصف بها القرآن الإله تتسق تمامًا مع الصفات المُتصوّرة عن الإله خالق الكون البديع الغاية في الدقة والإحكام والتي تم التأسيس لها عقليًّا في بداية ذلك الفصل.

وبذلك أستطيع القول أنّ معيار صفات الإله الحق ومقارنتها بما وَصَفَتْ به كتب الأديان الأخرى ذلك الإله يؤكّد بما لا يدع مجالًا للشك بأن الكتاب الوحيد الذي وصف

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٢٢-٣٢٣).

الإله بتلك الصفات التي تليق به والتي ينتظر الإنسان السوي ذو الفطرة السليمة أن يسمعها ويتلقاها عن خالقه وخالق ذلك الكون البديع من حوله هو القرآن العظيم.

إذن معيار صفات الإله يؤكّد أنّ القرآن هو كلمة الإله، وأنّ الإسلام هو دين الله حقًّا.

الفصل الثاني

صفات الأنبياء

وهو ثاني المعايير المُميِّزة لصحة الرسالة الإلهيّة، وذلك عن طريق عقد مقارنة بين القرآن والعهد القديم والعهد الجديد من خلال الحديث عن صفات الأنبياء في كل كتاب ومقارنتها بالصفات البدهية المُتصوَّرة بالضرورة والمُنتَظَر سماعها عن الأنبياء الذين اختارهم الإله ليكونوا قدوةً للبشرية ونموذجًا عمليًّا للوحي الإلهي على الأرض.

إنّ الإله المُتَّصِف بكل صفات الكمال ومنها كمال الحكمة والقدرة عندما أراد أن يُرسل رسالته إلى طائفةٍ من الناس أو إلى الناس أجمعين فإنه أنزلها إليهم من خلال شخصٍ بشري مثلهم ومُركَّب من نفس طبيعتهم حتى يكون نموذجًا عمليًّا وتطبيقًا واقعيًّا للرسالة أو الوحي الذي معه في أنقى صوره البشرية فلا يكون بعدها للناس حُجة عند الله يوم القيامة إذا لم يقتدوا به ويسيروا على نهجه؛ ولهذا لم يُرسل الله إلى الناس ملائكة لا لأنهم معصومون عمليًّا من الزلل، ولكن لأن طبيعتهم أصلًا تختلف تمامًا عن الطبيعة البشرية.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥]، ولذلك أرسل الله أنبياء بشريين ليمثلوا قمة الكمال البشري الذي يمتلك أسباب الشهوة ولكنه ينأى بنفسه بعيدًا عنها وعن أسبابها بإرادته التي هداها الله ووفقها لطاعته وبلاغ رسالته؛ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن:٢١-٢٢].

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢].

إذن من المنطقي أن تكون الصفات المُتصورة عن الأنبياء الذين اختارهم الله وارتضاهم قدوة للبشرية هي أفضل صفات ممكن أن يتحلى بها بشر وأن يكونوا ذروة الكمال البشري لتتحقق الغاية من الرسالة وليثق الناس بهم ويكونوا على يقين من صدقهم في دعواهم النبوة ولكيلا يلتبس على الناس الحق والباطل.

فإذا كان الإله عليمًا يستطيع أن يصطفي بعلمه أفضل البشر على مر التاريخ.

وإذا كان الإله حكيمًا لا يريد شرعًا إضلال العباد ولا يرضى التلبيس عليهم بل يختار بحكمته أكثر الناس توافقًا ومناسبة مع مقام النبوة.

وإذا كان الإله قادرًا يستطيع إنفاذ ما يريده بعلمه وحكمته.

فلماذا إذن قد يظن أحد أن الإله يختار من هم دون ذروة الكمال البشري ليكونوا سفراءه على الأرض إن جاز التعبير؟!

من يظن ذلك فقد طعن في حكمة الله أو علمه أو قدرته أو فيهم جميعًا.

لأن حسن صفات الأنبياء وطيب سيرتهم لهي من لوازم علم الله وحكمته وقدرته؛ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وبالجمع بين الضرورة العقلية القائلة بحسن صفات الأنبياء وكمالهم البشري وبين كونهم في النهاية بشرًا مخلوقين من نفس الطبيعة البشرية الناقصة فإننا نستطيع أن نقول إن كان العقل البشري يجوِّز أن يصدر من النبي بعض الأخطاء البسيطة والتي لا تقدح في السيرة العامة للنبي ولا يمكن تصنيفها أنها أخطاء مزرية ولا تنقص من جناب النبوة إلا أن هناك قدرًا من الصفات المشتركة بين رسل الله والتي لا يمكن بحال أن تنخرم ولو لمرة واحدة وهي بمثابة الحد الأدنى من الصفات التي لا بد أن يتصف بها الأنبياء والرسل، والتي يجب توفرها بالضرورة في الكتاب المنزل حقًّا من الله والتي أيضًا ينتظر الإنسان

السوي سماعها في رسالة الله إليه[1]؛ وهي:

- أن يكونوا مُتصفين بالتوحيد وعدم الشرك.
- تعظيم أوامر الله وعدم تعمُّد مخالفته.
- عدم ارتكاب الكبائر والفواحش وعدم ارتكاب الأفعال المُشينة والمزرية التي تُنفر الناس منهم وتُضعف ثقتهم فيهم.
- أن يتصفوا بالتزام الصدق والأمانة والعفة وحسن السيرة واجتناب الكذب والغدر والخيانة وسوء السيرة.

هذا هو الحد الأدنى من صفات أنبياء الله الذين اصطفاهم على سائر الناس جميعًا.

فإذا كنا نجد من عوام البشر على مر التاريخ من يتصف بكل هذه الصفات الحميدة، فإن اتصاف أنبياء الله بها لهو من باب أولى.

بعدما قررنا الخطوط العامة لتلك الصفات التي من المُفترَض أن يتصف بها رسل الله، فقد آن الأوان أن ننظُر في وصف الكتب المقدسة للأنبياء حتى نرى أيها أكثر موافقة لهذه الصفات التي أسسنا لها.

- **صفات الأنبياء في العهد القديم:**

- يصف نبيَّ الله نوحًا بأنه شرب الخمر وسكر وتعرى تمامًا حتى كُشفت عورته ثم رآه ابنه حام (أبو كنعان)!؛ فكما جاء في سفر التكوين (٩/ ٢٠-٢٤) يتحدث الإله حاكيًا عن نوح فيقول: {٢٠ وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا ٢١ وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ٢٢ فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا

(١) لاحظ أننا في هذا الفصل لا نحكم على صحة النبوة من خلال النظر في صفات النبي فلهذا موضع آخر ذكرناه سابقًا في الحديث عن ظاهرة النبوة، ولكننا هنا نحكم على صحة الدين والكتاب من خلال النظر في صفات الأنبياء فيه.

٢٣ فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما ٢٤ فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير}.

- يصف نبي الله لوطًا بأنّه زنى بابنتيه بعدما أسقياه خمرًا، الكُبرى ثمّ الصُغرى في الليلة التي تليها!؛ فكما جاء في سفر التكوين (١٩/ ٣٠، ٣٨): {٣٠ وصعد لوط من صُوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صُوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه ٣١ وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض٣٢ هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيي من أبينا نسلًا ٣٣ فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ٣٤ وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنُحْيي من أبينا نسلًا ٣٥ فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ٣٦ فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ٣٧ فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه مُوآب، وهو أبو المُوآبيين إلى اليوم ٣٨ والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بِنْ عمي، وهو أبو بني عَمونَ إلى اليوم}.
- يصفُ نبيَّ الله داود بأنّه قد زنى بزوجة أحد جنوده ويُدعى أُوريا ثمّ ساهم في قتله بعد ذلك خوفًا منه ومن الفضيحة عندما حَمَلَت زوجته؛ حيث يحكي العهد القديم في سفر صموئيل الثاني أنّ داود (ملك مملكة إسرائيل) والذي له أهمية كبيرة عند اليهود كان قد نظر إلى زوجة أحد جنوده والذي يُدعى (أوريا) وهي تستحم عارية، فاشتهاها وطلب من خدمه إحضارها فأحضروها وزنى بها، ثم أرسل إلى هذا الجندي أوريا زوجها لكي يحضر من الجهاد حتى يجامعها لكيلا تأتي بعد ذلك فيجدها حاملًا من داود، ولكن الجندي رفض أن يأتي أهله تلك الليلة لأنه ترك إخوانه يجاهدون في

سبيل الله، فسقاه داود خمرًا حتى يسكر ويجامع زوجته ولكنه لم يفعل حتى بعدما شرب الخمر، فلم يجد داود بدًّا من أن يُرسله إلى ساحة من ساحات القتال شديدة البأس حتى يُقتل فيها وقد حدث بالفعل ما أراد وقُتل أوريا وتزوج داود من هذه الزانية وأنجب منها سليمان النبي الحكيم!

فقد جاء في سفر صموئيل الثاني (١١/ ٢-١٧): {وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إلي أوريا الحثي. فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك، فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل، وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن

رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا}.

- يصف نبيَّ الله سليمان الحكيم بأنّه أشرك بالله في شيخوخته بسبب زوجاته المشركات حتى بنى لهن معابد للآلهة التي يعبدوها!؛ فقد جاء في سفر الملوك الأول (١١/ ٣-١١): {وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب}.
- يصف نبيَّ الله يعقوب بالمكر والخداع والكذب في مواضع كثيرة من العهد القديم؛ فعلى الرغم من مدى المكانة والمركزيّة التي يتميّز بها يعقوب في الديانة اليهودية والكتاب المُقدّس إلّا أنّه في الحقيقة النّبي صاحب النصيب الأكبر من الصفات السيئة التي يستقبحها عامة النّاس فضلًا عن فُضلائهم وخِيارهم، ومن أمثلة ذلك قصة سرقته للبركة من أبيه إسحاق بالكذب والخداع[1] لأنّ أخيه عيسو هو الابن البكر لإسحاق ولذا كانت البركة من حقه وفق روايات العهد القديم المُحرّفة، ولكن يعقوب (إسرائيل) تحايل على إسحاق حتى خدعه وأخذ البركة منه!، مع العلم أنّ تلك البركة هي التي أسّست لعقيدة الاختيار لدى الشعب اليهودي (شعب الله المختار)

(١) انظر القصة كاملة في سفر التكوين الإصحاح ٢٧.

فهم بنو يعقوب صاحب البركة والمُلقّب بإسرائيل.

ومن القصص أيضًا التي تصف نبي الله يعقوب بصفات الخِداع والوُصوليّة والحرص الشديد على الدنيا لدرجة إنكار الجميل قصته مع حماه (والد زوجته) والذي كان يرعى له غنمه لعدة سنين ثمّ أراد كل منهما إنهاء المشاركة بينهما، فلجأ حينها يعقوب إلى طُرق مُلتويّة كي يزيد من نصيبه في الغنم، وما كان ذلك الفعل منه إلّا طمعًا في الدنيا الزائلة(١).

- يصفُ نبيَ الله هارون أنّه هو الذي صنع العجل وعبده وأمر بني إسرائيل بعبادته؛ فلقد جاء في سفر الخروج (٣٢/ ١-٦): {ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون. وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحًا أمامه، ونادى هارون وقال غدًا عيد للرب، فبكروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب}.
- يصفُ النبيَّ داود بأنه قتل مِئتي رجلٍ من الفلسطينيين وأحضر غُلفهم مهرًا إلى الملك شاول كي يتزوج ابنته؛ وكان ذلك بُناءً على طلبٍ من الملك شاول الذي كان يُريد الانتقام من الفلسطينيين!، والغريب أنّ النّص الذي يتحدّث عن تلك الواقعة في العهد القديم يصف ذلك الفعل الشنيع من داود بأنّه كان بمعية الإله!

صموئيل الأول (١٨/ ٢٥-٢٨): {فقال شاول هكذا تقولون لداود: ليست مسرة

(١) سفر التكوين (٣٠/ ٢٨-٤٣).

الملك بالمهر، بل بمئة غلفة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك، وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين، فأخبر عبيده داود بهذا الكلام، فحسن الكلام في عيني داود أن يصاهر الملك، ولم تكمل الأيام حتى ذهب داود هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى بغلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك، فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة، فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود..}.

كما رأينا هذه هي صفات الأنبياء الذين اصطفاهم الإله الحكيم العليم في العهد القديم، وأرى أن الأمر لا يحتاج مزيد توضيح وبيان؛ فقطعًا هذه الصفات التي وصف بها العهد القديم -الذي يؤمن به اليهود والنصارى معًا- أنبياءَ الله لا تتفق بحال مع الصفات المُتصورة عن الأنبياء الذين اختارهم الله العليم الحكيم بعلمه وحكمته ليكونوا على قمة وذروة الكمال البشري؛ لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليُطاع بإذن الله.

إذن من خلال ما ذكره العهد القديم عن صفات الأنبياء يتضح أن هذا الكتاب (العهد القديم) ليس هو الكتاب الحقيقي المُعبر عن الإله الحق.

وبالتالي تكون اليهودية والمسيحية ليست هي دين الله الذي ارتضاه وأنزله للناس أجمعين.

- **صفات الأنبياء في العهد الجديد:**

في الواقع العهد القديم مليء بذكر قصص الأنبياء ومواقفهم ابتداءً من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبداية الخليقة في سفر التكوين وصولًا إلى أنبياء بني إسرائيل الكبار والصغار في أسفار الأنبياء.

ويشترك القرآن مع العهد القديم في الاعتراف بنبوة كثير من هؤلاء الأنبياء الذين جاء ذكرهم في العهد القديم ولكن مع وجود بعض التعديلات الجوهرية في تلك القصص بحيث تتناسب مع عقيدة التوحيد الخالص ومع ما يليق بالله تعالى وبرسله الكِرام.

لكننا في الوقت ذاته نجد العهد الجديد يختلف قليلًا عن ذلك، فإنّه وفق الإيمان المسيحي فإن المسيح ليس رسولًا وإنما هو الله ذاته الظاهر في الجسد، وبالتالي فإنّ هؤلاء الذين أمرهم المسيح -قبل صعوده إلى السماء- بالدعوة والتبشير في الأمصار والأقطار[1] هم رسل الله إلى الناس، وهذا بالطبع لا يتّفق معه المسلمون واليهود الذين لا يؤمنون بنبوّة هؤلاء من الأساس، فالمسلمون يعتقدون أنّ المسيح نبيٌّ من أنبياء الله تعالى وأن أتباعه من الحواريين والتلاميذ وغيرهم هم مثل أتباع باقي الأنبياء مِن المؤمنين المُسلمين المُوحدين شأنهم شأن صحابة النبي محمد وغيرهم من أهل التوحيد وأتباع الرسل عبر التاريخ البشري، ولكن اليهود يعتقدون فيهم اعتقادًا مُختلفًا، فهم يتفقون مع المسلمين في كونهم ليسوا أنبياء معصومين يتحدثون بوحيٍ واتصالٍ مع الإله، ولكنّهم يعتقدون أيضًا أنّهم أتباع النبيّ الكاذب عيسى ابن مريم، فلا هم من أهل الإيمان ولا هم من أتباع رُسل الله فضلًا عن أن يكونوا -هم أنفسهم- رُسلًا ينطقون بعصمة الوحي ومَعِيّة الروح القُدس.

وأشهر هؤلاء الرُسل الذين يعتقد النصارى برسالتهم -على الرغم من أنّه لم ير المسيح إطلاقًا في حياته بل ولم يختره المسيح بين الاثنى عشر تلميذًا ولا السبعين رسولًا!، ولكنّه فقط كل ما هُنالك أنّه ادّعى رؤية المسيح بعد قيامته ورفعه -حسب زعمهم- حين كان في طريقه إلى دمشق- هو بُولس شاؤول الطرسوسي والذي يحظى بمكانة خاصة غير مُبرَّرَة في الديانة المسيحية لدرجة أنّ أقواله في العهد الجديد أكثر من أقوال المسيح ذاته بل يراه البعض هو المؤسس الحقيقي للعقائد المسيحية، وإضافة إلى بولس فإن هناك رسلًا آخرين جاء ذكر رسائلهم الدعوية في العهد الجديد مثل يوحنا وبطرس ويهوذا ويعقوب.

---

(١) وكان ذلك كما جاء في إنجيل متى (٢٨/ ١٩) حين قال المسيح للتلاميذ: {فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القُدس}، وهذا في الحقيقة تناقض آخر؛ إذ كيف يأمرهم المسيح بتبشير جميع الأمم وهو الذي ينسبون إليه في إنجيل متى (١٥-٢٤) أنه قال: {لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة} وعليه فرسالته خاصة ببني إسرائيل فكيف صارت أمميّة عالمية؟! كيف تكون الرسالة في حق المسيح -وهو صاحب الرسالة- خاصة بقوم بعينهم ثم تصير لتلامذته لها صفة العالمية؟!

في الحقيقة عند تقييم الدين المسيحي في معيار صفات الأنبياء فإن محل البحث هو الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وبالتالي فالمسيحية تلتزم بجميع التزامات اليهود في كتابهم (العهد القديم) وما فيه من تلك الصفات التي لا تليق مطلقًا برسل الله كما ذكرنا، بالإضافة إلى حديث العهد الجديد عن الرسل وهو محدود جدًّا.

لذلك يكفينا فقط بعض النصوص المنسوبة لبُولس الرسول والتي تعطينا انطباعًا عامًّا عن تلك الشخصية وصفاتها وتعاليمها التي تبشر بها، ومن هذه النصوص ذلك النص في رسالة بولس إلى أهل رومية (٣/ ٧) حيث يقول فيها: {فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لمجده فلماذا أدان أنا بعد كخاطئ؟!}.

ومعنى الكلام أنه إذا كان الكذب على الله أثناء الدعوة والتبشير سيجعل الناس يدخلون في الدين، فلماذا إذن يدين الله الكذب ؟!

وكأنه إقرار واعتراف من بولس بالكذب على الله من أجل المصلحة!

وهنا يؤسس بولس للميكافيلية في أبشع صورها حيث الكذب على الله كوسيلة لزيادة مجده!

ومن الواضح أن بولس الرسول كان يتخذ من الكذب والخداع والميكافيلية منهجًا عمليًّا في الحياة ويظهر ذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١/ ١٩-٢١) حيث يقول: {فإني إذ كنت حرًّا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس}.

ويحق لنا أن نتساءل: كيف يمكن الوثوق في تعاليم بولس ورسائله خاصة تلك التي اخترعها من نفسه أو التي خالف فيها تعاليم المسيح؟!

وهل اتبع بولس هذا المبدأ الميكافيلي وحاول التوفيق بين الاعتقاد في مركزية المسيح (إرضاءً لبعض أتباع المسيح) ثم وضعه في صورة من صور الفلسفات الوثنية القديمة كالتثليث والأقانيم (إرضاءً للوثنيين) مع الإقرار أيضًا بالالتزام بالعهد القديم أو العتيق (إرضاءً لليهود) ؟!

وقد يقـول أحد المسيحيين إن بولس مؤمن بالمسيح ويقـول إنه أحد أتباعه فكيف يكون بعد ذلك سببًا في فساد الدين والعقيدة المسيحية؟!

والإجابة على ذلك ستكون من قول المسيح نفسه في إنجيل متى (٧/ ٢٢-٢٣) حيث يحذر من بعض الذين يدعون الإيمان به وهم في الحقيقة على خلاف ذلك تمامًا فيقول عنهم: {كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب! أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا الشياطين وباسمك صنعنا المعجزات؟ فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم}.

لن أُطيل الحديث عن الأنبياء في العهد الجديد أكثر من ذلك لأن سيرتهم والنصوص المنسوبة لهم ليست كثيرة كما أن أساس الحديث مع النصارى سيكون حول أنبياء العهد القديم كما ذكرت ويكفي هنا المثال أو المثالان فقط للتوضيح.

- ملحوظة أخيرة:

عند الحديث عن معيار صفات الأنبياء فإننا نجد أن القرآن يتفق مع العهد القديم في أصل نبوة الأنبياء الذين ورد ذكرهم مثل إبراهيم ونوح ولوط وموسى وداود وسليمان وغيرهم، ولكن يختلف معه في أن وصف العهد القديم لهؤلاء الأنبياء فيه تنقص منهم ونسبة الصفات المشينة لهم مما يدل على أنه تم تحريفه وأنه ليس من كلام الله.

على الطرف الآخر نجد أن القرآن يختلف مع العهد الجديد في أصل نبوة الأنبياء الذين ورد ذكرهم مثل بولس وبطرس وغيرهما، بالإضافة إلى أن تلك الصفات والأقوال

المنسوبة إليهم هي دليل على عدم نبوتهم من الأساس حتى ولو صحت نسبة تلك الأقوال إليهم.

إذن نحن المسلمون نجزم أن الصفات المشينة للأنبياء التي وردت في العهد القديم لم تحدث وأن هؤلاء الأنبياء بريئون من تلك الصفات والقصص المنسوبة إليهم.

وفي المقابل نحن المسلمون نقول إن الأقوال السيئة لأنبياء العهد الجديد -وتحديدًا بولس- إما أنها لم تحدث وهو بريء منها أو أنها حدثت وقيلت بالفعل لكننا لا نقبلها ولا نقبل رسالته لأن هذه الأقوال لا يمكن أن تكون أقوال نبي، وفي كل الأحوال يظل معيار صفات الأنبياء دليلًا على أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ليس كلام الله المنزل والمحفوظ من التغيير.

- **صفات الأنبياء في القرآن:**

يتحدث القرآن عن أنّ أنبياءَ كُثرًا منهم من أخبرنا الله تعالى عنهم ومنهم من لم يُخبرنا عنهم.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤].

وقد ذكر القرآنُ من هؤلاء الأنبياء خمسة وعشرين نبيًّا تصريحًا بالاسم ابتداءً من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو البشر جميعًا مرورًا بنوحٍ وإدريس وهود وصالح وشعيب وأيوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وباقي أنبياء بني إسرائيل كيوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى ثمّ محمد خاتم الأنبياء والمُرسلين عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وقد ذكر القرآن جميع الأنبياء بما يليق بهم من صفات الكمال البشري، كما نزّههم عن الفواحش والرذائل والكبائر، ووصفهم بأحسن الأوصاف وأجودها وبالصدق والأمانة والبذل للدعوة والتضحية في سبيلها والصبر على البلاء وتحمل الصعاب في سبيل إعلاء كلمة الله، بل إنّه في الحقيقة لم يُوصَف أنبياء الله في أي كتابٍ موجودٍ الآن على ظهر البسيطة بمثل ما وُصفوا به في القرآن العظيم.

وقد قال السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك:

«أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ وفي غير ذلك من الكبائر ومن الصغائر الرذيلة التي تحط مرتبتهم، ومن المداومة على الصغائر، هذه الأربعة مجمع عليها»[1].

(١) انظر: الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/ ٢٥٦).

ولذلك لم نجد أي نبيٍ من الأنبياء في القرآن الكريم يُتهم بالشرك أو الكذب أو الزنى وشرب الخمر والفواحش أو السرقة أو الخداع أو الخيانة أو نقض العهود، بل لقد وُصفوا بكل كمال بشري قد يُعلي من مكانتهم ويحفظ لهم قدرهم كسفراء عن الله ومُمثلين عن رسالته المقدّسة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨].

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٢٥٣].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وبالإضافة إلى هذه الآيات من القرآن التي تؤكد اتصاف الأنبياء بأكمل الأوصاف،

فإن القرآن رد أيضًا على ما تم نسبته إلى الأنبياء من صفات النقص في العهد القديم؛ فبرأ القرآن نبيَّ الله هارون من تهمة اتخاذه العجل إلهًا لبني إسرائيل وأمره لهم بعبادته، فصحح القرآن هذه الواقعة وأكد أن الذي فعل ذلك لا يمكن أن يكون نبيًّا وأن الذي فعل ذلك هو السامري وليس هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [طه:٨٨-٩٥].

أيضًا برأ القرآنُ نبيَّ الله سليمان من الشرك الذي نسبه إليه العهد القديم حيث ذكر أن زوجات سليمان أملن قلبه في شيخوخته عن التوحيد إلى الشرك، فقام ببناء المعابد للآلهة!

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وأيضًا لم يأت القرآن بأي صفة من الصفات القبيحة والأفعال الدنيئة التي ذكرناها من قبل والتي وصف بها العهدُ القديم الأنبياءَ مثل نوح ولوط وداود ويعقوب وغيرهم.

ولكون القرآن الرسالة الإلهيّة الخاتمة نجده خطابًا موزونًا بموازين دقيقة تُصلح البشر وتهديهم وتُرشدهم إلى الحق في كل شيء وتُصحّح تصوراتهم دون إفراطٍ أو تفريط، فالقرآن نفسه الذي يصف الأنبياء بصفات العِصمة والكمال البشري هو الذي يمنع أي سبيلٍ أو وصفٍ يُجاوز بهم مرتبة العبوديّة لله وحده، فهم في النهاية لا يملكون من أمرهم شيئًا ولا يستطيعون ضرًا ولا نفعًا، فنجد الله تعالى يأمُر نبيّه أن يؤكّد ذلك قائلًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

كما أنّ الله تعالى لو أراد أن يُرسل رُسُلًا ملائكةً إلى الناس لفعل ذلك ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يُرسل بشرًا إلى النّاس، وذلك لأنّ عصمة الملائكة تختلف اختلافًا نوعيًّا عن عصمة الأنبياء، فكما أنّه من الضروري أن يكون الرُسل الحاملون للرسالة الإلهيّة والمُبلغون عن ربّ البَريّة معصومين عن الرذائل والأخطاء المُزرية ليكونوا تطبيقًا عمليًّا ومثالًا واقعيًّا مُقنعًا للبشر وحاملًا بكمال بَشَرِيَّتهم وحُسن أخلاقهم البرهان الجَلِيّ على صدق نُبوتهم، فقد كان من الضروري أيضًا أن يكون هؤلاء الرُسل بشرًا -كباقي البشر جميعًا الذين أُرسلوا إليهم- مُركّبين من الطبيعة البشريّة القائمة على ثنائية الإرادة بين الخير والشر ولكنّهم رغم قدرتهم على اختيار الباطل المُزيَّن والشهوة العاجلة وطريق الشيطان إلّا أنّهم تركوه بإرادتهم مُختارين الحق والصواب وطريق الله تعالى بتوفيق الله لهم وهدايته إياهم، ولذلك ردّ الله تعالى على من علّق ايمانه مُشترِطًا عليه أن يُرسل ملائكةً أو خارقين بدلًا من البشر العاديين موضحًا حكمته من ذلك قائلًا: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦].

وكما تحدثنا سابقًا من أنّ النظر في حال النبي وحُسن صفاته هو دليلٌ على نبوته وبالتالي دليلٌ على صدق الإسلام؛ فإن النّظر في صفات الأنبياء في القرآن واتساقها مع الصفات المنطقية المُتصوَّرة والمُنتظَرة من أنبياء الإله الحق خالق الكون الحكيم العليم هي دليلٌ أيضًا من أدلة صدق الإسلام.

إذن تطبيق معيار صفات الأنبياء في الكُتب المُقدّسة للأديان الثلاثة يؤكّد بما لا يدع مجالًا للشك أنّ القرآن هو الكتاب الوحيد الذي أنصف الأنبياء ووصفهم بما يليق بهم وبمكانتهم وأعطاهم حَقَهم الذي يستحقونه دون إفراطٍ أو تفريط، وبالتالي فهو كتاب الله حقًّا ورسالته التي أرسلها للناس أجمعين.

الفصل الثالث

معيار الحفظ من التحريف

وهو ثالث المعايير المُميّزة لصحة الرسالة الإلهيّة، ويكون ذلك عن طريق عقد مقارنة بين القرآن والعهد القديم والعهد الجديد من خلال البحث في مسألة حفظ كل كتاب من الضياع أو التحريف أو التغيير، ومدى بقائه على حالته الأصلية بعيدًا عن التدخّل البشري أيًا كانت صورته.

ذكرنا قبل ذلك أنّ هناك ضرورة من إرسال الله للرسالات إلى الناس وأن ذلك من لوازم حكمة الله وعدله بسبب حاجة البشرية الشديدة إليها، وبذلك فإنّ الحكمة الإلهيّة من إرساله هذه الرسالات لا تتحقق بمجرد إنزالها على الرسل وحسب ولكن تتحقق بوصولها إلى الناس بنفس الهيئة والصورة كما أنزلها الله تعالى وذلك حتى يتحقق المقصود منها والحكمة الإلهية من ورائها.

ولذلك كان من الطبيعي والمنطقي إذا حدث ضياع أو تحريف في تلك الرسالة الإلهيّة فإنّ الله لن يترك البشريّة طويلًا تعاني التيه والضياع جرّاء الرسالة المُحرّفة لأن غايته لم تتحقق بها إلّا من خلال بقايا الحق المحفوظ في الرسالة والذي غالبًا لن يستمر طويلًا بسبب نسخ العلم واستمرار الضياع كالثمرة التي إذا فَسَدَ بعضُها زحف الفساد إليها جميعًا وانتشر عاجلًا أم آجلًا، ولكنه سيُنَزِّل عليهم رسالة أخرى تصحيحيّة يُقرّر لهم فيها ما يُريد ويُصحّح ما طرأ على الرسالة السابقة من التحريف والتبديل.

فطالما أن ظاهرة النبوة ما زالت مستمرة، وطالما أن الله لا زال يُرسل إلى الناس أنبياء ورسلًا فإن مسألة وقوع التحريف حينها ستكون مُمكنة الحدوث وليست مستحيلة، والحفاظ على الرسالة من هذا التحريف سيكون أمرًا من الأوامر التكليفية والشرعية التي

يختبر الله بها عباده؛ فإما أن يحفظوها أو يضيعوها وهذا بالضبط توصيف ما حدث للتوراة والإنجيل.

وقد اتفق القرآن والتوراة على ذلك التوصيف للسياق التاريخي الذي مرّ به العهد القديم من أنّ الله لم يتعهد بحفظه ولكنّه أوكل حفظه إلى بني إسرائيل، فنجد القرآن يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

كما أنّ الكتاب المُقدّس يعبر عن ذلك أيضًا قائلًا في سفر التثنية (٤/ ١، ٢): {فالآن يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام...، لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تُنقّصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب إلهكم الذي أنا أوصيكم بها}.

ولكن إذا قرر الإله إرسال رسالة وقضى بأنها ستكون خاتمة الرسالات فإنّ وقوع التحريف والتبديل فيها أمرٌ مستحيل؛ لأن حجة الله لا بد أن تظلّ موجودة كما أنزلت لحاجة الناس الشديدة إليها ولأنه لن تأتي رسالة أخرى تُصحّح ما طرأ عليها من التحريف أو الضياع.

في تلك الحالة يكون حفظ هذه الرسالة الخاتمة بالإضافة إلى كونه أمرًا من الأوامر الشرعية التكليفية إلا أنه أيضًا سيكون أمرًا قدريًّا كونيًّا لا تبديل له لتعلقه بكمال الحكمة الإلهية.

وإذا كنا نبحث عن الدين والرسالة الخاتمة التي أنزلها الإله للناس أجمعين إلى قيام الساعة فلا بد أن يتوفر بها شرط الحفظ من التحريف لأن حكمة الله تستلزم وجود رسالة تصل إلى الناس (تامَّةً كما أنزلها) بلا تحريف أو تدخل بشري.

ونستطيع أن نصل إلى الدين الحق من خلال القيام بدراسة نقدية[1] للكتب المقدسة من حيث مدى ثبوتها وحفظها من التحريف والتدخل البشري، والكتاب الذي يتبين لنا بالدليل أنه طرأ عليه التحريف لا يمكن بحال أن يكون هو رسالة الله للناس إلى يوم القيامة، ولكن فقط الدين الذي حُفظ كتابه يكون هو الحق الذي أنزله الله للبشر أجمعين؛ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

(١) الدراسة النقديّة للكتاب المقدّس أو ما يُعرف بعلم النقد الكتابي يشمل مستويين رئيسين:
- النقد التاريخي الخارجي وهو نقد أصول النّص وإشكاليات الثبوت والسند وتحديد مؤلف النص وتاريخ الكتابة والترجمة وغيره.
- النقد النّصي الداخلي وهو المُتعلّق بتحليل المتن أو النّص للوصول إلى أقرب صورة مُمكنة من النّص الأصلي.

- **العهد القديم ومعيار الحفظ من التحريف:**

من المعلوم أن التوراة الحقيقية نزلت على نبي الله موسى حين كان يعيش في مصر تقريبًا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلا أن أول تدوين للعهد القديم كان أثناء السبي البابلي في زمن عزرا الكاهن في القرن الخامس قبل الميلاد أي بعد حوالي ثمانية قرون كاملة من موت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

وطوال هذه القرون الثمانية كانت التوراة أشبه بالتراث الشفوي الذي يتناقله البعض مصحوبًا بالوقائع والأحداث التاريخية وبعض تراث الشعب اليهودي ولذلك اختلط الوحي بالتاريخ وهذا ما يلاحظه أي قارئ للعهد القديم حيث يشعر وكأنه يقرأ تاريخ بني إسرائيل وليس كتابًا مقدسًا من الإله.

ونتيجة لهذا الفارق الزمني بين نزول التوراة وباقي أسفار العهد القديم وبين تدوينها فإنّ هناك انقطاعًا كبيرًا في السند التاريخي لها، وبالتالي فالعهد القديم فاقد لشرط هام من شروط الرسالة الخاتمة وهو أن يكون الكتاب الحامل للرسالة الإلهية الخاتمة قطعيًّا في ثبوته ومُتّصلًا اتصالًا مُتواترًا يُزيل أي شكٍ يقع في النفس من صحة نسبته المُباشرة إلى ذلك النبيّ الذي أُوحى إليه.

من الإشكالات الكبيرة في أسفار العهد القديم أنّ هناك اضطرابًا كبيرًا في تحديد المُصنِّف الحقيقي لكل سفر من هذه الأسفار، بالإضافة إلى ضياع الأصل الذي نَزَل بلغة موسى، حيث إنّ أقدم مخطوطة للعهد القديم هي المخطوطات الماسورية المكتوبة باللغة العبرية والتي ترجع إلى القرن السابع الميلادي، ومما هو معلوم يقينًا لدى العلماء والباحثين

(١) جاء في كتاب (تاريخ الكتاب المقدس) للكاتبين ستيفن ميلر وروبرت هوبز-طبعة دار الثقافة- ص٢٩: {ولم تُجمع هذه المصادر لتكوّن الأسفار التي بين أيدينا الآن إلا في عصر السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد على الأقل}.

أنّ اللغة العبرية ليست هي اللغة التي كان يتكلم بها موسى وأتباعه وقتها، وما هو موجود الآن من نسخٍ للعهد القديم ما هي إلا ترجماتٍ عن ترجمات من النص الأصلي المجهول، بل إنّ الأمر لا يقف عند ضياع النّص الأصلي والجهل بشخصيات كُتَّاب الأسفار وتاريخ كتابتها بل تعدّى ذلك إلى الجهل بالمترجمين وتاريخ الترجمة وغير ذلك من فجواتٍ معرفية وإشكالاتٍ لا حدّ لها تَهبِط بها لا يدع مجالًا للشكّ بموثوقية ذلك الكتاب من درجة اليقين إلى الظنّ والخَرْصْ!

هذا السياق التاريخي لأسفار العهد القديم يؤكّد وقوع التدخل البشري والتحريف، وممّا يؤكّد ذلك أيضًا أنّنا نجد سفر التثنية -وهو من أسفار التوراة أو الأسفار القانونيّة الأولى والذي من المفترض أنّه نزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سيناء عندما تلقّى الألواح من الله عَزَّوَجَلَّ- يتحدّث عن موت موسى وما بعدها من وقائع حدثت لبني إسرائيل مثل أنّه لم يأت من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى من هو مثله في السيرة والصفات والقدْر والمكانة وغيرها!، وهذه الأشياء بالتأكيد لا يمكن أن يكون موسى هو الذي كتبها أو تكون مِمّا قد نَزَلَ عليه في سيناء!

وممّا يَدُلّ أيضًا على وقوع التحريف أنّنا نجد أسفار التوراة الخمسة (أو الأسفار القانونية الأولى) تتحدّث عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بصيغة الغائب وليس المتكلم أو المُخاطَب ممّا يدل على أنّ شخصًا آخر غير موسى هو الذي كتبها أو رواها!

إضافة إلى ذلك فإنّ واقع العهد القديم نفسه يشهد بحدوث التحريف حيث الكم الهائل من التناقضات في نصوص مُحكَمة الدلالة لا تقبل الجمع أو التأويل!

والأمثلة على تلك التناقضات النصّية كثيرة جدًّا أذكر منها:

- الاختلاف في أعداد رقمية خاصة بنفس الواقعة؛ وهي موجودة بكثرة في أسفار العهد القديم ولذلك سأكتفي بذكر هذه الأمثلة فقط:

- **واقعة قتل داود مركبات أرام:**

سفر صموئيل الثاني (١٠/ ١٨): {وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سبْعَ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ وأربعين ألف فارس وضرب شُوبَكَ رئيس جيشه فمات هناك}.

سفر أخبار الأيام الأول (١٩/ ١٨): {وهرب أرام من أمام إسرائيل وقتل داود من أرام سَبعَةَ آلافِ مَرْكَبَةٍ وأربعين ألف رجل وقتل شُوبَكَ رئيس الجيش}.

- **عُمْر الملك أَخَزْيَا عندما ملك أورشليم(عاصمة مملكة يهوذا):**

سفر الملوك الثاني (٨/ ٢٦): {وكان أَخَزْيَا ابن اثنتين وعشرين سنةً حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشليم}.

سفر أخبار الأيام الثاني (٢٢/ ٢): {كان أَخَزْيَا ابن اثنتين وأربعين سنةً حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشليم}.

- **عُمْر الملك يَهُوياكين حين ملك مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم والذي تم أخذه بعد ذلك في السبي البابلي على يد ملك بابل نبوخذناصّر:**

سفر الملوك الثاني (٢٤/ ٨): {كان يَهُوياكين ابن ثَمانِي عشرة سنة حين ملك}.

سفر أخبار الأيام الثاني (٣٦/ ٩): {كان يَهُوياكين ابن ثماني سنين حين ملك}.

- التناقض في بعض الروايات؛ وهذه أيضًا الأمثلة عليها كثيرة سأذكر منها فقط على سبيل المثال **التناقض بين النصوص التي تصف الإله بالندم والأخرى التي تنفيها عنه**؛ حيث يصف سفر التكوين (٥/ ٦) الله بالندم على خلقه الإنسان بعدما كَثُر فساده: {ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثُر في الأرض، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه}، كما يصف سفر صموئيل الأول (١٥/ ٣) الرب أيضًا بأنّه ندم على تولية شاول ملكًا على إسرائيل: {والرب ندم لأنه ملك شاول على إسرائيل}.

وهذه النصوص تتناقض مع ما جاء في سفر العدد (٢٣/ ١٩) حيث ينفي عن الله صفة الندم فيقول: {ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم، هل يقول ولا يفعل؟ أو يتكلم ولا يفي؟}.

بذلك يمكننا القول بأنّ المثال الواحد على ذلك النوع من التناقض الذي يستحيل معه الجمع والتأويل يدل على وقوع التحريف والتدخّل البشري ويكفي لإثبات عدم عصمة ذلك الكتاب فضلًا عن أن يكون هناك كمٌّ كبيرٌ من تلك التناقضات إذ إنّ اجتماع النقيضين من المستحيلات العقلية.

إضافة إلى ذلك فإنّ العهد القديم أصلًا مُكوّن من ستةٍ وأربعين (٤٦) سفرًا وِفق إيمان الكاثوليك والأرثوذكس، ومن تسعةٍ وثلاثين (٣٩) سفرًا عند اليهود والبروتستانت، وبالتالي فإنّ هناك سبعة (٧) أسفار مُختَلَفٌ عليها بين الطوائف يؤمن بها الكاثوليك والأرثوذكس ويسمونها الأسفار القانونية الثانية في حين لا يؤمن بها البروتستانت (تبعًا لليهود) ويسمونها الأسفار الزائفة (الأبوكريفا).

فعن أي عهدٍ قديمٍ إذن نتحدث؟!

هل نتحدث عن الكتاب الذي يؤمن به اليهود والبروتستانت أم الكتاب الذي يؤمن به الكاثوليك والأرثوذكس؟!

- يزداد إشكال التحريف تأكيدًا وتعقيدًا عندما نجد أنّ هناك نصوصًا في العهد القديم نفسه تشير إلى أنّ التحريف والضياع قد لحق به ومن هذه النصوص:

- إرمياء (٨/ ٨): {كيف تدعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب بينما حوّلها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة}.
- التثنية (٣١/ ٢٤-٢٩) حيث يتكلم النص عن النبي موسى وخوفه من قيام بني

إسرائيل بتحريف التوراة وبضياع وصايا الرب لعلمه بحقيقتهم ولذلك حاول أن يتخذ منهم عهدًا وسبيلًا ليكون قد أتم رسالته وأقام الحجة عليهم: {فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى إتمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت العهد خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدًا عليكم، لأني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتى، اجمعوا إليَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض؛ لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم}.

- الملوك الأول (١٩/ ١٠): {قد غرت غيرة للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها}.

- إرمياء (٢٣/ ٢٩-٣٦): {أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب وكمطرقة تحطم الصخر؟، لذلك هأنذا على الأنبياء يقول الرب الذين يسرقون كلمتي بعضهم من بعض، هأنذا على الأنبياء يقول الرب الذين يأخذون لسانهم ويقولون: قال، هأنذا على الذين يتنبؤون بأحلام كاذبة يقول الرب الذين يقصونها ويصلون شعبي بأكاذيبهم مفاخراتهم وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم، فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب، فالنبي أو الكاهن أو الشعب الذي يقول: وحي الرب-أعاقب ذلك الرجل وبيته، هكذا يقول الرجل لصاحبه والرجل لأخيه: بماذا أجاب الرب وماذا تكلم به الرب؟، أما وحي الرب فلا تذكروه بعد لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذا قد حرفتم كلام الإله الحي رب الجنود إلهنا}.

- إشعياء (٢٩/ ١٥-١٦): {ويل للذين يتعمقون ليكتموا رأيهم عن الرب فتصير أعمالهم في الظلمة ويقولون: من يبصرنا ومن يعرفنا؟، يا لتحريفكم!}.

والمعنى أنهم يغيرون ويبدلون في الظلام حيث لا يراهم أحد أو هكذا يظنون.

إذن كل تلك النصوص تؤكد أن العهد القديم ليس هو رسالة الله التي أنزلها للناس جميعًا إلى يوم القيامة، وهذا يعني أن اليهودية والمسيحية ليست هي دين الله الحق الذي أنزله على الناس أجمعين.

- **العهد الجديد ومعيار الحفظ من التحريف:**

يتكوّن العهد الجديد من ثلاثة وعشرين (٢٣) سفرًا سأذكر مجمل ما تضمنته -وفقًا لمعتقدهم- ثم أتناول الحديث عن السند التاريخي لها طبقًا لمعيار الحفظ من التحريف، ويمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام رئيسة وهي:

- **الأناجيل الأربعة** (متى- لوقا- مرقس- يوحنا)؛ وهي أشبه بسير السيد المسيح رواها بعض أتباعه عنه متضمنة أقواله ومواقفه حتى قيامته ورفعه إلى السماء على يمين الآب.
- **سفر أعمال الرسل**، والذي كتبه لوقا؛ وهو استكمال لإنجيل لوقا حيث يتحدّث فيه عن أعمال الرسل التبشيرية في الأمصار والأقطار بعدما قام المسيح من بين الأموات وجمع تلامذته مُوصيًا إياهم أن يذهبوا ويتلمذوا جميع الأمم ويعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، فالسِفر أشبه بالتطبيق العملي الذي قام به الرسل امتثالًا لوصيّة المسيح.
- **رسائل الرسل**؛ مثل: رسائل بولس ورسائل يوحنا وبطرس ويعقوب؛ وهي تتحدّث عن رسائل كتبها بعض الرسل لدعوة الأمصار المختلفة فتجد مثلًا رسالة بولس إلى أهل رومِيّة ورسالته إلى أهل أنطاكية وإلى أهل كورنثوس وهكذا، ومن المُلاحَظ أنّ بولُس يحتلّ المساحة الأكبر من رسائل الرسل.
- **سفر رؤيا يوحنا:** وهو سفر رمزي كتبه القديس يوحنا؛ يتحدّث فيه عن مشاهد من القيامة وأحداث النهاية.

نلاحظ أنّ حال أسفار العهد الجديد يشبه إلى حدٍ ما حال أسفار العهد القديم من حيث كونها غير مُتّصلة السند حيث نجد فيها انقطاعًا كبيرًا في السند التاريخي، وتبدأ إشكالات العهد الجديد من كُتّاب الأناجيل أنفسهم والخلاف حول تحديد شخصية

كل كاتب منهم بالإضافة إلى ضياع النسخ الأصلية للأناجيل التي تكلّم بها المسيح فقد كان يتكلم الآرامية على أصح الأقوال[1]، كما أنّ أقدم مخطوطة كاملة للعهد الجديد هي المخطوطة السينائية والتي ترجع للقرن الرابع الميلادي وهي مكتوبة باللغة اليونانية[2] والتي هي بالطبع ليست لغة المسيح، ولذلك فإنّ نسخ العهد الجديد الموجودة هي ترجمات عن ترجمات للنص الأصلي المفقود مع الأخذ في الاعتبار أيضًا بأنّ شخصيّة هؤلاء المترجمين وحالهم وتاريخ الترجمة مجهول!

لذلك يقول المؤرخ الشهير ويل ديورانت في موسوعته المعروفة بـ (قصة الحضارة):

"وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث الميلادي، أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠: ١٢٠م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضًا لتحريف مقصود يُراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها"[3].

إضافة إلى ما ذكرناه فإنّ المسيحيين أنفسَهم يؤمنون بأنّ الأناجيل هي عبارة عن سِير

---

(١) وقد ذكر ذلك الكثير من المؤرخين وعلماء المسيحية استنادًا إلى أن الآرامية كانت لغة بني إسرائيل في فترة ما بعد السبي البابلي حيث حدث ضياعٌ لكثير من العبرانية القديمة وطرأ عليها نوعٌ من التحوير إلى الآرامية، وقد جاء رد البابا شنودة الثالث في كتابه: (سنوات مع أسئلة الناس) في جزء الأسئلة الخاصة بالكتاب المقدس (ص٦٦) حين سُئل عن اللغة التي تكلم بها السيد المسيح في فترة تجسّده على الأرض فقال هي الآرامية، وقال إنّه التحوّر الذي طرأ على العبرانية بعد السبي.
كما جاء أيضًا في كتاب: (تاريخ الكتاب المقدّس) للكاتبين ستيفن ميلر وروبرت هوبر–طبعة دار الثقافة–(ص٦٢): (فعوضًا عن العبري كانت غالبية الإسرائيليين يتكلمون الآرامية فقط وظل كثيرون من اليهود يفعلون ذلك حتى زمن الرب يسوع)، كما جاء في (ص٦٣) من نفس الكتاب حيث كان المُؤلِّف يتحدّث عن قراءة يسوع من سفر إشعياء في المجمع حين طُلب منه ذلك فيقول: (فلا بد أنّ الرب يسوع الذي كان يتكلم الآرامية).
(٢) المخطوطة السينائية ومثلها الفاتيكانية والسكندرية هي مخطوطات للكتاب المقدّس كانت قد اعتمدت على الترجمة اليونانية للعهد القديم والمعروفة بالترجمة السبعينيّة، ولكن هذه الترجمة السبعينية للعهد القديم لا تتطابق مع الأصل العبري الماسوري!
(٣) قصة الحضارة – ج٣ – ص٢٠٧ – طبعة دار الجيل – ترجمة محمد بدران.

للسيد المسيح في فترة التَجَسُّد على الأرض والتي رواها عنه بعض أتباعه ممّن جاؤوا بعد القيامة والرفع بسنوات عديدة، والعجيب أنّ اثنين من مؤلفي الأناجيل وهم: (لوقا ومرقس) ليسوا من تلاميذ المسيح الاثنى عشر أساسًا[1] بل ولم يُعاصروه!

ولكنّ الإشكال كان مُعقّدًا في تحديد شخصيّة كلًا من (مَتّى) و(يوحنا) حيث إنّهما لم يذكرا أي تعريفٍ واضحٍ عن نفسهما في الإنجيل ذاته، ولذلك اختلف علماء المسيحيّة والكتاب المقدس في أمر (مَتّى) بين كونه متّى العَشّار الحواري الذي كان يعمل في الجِباية لدى الرومان أو متّى آخر غيره، فترى نسخة العهد الجديد ترجمة الآباء اليسوعيين -أو ما تُعرف بالترجمة اليسوعية- أنّ مؤلف هذا الإنجيل ليس هو متّى الحواري وأنّه مجهول الحال، فقد جاء فيها ما نَصّه:

"ولذلك فالكثير من المؤلفين يجعلون تاريخ الإنجيل الأول بين السنة ٨٠ والسنة ٩٠ وربما قبلها بقليل، ولا يُمكن الوصول إلى يقين تام في هذا الأمر، أمّا المؤلف فالإنجيل لا يذكر عنه شيئًا"[2].

ثمّ تستطرد الترجمة وتقول:

"وهناك بعض المؤلفين الذين يستخلصون من ذلك أنّه يُمكن أن تُنسب إلى الرسول صيغة أولى آرامية أو عبرية لإنجيل متّى اليوناني، لكن البحث في الإنجيل لا يثبت هذه الآراء دون أن يُبطلها مع ذلك على وجه حاسم، فلمّا كُنّا لا نعرف اسم المؤلف معرفة دقيقة يحسُن بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه، فالمؤلف يُعرف من عمله"[3].

---

(١) وقد جاء ذكر أسماء أولئك التلاميذ الاثنى عشر نصًّا في إنجيل متّى (١٠/ ٢-٤)، ومن المُلاحظ أنّه لم يكن فيهم أحدٌ يحمل اسم لوقا أو مرقس، وإنما كان هناك أحد التلاميذ يُدعى متّى العشّار، ومع البحث والتدقيق وُجد أنّه ليس هو متّى صاحب الإنجيل، كما كان هناك تلميذٌ آخر يُدعى يوحنا بن زبدي، ولكنّ أيضًا هناك شكوك كثيرة حول نسبته لإنجيل يوحنا، وبذلك فإنّ كُتّاب الأناجيل الأربعة ليسوا من تلاميذ المسيح الاثنى عشر

(٢) الترجمة اليسوعية - العهد الجديد ص ٣٥ - طبعة دار المشرق.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٥.

وبذلك يرى علماء الترجمة اليسوعيّة أن مَتّى من الواضح أنّه قد كَتَبَ إنجيله باللغة اليونانية ابتداءً وأنّه ليس مُترجمًا عن أصلٍ آرامي أو عِبري، وهذا يعني بالضرورة أنّه ليس مَتّى الحواري والذي كان يتكلّم الآرامية مثل المسيح، وإنّما المُؤكّد لدينا كما تقول الترجمة اليسوعيّة أنّه شخصٌ مجهول الحال كان على علمٍ قوي بالتقاليد والمصطلحات اليهودية كأن يكون يهوديًا مُثقّفًا ثمّ دخل في المسيحيّة، ولا سبيل إلى إثبات أصله الفلسطيني فقد يكون قد كتب إنجيله في سورية أو أنطاكية أو فينيقية حيث كان يعيش الكثير من اليهود.

وممّا يُزيد الشكّ في أمر مؤلف إنجيل مَتّى وأنّه ليس هو مَتّى الحواري كما كان يظن بعض القدماء أنّ الإنجيل ذاته عندما تكلّم عن قصة إيمان مَتّى العَشّار تكلّم عنها مُستخدمًا صِيغة الغائب![1] مِمّا يدلّ على أنّ المؤلف هو شخص آخر غير مَتّى الحواري.

هناك إشكالٌ آخر في تحديد شخصيّة (يوحنا) صاحب الإنجيل، فقد كان هناك أحد التلاميذ يُدعى يوحنا ابن زبدي ومعه أخوه يعقوب ابن زبدي كما جاء في إنجيل مَتَّى (١٠/ ٢-٤)، ولكن الترجمة اليسوعية ترى أنّه لا يوجد أي دليل على أنّ مُؤلِّف الإنجيل هو يوحنا ابن زبدي، كما ترى أيضًا أنّ صياغة الإنجيل وما به من تقريرات عقدية ومصطلحات لاهوتية بالتأكيد قد احتاج وقت للبحث ولا يُمكن أن تكون مجرد شهادة شاهد عيان على الأحداث وفقط، لذا تقول الترجمة اليسوعيّة:

> "هذه الملاحظات كلها تؤدي إلى الجزم بأن إنجيل يوحنا ليس مُجُرّد شهادة شاهد عيان دُوّنت دفعة واحدة في اليوم الذي تَبِع الأحداث، بل كل شيء يُوحي خلافًا ذلك بأنّه أتى نتيجة لنضجٍ طويل"[2].

ثمّ تتحدّث الترجمة عن رؤيتها لإنجيل يوحنا:

---

(١) فقد جاء في إنجيل متى (٩/ ٩): "وفيما يسوع مجتازٌ من هناك، رأى انسانًا جالسًا عند مكان الجِباية، اسمه مَتَّى. فقال له: اتْبَعنِي، فقام وتَبِعَه".

(٢) الترجمة اليسوعية - العهد الجديد ص ٢٨٦ - طبعة دار المشرق.

"فمن الراجح أنّ الإنجيل كما هو بين أيدينا أصدره بعض تلاميذ المؤلف فأضافوا عليه الفصل ٢١، ولا شكّ أنّهم أضافوا أيضًا بعض التعليق؛ مثل: ٢/٤ وربما ١/٤ و٤٤/٤ و٣٩/٧ و٢/١١ و٣٥/١٩. أمّا رواية المرأة الزانية (٣٥/٧-١١/٨) فهناك إجماع على أنها من مرجع مجهول فأُدخلت في زمنٍ لاحق (وهي مع ذلك جزء من قانون الكتاب المقدّس). أمّا المُؤلّف وتاريخ وضع الإنجيل الرابع فلسنا نجد في المؤلَّف نفسه أي دليل واضح عليهما"[1].

ثمّ تُؤكّد الترجمة تلك الشكوك حول نسبة الإنجيل ليوحنا الرسول في مقطعها الذي تقول فيه:

"وليس لنا أن نستبعد استبعادًا مطلقًا الافتراض القائل بأن يوحنا الرسول هو الذي أنشأه، ولكن مُعظم النّقاد لا يتبنون هذا الاحتمال، فبعضهم يتركون تسميّة المؤِلّف فيصفونه بأنّه مسيحي كَتَبَ باليونانية في أواخر القرن الأول.."[2].

هذا التعقيد في أمر كاتب إنجيل يوحنا دفع أيضًا القس فهيم عزيز في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد) إلى التساؤل:

"ولكن من هو الذي كَتَبَ إنجيل يوحنا؟!، هذا السؤال صعب والجواب عليه يتطلّب دراسة واسعة غالبًا ما تنتهي بالعبارة: (لا يعلم إلّا الله وحده من الذي كتب هذا الإنجيل)"[3].

يعرِض أيضًا مُؤلّفو كتاب (مدخل إلى الكتاب المُقدّس) وصفًا لتلك الحالة من الشكّ التي لازمت العلماء والباحثين قديمًا في أمر إنجيل يوحنا وفي نسبته إلى يوحنا الرسول حيث يقول:

"وإلى وقتٍ قريب كان الكثير من الدارسين يعتقدون أن إنجيل يوحنا كُتب في زمنٍ متأخر

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٨٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٢٨٧.

(٣) المدخل إلى العهد الجديد – القس فهيم عزيز – ص٥٤٦.

(حوالي سنة ١٠٠ م)، وأنّه أكثر الأناجيل بُعدًا عن الصبغة اليهودية، وأنّه قد استخدم الكثيرين ولم يكن هو نفسه شاهد عيان، وأنّ هذه الكلمات لم تكن كلمات يسوع حقيقة، وعليه نكون أمام مجموعة من الأفكار عن يسوع كتبها مسيحي من الأوائل"(١).

وهكذا فإنّه من خلال ما ذكرته يتّضح لنا مدى الإشكال الكبير الذي يعانيه إنجيل يوحنا في تحديد شخصيّة مُؤلِّفه، وأنّ أقصى ما نستطيع الجزم به أنّه شخص مسيحي مُثقّف على اطلاع كبير بالمصطلحات الفلسفية مِمّا يُعدّ سببًا من الأسباب التي جعلت الباحثين يستبعدون أنّ يكون المؤلِّف هو يوحنا بن زبدي والذي كان يعمل صيّادًا وبالتالي لم يكن له أي صلة بالمصطلحات الفلسفية وبالأسلوب العميق الذي كُتب به إنجيل يوحنا والذي أهّله لأنّ يكون هو الإنجيل المَنُوط به تقرير العقائد المسيحيّة والقضايا اللاهوتيّة.

كانت هذه مجرد نظرة خارجية للسياق التاريخي للعهد الجديد لكنها تُعطينا تصوّرًا صادمًا بالنسبة لثبوت العهد الجديد وموثوقيته مما يجعله لا يصلح أن يكون مصدرًا محكمًا للمعرفة اليقينية فضلًا عن أن يكون وحيًا إلهيًّا معصومًا.

وفي الحقيقة إشكاليات العهد الجديد لا تقف عند حد النقد التاريخي فقط، ولكن تمتد إلى النقد النصي المتعلق بما في النص ذاته من تناقض واختلاف في وقائع محكمة واضحة يستحيل معها الجمع أو التأويل والتي تؤكّد أيضًا -بما لا يدع مجالًا للشك- وقوعَ التحريف في العهد الجديد.

والأمثلة على هذه التناقضات النصية كثيرة منها:

---

(١) (مدخل إلى الكتاب المقدس-تحليل لأسفار العهدين القديم والجديد) - تأليف مجموعة من الباحثين - ص٤٢٨ - طبعة دار الثقافة.

- **الاختلاف في نسب المسيح بين رواية إنجيل متى ورواية إنجيل لوقا:**

فكلا الإنجيلين يذكر نسبًا مُختلفًا تمامًا عن الآخر من حيث عدد الرجال في سلسلة النسب وأسمائهم؛ **ففي إنجيل متى يوجد ٢٧ رجلًا من المسيح إلى داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، بينما نجد في إنجيل لوقا ٤٢ رجلًا من المسيح إلى داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ**!**

أي أن هناك فارقًا بين الروايتين بما يقدر بـ ١٥ شخصًا، وبذلك يتبين استحالة صدقهما معًا فلا بد -على الأقل- أن أحد النصين خطأ.

- سلسلة نسب المسيح في إنجيل متى (١/ ١-١٧): ١/ يوسف النجار / ٢ يعقوب/ ٣ مَتانَ / ٤ أَلِيعَازَرَ / ٥ أَلِيُودَ / ٦ أَخِيمَ / ٧ صَادُوقَ / ٨ ازُورَ / ٩ أَلِيَاقِيم / ١٠بِيهُودَ / ١١ زَرُبابِلَ / ١٢شَأَلْتِيئِلَ / ١٣ يَكُنْيَ / ١٤ يُوشِيا / ١٥ آمُونَ / ١٦ مَنَسى / ١٧ حِزْقِيا / ١٨ أَحَازَ / ١٩ يُوثَامَ / ٢٠ عُزيا / ٢١ يُورَامَ / ٢٢ يَهُوشَافَاطَ / ٢٣ آسَا / ٢٤ أَبِيا / ٢٥ رَحبْعَامَ / ٢٦ سُلَيْمَانَ / ٢٧ داود.
- سلسلة نسب المسيح في إنجيل لوقا (٣/ ٢٣-٣٨): ١/يوسف / ٢ هالي / ٣ متثات / ٤ لأوي / ٥ ملكي / ٦ ينا / ٧ يوسف / ٨ متاثيا / ٩ عاموص / ١٠ ناحوم / ١١ حسلي / ١٢ نجاي / ١٣ مآث / ١٤ متاثيا / ١٥ شمعي / ١٦ يوسف / ١٧ يهوذا / ١٨يوحنا / ١٩ ريسا / ٢٠ زربابل / ٢١ شألتيئيل / ٢٢ نيري / ٢٣ ملكي / ٢٤ أدي / ٢٥ قصم / ٢٦ ألمودام / ٢٧ عير / ٢٨ يوسي/ ٢٩ أليعازر / ٣٠ يوريم / ٣١ متثات / ٣٢ لاوي / ٣٣ شمعون / ٣٤ يهوذا / ٣٥ يوسف / ٣٦ يونان / ٣٧ ألياقيم / ٣٨ مليا / ٣٩ مينان / ٤٠ متاثا / ٤١ ناثان / ٤٢ داود.

- **الاختلاف في وصية المسيح لتلاميذه بين أن يحملوا العصا أو لا يحملوها:**

- فقد جاء في إنجيل متى (١٠/ ٩-١٠): أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لتلاميذه: {لا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا في مناطقكم ولا مزودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصًا}.

- وفي إنجيل لوقا (٩/ ٣): {لا تحملوا للطريق شيئًا: لا عصًا، ولا زادًا، ولا خبزًا، ولا مالًا، ولا يحمل الواحد ثوبين}.

- وفي إنجيل مرقس (٦/ ٨): {وأوصاهم ألا يحملوا للطريق شيئًا إلّا عصًا، لا خبزًا ولا زادًا ولا مالًا ضمن أحزمتهم}.

- **الاختلاف في نهاية يهوذا الإسخريوطي (بعدما خان المسيح) في نقطتين؛** الأولى هي كيفية موت يهوذا بين خنق نفسه أو السقوط على وجهه وانسكاب أحشائه، والثانية هي هل الذي اشترى الحقل هم رؤساء الكهنة أو هو يهوذا نفسه؟:

- إنجيل متى (٢٧/ ٥-٧): {فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه، فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يحلُّ أنّ نلقيها في الخزانة لأنّها ثمن دم، فتشاوروا واشترَوا بها حقل الفَخّاريِّ مقبرةً للغرباء}.

- سفر أعمال الرسل (١/ ١٨): {فإنّ هذا اقتنى حقلًا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوَسْط، فانسكبت أحشاؤه كلها}.

- **الاختلاف في مكان مولد المسيح:**

- إنجيل متى (٢/ ١) يذكر أن المسيح وُلد في بيت لحم؛ حيث يقول: {ولمّا وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية}.

- إنجيل مرقس (١/ ٩) يذكر أن المسيح وُلد في الناصرة؛ حيث يقول: {وفي تلك الأيّام جاء يسوع من ناصرة الجليل}.

- **الاختلاف في بعض التفاصيل في حادثة الصلب مثل:**

- **وقت الصلب:**

إنجيل مرقس (١٥/ ٢٥) يذكر أن الصلب حدث في الساعة الثالثة: {وكانت الساعة الثالثة فصلبوه}.

إنجيل يوحنا (١٩/ ١٤-١٨) يذكر أن الصلب حدث في الساعة السادسة: {وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة فقال لليهود: هُوَذَا ملككم؟!، فصرخوا: خُذْهُ! خُذْهُ! اصلبه!...، فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب. فأخذوا يسوع ومضوا به، فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع.....حيث صلبوه}.

إنجيل متى (٢٧/ ٤٦) يذكر أنّ الصلب حدث في الساعة التاسعة: {ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: إلهي، إلهي، لماذا تركتني}.

- **موقف اللّصين اللّذين صُلبا يومها:**

إنجيل متى (٢٧/ ٤٤) يُخبرنا أنّ كلا اللصين سخرا من المسيح، فيقول: {وبذلك أيضًا كان اللّصّان اللذان صُلبا معه يُعيِّرانه}.

إنجيل لوقا (٢٣/ ٣٩-٤٠) يُخبرنا أن أحد اللّصين سخر من المسيح والآخر دافع عنه؛ فيقول: {وكان واحدٌ من المذنبين المعلَّقين يُجدِّف عليه قائلا: إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيانا!، فأجاب الآخر وانتهره قائلًا: أولًا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحُكم بعينه؟}.

- **شخص الرجل الّذي كان يحمل صليب المسيح (سمعان القيروان أم المسيح ذاته)؟!:**

إنجيل متى (٢٧/ ٣٢-٣٣) يُخبرنا بأن رجلًا يُدعى سمعان القيروان هو الذي حمل صليب المسيح: {وفيما هم خارجون (أي المسيح واللّصان) وجدوا إنسانًا قيروانيًا اسمه سمعان فسخّروه ليحمل صليبه، ولمّا أتوا إلى موضع يُقال له جُلجُثة وهو المُسمّى (موضعَ الجُمجُمة)..}.

إنجيل يوحنا (١٩/ ١٧) يُخبرنا بأن المسيح نفسه هو الذي حمل صليبه: {فخرج وهو حاملٌ صليبه إلى الموضع الذي يُقال له (موضعُ الجُمجُمة) ويُقال له بالعِبرانية جُلجُثة}.

- ومن مظاهر وقوع التحريف في العهد الجديد أيضًا ذلك **النص الشهير الذي يُؤسِّس لعقيدة التثليث والموجود في رسالة يوحنا الأولى** (٥/ ٧) حيث يقول: {فإن الذين يشْهدون في السماء هم ثلاثةٌ: الآب، والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحدٌ}.

وترجع أهمّية ذلك النّص لدى النّصارى إلى كونه النص الوحيد المؤسس لعقيدة التثليث والتي هي أصل الأصول والعقيدة المركزية في الإيمان المسيحي، فهي توازي في أهمّيّتها ومركزيّتها مثلًا عقيدة التوحيد في الإسلام بحيث لا يُسمَّى الشخص مسيحيًّا إلا إذا آمن بذلك الثالوث المقدس، لكن الغريب في الأمر أنّه على الرغم من كل ذلك فإنّ الجزء الهام من النص -وهؤلاء الثلاثة هم واحد- ليس له أي وجود في المخطوطات القديمة قبل القرن الخامس عشر الميلادي، مِمّا يعني أنّه ليس من أصل الكتاب بل تم إدخاله إلى رسالة يوحنا لاحقًا بعد ذلك، ولذلك تمّ حذفه وإزالته من الترجمات العربية الجديدة للكتاب المقدس مثل الترجمة الكاثوليكية الحديثة أو الرهبانية اليسوعية (العربية)

وأيضًا الترجمة العربية المشتركة، كما أنّ بعض الترجمات العربية والأجنبية تضع هذا النص -وهؤلاء الثلاثة هم واحد- بين قوسين أو تكتبه في هامش الصفحة لأنّهم يدركون جيدًا أنّه أُدخل إلى العهد الجديد لاحقًا.

وقد علّقت (دائرة المعارف الكتابية) على ذلك النّص في رسالة يوحنا تعليقًا في غاية الأهمية حيث قالت:

"وقد حدثت أحيانًا بعض الإضافات لتدعيم فكرٍ لاهوتي، كما حدث في إضافة عبارة: (والذين يشهدون في السماء هم ثلاثة...) حيث إنّ هذه العبارة لا توجد في أي مخطوطة يونانية ترجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر، ولعل هذه العبارة جاءت أصلًا في تعليق هامشي في مخطوطة لاتينية، وليس كإضافة مقصودة إلى نص الكتاب المقدس، ثم أدخلها أحد النساخ في صلب النص"(١).

وكان ممّن اهتم أيضًا بدراسة ونقد ذلك النص العالم الفيزيائيُّ السير إسحاق نيوتن والذي كانت له اهتمامات ودراسات لاهوتية هامة منها أنّه قام بدراسة ذلك النص دراسةً نقديةً كشفت عن عدم أصالته وحقيقة إقحامه في العهد الجديد فقد قال في رسالته المُعنونة بـ(وصف تاريخي لتحريف نصين مهمين من الكتاب المقدس: التثليث والتجسد):

"أنّ في خضم ذلك الجدال العنيف في العالم كله حول الثالوث في عصر جيروم وحتّى قبله ولوقتٍ طويل بعده فإنّ أحدًا لم يُفكّر لمرة واحدة في ذلك النص، أما الآن فالنص في فم كل شخص، ويُستخدم بشدة لإثبات الثالوث، وبلا شك كان السابقين سيستخدمونه بنفس الشكل إن كان موجودًا في كتبهم، ولم يُقابلنا هذا النّص ولو مرة واحدة في كل النزاعات والرسائل والخطب والكتابات الأخرى لليونانيين واللاتينيين"(٢).

---

(١) دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٩٥) طبعة دار الثقافة.

(٢) وصف تاريخي لتحريف نصين مهمين من الكتاب المقدس-التثليث والتجسد للسير إسحاق نيوتن ص ٥٦ - طبعة مركز نماء للبحوث والدراسات.

- من أدلة حدوث التحريف في العهد الجديد أيضًا تلك النّبوءة التي تنبَّأ بها يسوع أمام التلاميذ والتي جاءت في إنجيل متَّى (١٦/ ٢٧-٢٨) حيث قال لهم مُبشّرًا بأنَّ موعد المجيء الثاني قد اقترب وأنّ بعضهم -أي بعض التلاميذ- لن يموت حتّى يشهده حيث ينزل المسيح من السماء فيقوم الأموات من القبور ويتغيّر الأحياء ثمّ يختطف المسيحُ الجميع لملاقاة الرب فيما يُعرف بيوم الاختطاف أو يوم الدينونة (يوم القيامة)[١]: {سيجيء ابن الإنسان في مجد أبيه مع ملائكته، فيجازي كل واحد حسب أعماله، الحق أقول لكم: في الحاضرين هنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا مجيء ابن الإنسان في ملكوته}[٢].

بالطبع هذه النبوءة لم تحدث مطلقًا لأنّ الحواريين أو تلاميذ المسيح قد ماتوا جميعًا ولم يأت المسيح المجيء الثاني ليحاسب الناس على أعمالهم، بل إن ذلك لم يحدث حتّى يومنا هذا بعدما مرّ على تلك النبوءة ما يقارب الألفي عام.

ويظهر هنا بكل وضوح الفارق النوعي بين نبوءات القرآن ونبوءات العهد الجديد، فعندما تحدثنا في الفصل الخاص بالإعجاز الغيبي في القرآن الكريم عن تلك النبوءات المستقبلية التي تنبَّأ بها القرآن والرسول وجدنا أنّها حدثت جميعها دون أي انخرامٍ في أيٍ منها[٣] بخلاف العهد الجديد كما رأينا عندما تنبّأ كشف عن بشريته وأظهرها.

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي (٤/ ١٦، ١٧): {لأنّ الرب نفسه بهُتافٍ، بصوت رئيس ملائكةٍ وبُوق الله، سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولًا، ثمّ نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعًا معهم في السّحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون كل حينٍ مع الرب}.

(٢) نلاحظ هنا أنّ الضمير في كلمة (ملكوته) يعود بالطبع على الوصف السابق المذكور للكلمة وهو {مجيء المسيح في مجد الآب مع الملائكة ليجازي الناس} وذلك لأنّ الضمير يعود على أقرب مذكور كما هو معلومٌ عند علماء اللغة.

(٣) حديثي هنا عن النبوءات القرآنية التي وقعت بالفعل بعد ذلك والتي أصبحت قابلة للتصديق والتكذيب وبالتالي تصلح كدليلٍ على الإعجاز القرآني وإلهيّة مصدره أو على كذبه وبشريَّة مصدره، وليس حديثي هنا بالطبع عن تلك النبوءات القرآنية الأخرى التي لم يَحِنْ موعد وقوعها بعد كأخبار نهاية العالم ومشاهد يوم القيامة وخلافه فهذه الأخبار يأتي التصديق بها بناء على الإقرار بصدق نبوة محمد وبما أخبر به.

وأنا كمسلم أعتقد أنّ المسيح ابن مريم هو رسولٌ من عند الله حقًا، وأنّ كلامه صدقٌ وحق، ولذلك فالاحتمال الوارد في نص النبوءة بموعد المجيء الثاني هذا هو إمّا أن يكون نصًّا مُقحَمًا من الأساس أي ليس من كلام المسيح، أو أن يكون قد قال المسيح مثله بالفعل وقتها ولكن تم تحريفه وتغيير سياقه ودلالته وبالتالي لم تتحقق النبوءة، ومن الوارِد أنّ يكون وقوع ذلك الإقحام أو التبديل في هذا النّص قد حَدَثَ وانتشر في وقتٍ مبكرٍ من تاريخ المسيحية (أي بعد رفع المسيح مباشرة) ممّا جَعَلَ له الأثر في عدم تدوين التلاميذ لإنجيل المسيح وكلماته لظنّهم أنّ العالم سيفنى سريعًا بالمجيء الثاني للمسيح وأنّ ملكوت الرب سيُقام في حياتهم وبالتالي لم يجدوا حاجة أو فائدة من الكتابة والتدوين فتأخّر تدوين الأناجيل لذلك.

هذه النبوءة هي مجرد مثال من الأمثلة الكثيرة على أنّ العهد الجديد قد تعرّض للتدخل البشري وأنه في صورته الحالية ليس وحيًا إلهيًّا معصومًا؛ بل إنّ التوصيف الأكثر دقةً ليس أنّه فقط طرأ عليه التحريف والتبديل بل إنّه أصلًا من البداية جهدٌ بشريٌّ خالصٌ قام بتأليفه أشخاص عاديون عن بعض مواقف المسيح وأقواله وسيرته مثله مثل كُتب السيرة النبوية عند المسلمين والتي قام بتأليفها أيضًا أشخاص عاديون لا أنبياء ولا معصومين، وبالتالي فإنّ العهد الجديد هذا لا يُمكن اعتباره بحال وحيًا إلهيًّا معصومًا يُؤخذ منه الدين والاعتقاد، بل إنّ الحقيقةَ أنّ الفارق بينه وبين كتب سيرة النبي عند المسلمين كبيرٌ ونوعيٌّ حيث إنّ الثانية (كتب سيرة النّبي) وإن كانت جهدًا بشريًّا في أصلها إلّا أنّها قائمة في أغلبها على روايات مُسندة من الممكن مراجعتها والتأكد من صحتها سندًا ومتنًا، فكما قُلنا قبل ذلك أنّ الشخص الوحيد في تاريخ البشرية الذي نُقلت سيرته كاملة بالأسانيد التاريخية هو النّبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في حين أنّ الأناجيل بالطبع تفتقد هذه الخاصية فهي مرويات عن أناس مجهولين لرواياتٍ غير مُسندة عن المسيح!

الأوضح من كل ذلك فإنّ هناك بعض النصوص في العهد الجديد ذاته تشير إلى حدوث التغيير والتدخل البشري في الكتاب المقدس والعقائد والوصايا فينسبون للربِّ قولًا في إنجيل متى (٩/١٥): {وباطلًا يعبدونني وهم يُعلِّمون تعاليم هي وصايا الناس}، ونلاحظ هنا قرب معنى ذلك النص من واقع الكنيسة وتاريخها حيث إنّ تعاليم المسيحية قد تم تقريرها والتأسيس لها على يد آباء الكنيسة الأوائل وليس من خلال الكتاب المقدس، ولذلك نجد نفس ذلك المعنى في الآية القرآنية التي تحدّث الله فيها عن النصارى حين قال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١].

ومِمّا يُؤكَّد أيضًا نفي العصمة عن أسفار العهد الجديد أنّ بعضَ كُتّابِها أنفسَهم قد صرّحوا بذلك وأنّهم لا يَرَون أنفسهم مدفوعين من قِبَل الرب أو ناقلين عنه أو مدعومين بروح القُدُس، بل صرّحوا بخلاف ذلك وأنّهم مجرد أصحاب رأي واجتهاد، ومن هذه النّصوص:

- لوقا يفتتح إنجيله بالحديث عن السبب وراء تأليفه للإنجيل، فيذكر أنّ الكثير صار يكتب ويُؤلِّف قصصًا عن المسيح وأنه أراد أيضًا أن يكتب ما يراه صحيحًا دون أي تلميحٍ أو ذكرٍ منه بأنّ ذلك كان بوحيٍ أو إلهامٍ أو أمرٍ إلهي، فيقول لوقا في مُفتَتَح إنجيله (١/ ١-٤): {إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخُدّامًا للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به}.
- بولس في رسالته الأولى إلى كورنثوس (٧/ ٢٥، ٢٦) يقول: {أما العذارى فليس عندي أمرٌ من الرب فيهن ولكنني أعطي رأيًا كمن رحمه الرب أن يكون أمينًا، فأظن أن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر}.

- بولس في رسالته الأولى أيضًا إلى كورنثوس (٧/ ٣٨-٤٠) يقول: {إذًا من زَوَّج حسنًا يفعل ومن لا يُزَوِّج يفعل أحسن، المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رَجُلها حيًّا ولكن إن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط، ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا بحسب رأيي وأظن أني أنا أيضًا عندي روح الله}.

وهكذا كما نرى أنّ الأمر برمته كان مجرد ظنونٍ وآراءٍ شخصية ودوافع لدى الكاتب ولا علاقة له بالوحي والإلهام والعصمة.

وأختم حديثي هنا بهذا الإعتراف الهام الذي أدلى به كاتبوا الترجمة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس أنفسهم والذي وضعوه في الجزء الخاص بمدخل إلى العهد الجديد حيث يؤكّد بشكل قاطع نظرة علماء المسيحية والكتاب المقدس للعهد الجديد بعدم عصمته فقالوا:

"إنّ نُسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست كلها واحدة، بل يُمكن المرء أن يرى فيها فوارق مختلفة الأهمية، ولكن عددها كثير جدًّا على كل حال.

واكتشاف مصدر هذه الفوارق ليس بالأمر العسير، فإنّ نص العهد الجديد قد نُسِخَ ثم نُسِخَ طُوالَ قرون كثيرة بيد نُسّاخ صلاحهم للعمل متفاوت، وما من واحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتصف أي نسخة كانت، مهما بُذل فيها من الجهد بالموافقة التامة للمثال الذي أخذت عنه، يضاف إلى ذلك أن بعض النساخ حاولوا أحيانًا عن حسن نية أن يصوبوا ما جاء في مثالهم وبدا لهم أنه يحتوي أخطاء واضحة أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، وهكذا أدخلوا إلى النص قراءات جديدة تكاد أن تكون كلها خطأ، ومن الواضح أنّ ما أدخله النّساخ من التبديل على مر القرون تراكم بعضه على بعضه الآخر، فكان النص الذي وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مثقلًا بمختلف ألوان التبديل ظهرت في عدد كبير من القراءات.

والمثال الأعلى الذي يهدف إليه علم نقد النّصوص هو أن يُمّحص هذه الوثائق المختلفة لكي

يقيم نصًّا يكون أقرب ما يمكن من الأصل الأول، ولا يُرجى في حالٍ من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه"[1].

نخلُص من كل ما ذكرناه أنّ البحث في العهد الجديد على المستويين التاريخي والنّصي يؤكّد عدم عصمة العهد الجديد وأنه مجهود بشري في أصله أبعدَ ما يكون عن كونه وحيًا إلهيًّا معصومًا، وبالتالي فهو بالضرورة ليس الكتاب الحامِل للرسالة الإلهيّة، وبالتالي فالمسيحية ليست هي الدين الحق.

(١) انظر: نسخة الترجمة اليسوعية - العهد الجديد ص ١٢، ١٣.

- **القرآن ومعيار الحفظ من التحريف:**

يتميّز القرآن بأنه كتابٌ متصل السند من أوله إلى مُنتهاه وليس فيه أي انقطاع؛ فلقد نُقل القرآن الكريم إلينا بالتواتر(١)، والذي هو أعلى درجات الثبوت التاريخي حيث يفيد اليقين والعلم الضروري الذي لا يحتاج إلى بحث ونظر.

ولذلك لا يشك أحد في أن القرآن الذي بين أيدينا الآن هو نفسه الذي تكلم به النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد تَمَّ حفظه في صدور المؤمنين وسطورهم، وقام الصحابة بكتابته منذ زمان النبي (وهو لا يزال حيًّا بين أظهرهم)، وكان بعض الصحابة مثل زيد بن ثابت قد أقرأه النبي القرآن بعد العرضة الأخيرة(٢)، حيث كان يعرض فيها جبريل القرآن على النبي في رمضان كل عام وفي رمضان الأخير قبل وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضه مرتين(٣).

ثم جاء الخليفة أبو بكر الصديق -وقد تولى الخلافة ١١ هجرية وهو ذات العام الذي توفي فيه رسول الله- واتفق مع جميع الصحابة على جمع القرآن في ديوان واحد حفاظًا عليه من أي تحريف خاصة عندما يموت الصحابة الذين سمعوه وحفظوه مباشرة من الرسول وكما قال زيد بن ثابت: «وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر»(٤).

---

(١) التواتر -كما تقدم- هو ما رواه جمع كثير عن جمع كثير -من أول السند إلى منتهاه- يستحيل تواطؤهم على الكذب، ويكون مستند خبرهم الحس.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١): «والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقي ما بقي، ويذهب ما نسخ، توكيدًا، أو استثباتًا وحفظًا؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره عَلَيْهِ السَّلَامُ على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتراب أجله».

(٣) رواه البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠) عن فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: أخبرني -تعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضه الآن مرتين، «**وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري**».

(٤) رواه البخاري (٤٦٧٩) عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر ابن الخطاب عنده، قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن عمر أتاني فقال: «**إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن،** =

وهكذا جُمعت صحائف القرآن -التي كُتبت في زمان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في خلافة الصديق ١١هـ وهكذا في خلافة الفاروق عمر ١٣هـ ثم جاء الخليفة عثمان بن عفان -والذي تولى الخلافة ٢٣هـ- فوجد الدولة الإسلامية قد اتسعت ودخل في الإسلام الكثيرُ من الأعاجم وهم حدثاءُ عهدٍ باللغة العربية، فانتشرت اللغات واللهجات المتعددة وضعفت العربية، فخاف عثمان على القرآن من ضياع لغته الأصلية، فأمر جميع المسلمين بحرق مصاحفهم الخاصة بهم وجمعهم على مصحف واحد فقط بلغة ولسان قريش وهو ما يعرف بالمصحف العثماني، ثم أرسل نسخًا منه إلى الأمصار والأقطار المختلفة وأرسل مع كل نسخة حافظًا متقنًا معلمًا لكتاب الله وفق الحرف العثماني(١)، ولقد وافق الصحابة عثمانَ على ذلك بل وعدّوها من مناقبه إلى يومنا هذا.

في الوقت ذاته كان هناك مسارٌ موازيًا لمسار التدوين (حفظ السطور) ولكنه أكثر دقة وإحكامًا لحفظ كتاب الله وهو مسار السماع والتلقي جيلًا بعد جيل أو مسار (حفظ

= **وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن»**، قلت لعمر: «**كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟**» قال عمر: «**هذا والله خير**»، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: «**إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فتتبع القرآن فاجمعه**»، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: «**كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟**»، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) رواه البخاري (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: «**أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك**»، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «**إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم**»؛ ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق.

الصدور)، فلقد تم أيضًا حفظ القرآن في صدور المسلمين عبر الأزمان المختلفة؛ فقد كان هناك عددٌ كبيرٌ من حفظة القرآن من الصحابة والذين تلقوه مباشرة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قرؤوه على من بعدهم وهكذا حتى وصل إلينا غضًّا طريًا كما أُنزل على رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

إذن النص الأصلي للقرآن موجود ومحفوظ بنفس اللغة العربية التي تكلم بها النبي، فعلى الرغم من أن المسار الأساسي والأهم الذي اعتمد عليه المسلمون والذي حافظ على القرآن الكريم من أي تغيير هو مسار حفظ الصدور المتواتر من خلال السماع والتلقي جيلًا بعد جيل إلا أننا نجد مسارًا آخر دقيقًا لحفظ القرآن وهو مسار حفظ السطور، ونجد (وعلى خلاف الكتاب المقدس) أن هناك مخطوطات كثيرة كاملة للقرآن ترجع للقرنين الأول والثاني الهجري، وبذلك يكون السياق التاريخي للقرآن بداية من نزوله ثم تدوينه وحفظه في صدور السابقين ثم جمعه واعتماد لغة قريش عن باقي لغات العرب هو سياق يؤكد أن لهذا الكتاب وضعٌ خاص، وأن الله أراد حفظه كونًا وهيأ المسلمين لذلك؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وذلك بسبب طبيعة كونه الرسالة الخاتمة التي أنزلها الله للإنسان فلن تكون هناك كتب أو رسالات أخرى لتكمل تصورًا مفقودًا أو ضائعًا أو تصحح مسارًا محرفًا أو مبدلًا، وبالتالي فقضية تحريف الرسالة الخاتمة ليست داخلة في الإمكان العقلي بل من المستحيل وقوعها لتعلقها تعلقًا مباشرًا بحكمة الله وقدرته، بخلاف تحريف الكتاب المقدس فهي داخلة تحت إطار الإمكان العقلي، لأنها ليست بخاتمة ولو حُرِّفت فسيرسل الله ما يصحح به هذا التحريف -وقد كان-، ولذلك وكَّل الله حفظ التوراة والإنجيل لليهود والنصارى ولم يتعهد سبحانه بحفظهما.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

كما أن الكتاب المقدس نفسه في سفر التثنية (٤/ ٢) يقول: (يا إسرائيل اسمع الفرائض والأحكام لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب إلهكم الذي أنا أوصيكم بها).

وكما أن المظاهر على تحريف الكتاب المقدس بعهديه كثيرة جدًّا فإن المظاهر على حفظ القرآن الكريم كثيرة، وتجليات هذا الحفظ تظهر في العديد من التفاصيل الجديرة بالتدبر والتأمل.

ومن مظاهر حفظ القرآن الإجازات التي يحصل عليها من يحفظ القرآن على يد شيخ من الشيوخ الثقات الحاملين للإجازات.

فإذا نظرنا في هذه الإجازات سنجد أن كل شخص قد سمع وحفظ ثم قرأ القرآن كاملًا على يد الشخص الذي قبله في سلسلة الإجازة، وهكذا حتى نصل إلى أحد الصحابة ثم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وعليه فإن كثرة هذه الإجازات يؤكد أيضًا تواتر القرآن مع استحالة اتفاق كل هؤلاء على الكذب، وقد نقل ابن الجزري ٩٨٠ طريقًا للقرآن تعود إلى الصحابة لا تختلف عن بعضها في شيء![1].

ومما يؤكد أيضًا حفظ القرآن من التحريف علم التجويد وهو قواعد تضمن لنا القراءة الصحيحة للقرآن كما قرأه النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدون خطأ أو لحن، فنجد أن كل من أراد أن يقرأ القرآن بشكل صحيح أو يؤم الناس في الصلاة لا بد أن يتعلم

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (١/ ١٩٠).

قواعد علم التجويد حتى لا يلْحن في قراءته.

إضافة إلى ذلك ما قام به الخليفة علي بن أبي طالب (وقد تولى الخلافة ٣٥ هـ) حين أمر أبا الأسود الدؤلي بتقعيد علم النحو، وبوضع نقاط على الحروف لبيان حركات الفتح والضم والكسر حتى لا تتغير ألفاظ القرآن وكلماته على الرغم من أن الصحابة والحُفاظ كانوا لا يزالون على قيد الحياة، ولكن خشية من أن يُنسخ العلم بعد ذلك.

وهكذا نلاحظ أن تلك الإجراءات الوقائية لصيانة القرآن العظيم من التحريف مثل: جمع القرآن، ونشر المصحف في الأمصار وجمع المسلمين عليه، ونقل القرآن لفظًا ومعنى، دراية ورواية بالمشافهة ثم الإجازة بالسند المتصل مع ضبط أوجه القراءات ثم تقعيد علم النحو وهكذا فقد تم ذلك كله في سنوات مبكرة من التاريخ الإسلامي بل في أقل من خمسة وعشرين عامًا!.

من مظاهر حفظ القرآن من التحريف أيضًا أن الله فرض على الرسول والصحابة في بداية الدعوة قيام الليل كله في كل ليلة على الرغم من أن القرآن وقتها لم يكن نزل منه إلا القليل، وذلك الأمر الإلهي جعل الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب بسبب كثرة تكرار قراءته في الصلاة طوال الليل كل يوم.

مما يؤكد حفظ القرآن أيضًا منع الرسول الصحابة من تدوين السنة في بداية الدعوة خوفًا من أن تختلط بالقرآن، حيث كان الصحابة وقتها حُدثاء عهد بالأسلوب الأدبي القرآني، والأسلوب الأدبي النبوي؛ فعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين الأسلوبين إلا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ انتظر حتى تستقر الأمور ويصبح لدى الصحابة الخبرة الكافية للتمييز بين القرآن وغيره من الحديث النبوي وبذلك يكون قد زال المانع من تدوين السنة.

ومما يسر أيضًا حفظ القرآن في الصدور أن الله اختص العبارة القرآنية بنظم مميز مما يجعلها سهلة الحفظ والتذكر.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧].

وهناك عوامل أخرى خاصة بالظرف والسياق الزماني والمكاني الذي نزل فيه القرآن وهي مما ساعد أيضًا على حفظ القرآن من التحريف مثل قوة ملكة الحفظ عند العرب، لأنها كانت الطريقة الأساسية عندهم لحفظ الأشعار وتناقلها، كما كانت لهم معرفة بالكتابة والتدوين؛ حيث كانوا يُدونون الأشياء المهمة التي لها شأن خاص خوفًا عليها من الضياع مثل المعلقات التي كُتبت ودُونت وعُلقت على أستار الكعبة.

وبالتالي عندما بُعث النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالقرآن وأصبح هو أهم شيء عند العرب المسلمين فمن المنطقي أن يكون له الأولوية بالكتابة والتدوين خوفًا عليه من الضياع.

أيضًا هناك بعض التشريعات التي شرعها الله خصيصًا من أجل الحفاظ على النص القرآني من أي تدخل بشري قد يلحق به مثل تحريم نقل القرآن بالمعنى، فلا يجوز نقل القرآن إلا بلفظه الذي أنزل به، حتى الأعاجم الذين لا يتكلمون اللسان العربي يجب أن يقرؤوه في الصلاة بلفظه العربي كما أنزل، فتجد الخطيب الأجنبي يخطب في الناس بلغته ثم حين يصلي بهم فإنه يُصلي بالقرآن كما هو بلغته العربية التي نزل بها.

من تلك التشريعات التي تحفظ النص القرآني كذلك أمر الله المأمومين بالفتح على إمام الصلاة إذا أخطأ في قراءته[1]، حتى نجد الطفل الصغير الحافظ لكتاب الله يفتح على الشيخ الكبير ويُصحح له إذا أخطأ! وهذا أمر مستقر في العقل الجمعي للمسلمين فهم لا يتحملون سماع أي خطأٍ في قراءة القرآن بل ينتفضون سريعًا ليصححوا هذا الخطأ وإن كان صغيرًا لا يُذكر ولا يغير المعنى.

(١) والفتح على الإمام يعني تصحيح ما وقع من خطأ أثناء قراءة الإمام في الصلاة وهو مشهور عند المسلمين.

إذن يتضح لنا أن:

القرآن هو الكتاب الوحيد من بين الكتب الأخرى الذي لم يتعرض لأي تدخلات بشرية، ولم يطرأ عليه التحريف والتبديل مثلما طرأ على الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

كما أنه الكتاب الوحيد الذي لا يحتوي على أي تناقضات نصية بداخله بخلاف الكتب السابقة أيضًا[1].

ووجود التناقضات في كتاب هو دليل قطعي على أنه ليس من عند الله ابتداءً أو أن أصله كان من الإله ثم طرأ عليه التدخل البشري بالتحريف والتبديل، وعلى كلا الاحتمالين يكون فاقدًا للعصمة المُستمدة من كونه وحيًّا إلهيًّا معصومًا وفق المعيار الإلهي الموضوعي الدقيق: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

إذن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي حُفظ كاملًا من أي تحريف، والدليل على ذلك ليس فقط تلك الآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

ولكن الدليل القطعي على حفظ القرآن من التحريف هو حفظه ونقله جيلًا بعد جيل بالتواتر الذي يفيد اليقين عند عقلاء البشر جميعًا، وإن كانت الآية القرآنية السابقة أيضًا تصلح كدليل على حفظ القرآن ولكن من جهة غير مباشرة من خلال إثبات أن القرآن وحي إلهي معصوم، ويتحقق ذلك بذكر صور الإعجاز القرآني كالإعجاز البلاغي والغيبي وغيرها، ثم بعدها يصبح القرآن بأكمله مصدرًا مؤسِّسًا لمعرفة يقينية.

(١) المقصود بالتناقضات هنا التناقضات النَّصِّيَّة التي يستحيل معها الجمع أو التأويل مثل تلك الأمثلة التي ذكرناها من نصوص العهد القديم والجديد، لكن قد يُوجد في القرآن ما يُوهم تعارضًا ظاهريًا بين بعض النصوص ولكن عند التحقيق لن نجد أنّ ذلك تعارضًا حقيقيًّا بل هناك أوجه للجمع بين تلك النصوص من خلال بيان المراد من كل نصٍ منها وما قد يحتمل منها تأويلًا مقبولًا وفق ضوابط التأويل وأصول التفسير.

وحينها تكون الآية القرآنية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] بمثابة الإخبار عن أمر كوني قدري أراد الله وقوعه سلفًا ثمّ هيّأ لذلك أسبابه.

هكذا نجد القرآن والواقع والعقل والتاريخ جميعُهم يؤكدون حفظ القرآن من التحريف.

نجد القرآن يُفسر لنا بوضوح تام المشهد بأكمله، حيث يصف الكتب السابقة (التوراة والإنجيل) بالتحريف، وأن هذا التحريف حدث لأن الله أمر اليهود والنصارى بحفظ كتابهم أمرًا شرعيًّا تكليفيًّا اختبارًا وامتحانًا لهم ثم وكَلَهم إلى أنفسهم في ذلك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].فما كان منهم بعد ذلك إلا أن حرفوا وبدلوا وغيروا حتى وصل الكتاب المقدس إلى الصورة التي وصفناها سابقًا.

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣]..

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:٧٩].

وهنا سؤالٌ هامٌ كثيرًا ما يطرحه اليهود والنصارى مُسببًا لهم إشكالًا وهو:

كيف يتم تحريف كلمات الله؟ وهل الله عاجز عن أن يحفظ كلمته؟!

وللإجابة على ذلك السؤال لا بد أن نعلم أولًا أنه لا يحدث شيء في الكون بأسره إلا بإرادة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

فالله هو الذي أراد وقوع التحريف في الكتب السابقة لكنه أراد ذلك إرادة كونية قدرية، لا إرادة شرعية.

فالله قادرٌ قطعًا على حفظ كلمته التي تجلّت في الكتب السابقة ولكنّه أمر أهل الكتاب شرعًا أن يحفظوها ولكنهم أضاعوها، وذلك التحريف في الكتب السابقة الغير خاتمة ليس طعنًا وقدحًا في حكمة الله؛ لأنه أنزل بعدها كتابًا قرر فيه ما يُريده من الناس وصحّح ما في الرسالات السابقة من تبديل وانحراف.

وهنا يحق لنا نحن المسلمون أن نوجّه إلى اليهود والنصارى بعض الأسئلة الهامة:

ألم يقتل بنو إسرائيل بعضَ أنبيائهم؟!

ألم يذكر العهد القديم نفسُه قتلَ اليهود للأنبياء؟!

ألم يخبرنا سفر الملوك الأول (١٩/ ١٠) عن ذلك قائلًا: {لقد غرت غيرة للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف}.

ألم يؤكد ذلك أيضًا سفر نحميا (٩/ ٢٦) حين قال: {وعصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليك ليردوهم إليك وعملوا مجزرة عظيمة}.

بل أكثر من ذلك نسأل النصارى تحديدًا ألم يقتل اليهود والرومان المسيح نفسه -وفق إيمانكم وهو الله الظاهر في الجسد- بعد أن بصقوا على وجهه وأهانوه على حد زعمكم؟!

هل يجوز لنا القول بعد ذلك أنّ الله كان عاجزًا عن حماية أنبيائه؟!

الحقيقة أن الله على كل شيء قدير، ولكنه أراد حدوث كل ذلك كونًا وقدرًا ولم يُرده شرعًا، فالكافر لا يكفر إلا بقدرة الله، والعاصي لا يعصي إلا بقدرة الله، على الرغم من أن الله لا يحب ذلك ولا يريده شرعًا، فهو لم يأمرهم بذلك كما أن الله لا يرضى لعباده الكُفر، ومع ذلك تركهم الله يفعلون ذلك لحكمته ليَهْلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

خلاصة ما سبق أن مسألة وقوع التحريف في الكتب السابقـة هي ممكنة الوقوع والحدوث، ولا يمكننا الجزم باستحالة وقوع ذلك التحريف إلّا في حالة الرسالة الإلهيّة الخاتمة التي لن تنزل بعدها رسالةٌ أخرى لتصحح ما وقع فيها من خطأ؛ لذلك تعهد الله بحفظ القرآن تحديدًا دون سائر كتبه السابقة، فصارت مسألة حفظ القرآن مسألة قدرية كونية واقعة، ولا تبديل لكلمات الله الكونية.

وقد يورد البعض استشكالًا آخر وهو أن جميع المسيحيين يؤمنون بقصة صلب المسيح مثلًا، ألا يكون ذلك تواترًا وبالتالي تصبح تلك القصة صحيحة؟!

والحقيقة أن من يقول ذلك إما أنه لا يعلم ما معنى التواتر وما هي شروطه ويظن أن مجرد شهرة وانتشار القول تعني بالضرورة تواتره!

أو أنه لا يدري شيئًا عن تاريخ العقائد المسيحية والكتاب المُقدس.

فالتواتر كما ذكرنا يُفيد اليقين، ولكن لا بد له من شروط حتى نستطيع الحُكم على واقعة تاريخية معيّنة بالتواتر.

وشروط التواتر هي:

١) أن يروي الواقعة الجمع الكثير عن الجمع الكثير.

٢) أن يكون ذلك من أول السند إلى نهايته.

٣) أن يكون من المستحيل اتفاقهم على الكذب.

٤) أن يكون مُستند خبرهم الحس.

فإذا طبقنا هذه الشروط على قصة الصلب مثلًا فسنجد أنّ هناك انقطاعًا في السند، بل إنه وفق الروايات الإنجيلية ذاتها فإنّه لم ير أحدٌ من تلاميذ المسيح ولا من رواة الأناجيل واقعة صلب المسيح كما نقل ذلك مُرقس في إنجيله (١٤/ ٥٠) حاكيًا عن موقف التلاميذ لحظة القبض على المسيح للمحاكمة والصلب حيث قال: {فتركه الجميع وهربوا}[١]، وكما نقل أيضًا إنجيل متى (٢٦/ ٥٦) ذلك الموقف من التلاميذ حيث هربوا ولم يشهد أحدٌ منهم الواقعة فيقول: {حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا}.

وبالتالي فإنّ قصة الصلب لم يتحقق فيها أهم شروط التواتر وهو أن يرى رواتها الواقعة التاريخية بأنفسهم فضلًا عن أن يكون عددهم كثير، كما أنّ هناك شكًّا أيضًا في تحقق باقي شروط التواتر وهي أن يظل السند التاريخي مُتصلًا بعد ذلك بالعدد الكثير أيضًا وبكيفية طبيعيّة تجعلنا لا نشكّ في وجود اتفاقٍ على الكذب، وهذا كله بالطبع يجعلنا نشكّ في حدوث تلك الواقعة من الناحية العلمية التاريخية وإلّا فنحن -كمسلمين- نقطع بعدم صحتها من خلال الدلالة الواضحة والصريحة لمصدر آخر من مصادر المعرفة وهو الوحي الذي جاء به النّبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) عدم رؤية التلاميذ للمسيح لحظة الصلب، وأنهم لم يجدوا جسده في قبره -وفق الأناجيل أيضًا، ثم رأوا المسيح ذاته بعد ذلك حيث أوصاهم بالتبشير والدعوة ثم رُفع إلى السماء.. هذا كله أقرب إلى السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

بالإضافة إلى القول المنسوب للمسيح لحظة الصلب عندما صرخ بأعلى صوته قائلًا: (إلهي إلهي لماذا تركتني؟!)..هذا القول أقرب لأن يكون الذي قاله شبيه المسيح وليس المسيح نفسه لأنه يحمل معنى الاعتراض على قضاء الله، والأنبياء مُنزهون عن ذلك فضلًا عن أن يكون الذي قال ذلك هو الله الذي ينتظر تلك اللحظة ليُكمل خطته التي رسمها فيُصلب ويموت تكفيرًا للبشرية عن خطيئتهم التي لم يفعلوها!!

لماذا يصرخ الإله وهو الذي رسم كل ذلك السيناريو؟! ولمن يصرخ؟! ومن هو إلهه هذا في ذلك الموقف؟! وهل هذا الكلام المذكور يجوز تصوره في حق نبي فضلًا عن إله ؟!

ومن ناحية أخرى يشكك البعض في حفظ القرآن من خلال ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قالت: «**لقد نزلت آية الرجم، ورضاعة الكبير عشرًا، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشاغلنا بموته، دخل داجن فأكلها**»[1].

ولكن في الواقع هذه الرواية لا يُسلَّم بصحتها[2]، وعلى اعتبار صحتها فإنها من المنسوخ الذي نُسِخَ لفظه فلم يعد من القرآن لكن بقي مكتوبًا في صحيفةٍ عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[3]، وعلى أي الأحوال فليس هناك دليل في هذه الرواية على عدم حفظ القرآن لأنه إن كانت تلك الصحيفة قد فُقدت، فالقرآن محفوظ في صحائف أخرى كثيرة والأهم من ذلك أنه محفوظ في صدور الكثير من الصحابة الذين حفظوه عن الرسول عن ظهر قلب.

فلو افترضنا مثلًا أن النار أحرقت مائة نسخة من المصحف الآن، فهل يعني ذلك ضياع القرآن وعدم حفظه؟!

والبعض يشكك أيضًا في حفظ القرآن من خلال نقد فكرة حدوث النسخ في بعض آيات القرآن وقد أخبر الله عن ذلك قائلًا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل:١٠١].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٤٤)، و(الداجن) هي الشاة يعلفها الناس في منازلهم.

(٢) يراجع هذا الرابط للأهمية ففيه فتوى على موقع الإسلام سؤال وجواب ببيان ضعف هذه الرواية: بعنوان (حديث أكل الشاة صحيفة آية الرجم والرضاع في بيت عائشة لا يصح)

https: //islamqa.info/ar/answers/175355/

(٣) يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «صح نسخ لفظها، وبقيت الصحيفة التي كُتبت فيها -كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فأكلها الداجن، ولا حاجة بأحد إليها، وهكذا القول في آية الرضاعة ولا فرق، وبرهان هذا: أنهم قد حفظوها كما أوردنا، فلو كانت مثبتة في القرآن لما منع أكل الداجن للصحيفة من إثباتها في القرآن من حفظهم.
فبيقين ندري أنه لا يختلف مسلمان في أن الله تعالى افترض التبليغ على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بلغ كما أمر... فصح أن الآيات التي ذهبت لو أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغها لبلغها، ولو بلغها لحفظت، ولو حفظت ما ضرها موته، كما لم يضر موته عَلَيْهِ السَّلَامُ كل ما بلغ فقط من القرآن» انتهى من المُحلى (١٢/ ١٧٧).

فيقولون كيف يكون القرآن محفوظًا مع إقراركم بوقوع النسخ في بعض آياته؟

الحقيقة أن النسخ له عدة صور، فهناك نسخ لحكم الآية مع بقاء تلاوتها، وهناك نسخ لتلاوة الآية مع بقاء حكمها، وهناك نسخ لحكمها ولتلاوتها.

النسخ في حد ذاته لا يُنافي الحفظ، فالنسخ قد حدث بوحي من السماء لحكمة عند الله تعالى، وما انتهى إليه القرآن في صورته النهائية ينطبق عليه الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

والنسخ واقع وتقر به الكتب السابقة شاءت أم أبت، فالعهد الجديد نسخ بعض أحكام العهد القديم أو العتيق كما يسميه بولس[١]، كما أن الإيمان بيسوع الفادي افتداهم من لعنة ناموس وشريعة موسى على حد زعمهم[٢].

أيضًا نؤمن جميعًا بوقوع النسخ في شريعة آدم والتي كانت تبيح زواج الأخ من أخته لضمان استمرار الجنس البشري وعدم انقراضه.

الحاصل أن النسخ في عقيدة المسلمين ليس له أي علاقة بعقيدة البداءة عند اليهود حيث يعتقدون أن الله أحيانًا يجهل أشياءً ثم تتضح له بعد ذلك فيبدو له خلاف ما كان

(١) مصطلح (العهد الجديد) استخدمه المسيح كما جاء في إنجيل متى (٢٦/ ٢٨) عندما كان يتكلم مع التلاميذ في العشاء الأخير ولكن لم يكن يقصد المسيح بذلك أنه ناسخٌ لناموس موسى بل لقد صرّح بخلاف ذلك حين قال كما جاء في إنجيل متى (٥/ ١٧): {لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل}.
ولكن بولس كالعادة خالف تعاليم المسيح فهو الذي أطلق لفظ (العهد العتيق) -في مقابل العهد الجديد- قاصدًا به نسخ الناموس وإبطال العمل به كما جاء في رسالته إلى العبرانيين (٨/ ١٣) حيث قال: {فإذا قال جديدًا عتّق الأول، وأما ما عَتَقَ وشاخ فهو قريبٌ من الاضمحلال}، وكما قام هو بتغيير الكثير من أحكام الناموس وتعاليمه كالخنزير والخمر والاختتان وغيره.

(٢) وهذا بالطبع من أهم تعاليم بولس الرسول التي خالف فيها ناموس موسى وتعاليم المسيح وهو الخلاص بمجرد الإيمان المعرفي بيسوع الفادي المُخلّص للبشرية من الخطيئة الأصلية، وبالتالي فإنّ العمل بالناموس وتعاليم الأنبياء لا يفيد في الإيمان والخلاص، ولذلك يقول في رسالته إلى أهل غلاطية (٣/ ١٣): {المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنةً لأجلنا}.

يظنّ ويعتقد، بل إنّنا نقول إنّ من يعتقد مثل هذا الاعتقاد والتصوُّر في حق الله عَزَّوَجَلَّ فهو كافرٌ عند المسلمين لأنّ الله بكل شيء عليم، ولكن النسخ معناه أن الله قد أنزل حكمًا مناسبًا لفترةٍ معينة ولسياقٍ زمنيٍ محدود وعندما انتهى الغرض منه اقتضت الحكمة الإلهيّة من نزول نسخه بحكمٍ آخر، ولذلك لا يكون النسخ إلا أثناء نزول الوحي وينتهي النسخ مع انتهاء وانقطاع نزوله، ومثاله (التدرج في تحريم الخمر من قصره على وقت الصلاة إلى التحريم المطلق ونسخ ما سبق) وهو مما نُسخ حكمه مع بقاء تلاوته، ومعلومٌ أنّ ذلك التدريج في تشريع تحريم الخمر كان له من الحكم الواضحة الكثيرة والذي تكلّم عنها علماء المسلمين.

وبذلك فإن هذا التصور أو التعريف الإسلامي للنّسخ قد أزال كل المعاني السلبية واللوازم الباطلة التي قد يظنّها أو يتوهّمُها أحدٌ في ذات الله تعالى فلا يوجد هنا أي شبهةِ انتقاصٍ من كمال علم الله وحكمته وقدرته، بل إنّ وقوع مثل ذلك النسخ هو من تمام حكمة الله تعالى وإرادته الشرعية ألّا يقع الناس في حرج، أو قد يكون أحيانًا تشديدًا منه سبحانه على أقوامٍ تعنتوا وشددوا على أنفسهم كبني إسرائيل تربيةً لهم وإصلاحًا لما فسد في قلوبهم.

خلاصة الحديث أنه لا يوجد أي تعارض بين النسخ وحفظ القرآن، كما أنه لا يوجد تعارض أيضًا بين النسخ وعلم الله المطلق.

وختامًا فإن معيار الحفظ من التحريف لا ينطبق إلا على القرآن فقط، وإن حفظ القرآن عبر العصور والأزمان ووصوله إلينا كما كان في نسخته الأصلية وكما سمعه الصحابة من الرسول هو دليل على أنه الرسالة الخاتمة التي أنزلها الإله للبشر جميعًا، وأن الإسلام هو دين الله الحق من بين سائر الأديان.

الفصل الرابع

معيار معقولية العقائد الكلية للدين وفطريتها والتماسك المنطقي بينها

من المعايير الهامة التأسيسية عند مقارنة الأديان معيار التماسك المنطقي، ولذلك فإنّ الغرض من هذا الفصل هو عقد مقارنة بين القرآن والعهد القديم والعهد الجديد من حيث مدى معقولية أصولهم العقدية واتّساقها وعدم تعارضها مع صريح العقل والفطرة.

إن الأصول الاعتقادية للدين الحق والمبثوثة في كتابه المقدس لا بد أن تكون معقولة بحيث لا تتعارض أبدًا مكونات الفطرة مثل البدهيات العقلية والعلوم الضرورية، كما أنه لا بد وأن تكون المنظومة العقدية كلها مُتسقة ومتماسكة بحيث يُمكن تصوّرها وتعقّلها مع بعضها البعض.

إنّ الوحي والدين الحق الذي أنزله الله لا يمكن أن يكون فيه ما يحكم العقل باستحالته ورفضه مثل اجتماع النقيضين(١)، ولكن يمكن أن يكون فيه ما يتحير فيه العقل ويستغربه مع كونه ممكن الحدوث وليس مستحيل الحدوث مثل الغيبيات كوجود الملائكة والجن والجنة والنار وأفكار مثل الخلود والأزل والقدر وغيره.

إذا كان صريح العقل مصدره هو الإله الذي خلقه وأوجده فلا بد ألّا يتعارض معه صحيح الدين والوحي الذي أنزله ذلك الإله أيضًا على الناس لأنهما في الأصل من مشكاة واحدة، فيكاد نور العقل والفطرة يُضيء ولو لم يمسسه نور الوحي، فإذا مسّه صار نورًا على نور؛ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥].

(١) الذين يلزم من وجود أحدهما عدم وجود الآخر.

معيار المعقولية والاتساق المنطقي هذا يتجلّى في عدم وجود تعارض حقيقي بين هذه الأصول الاعتقادية بعضها البعض داخل نفس الدين، ويتجلّى أيضًا في عدم وجود تعارض حقيقي مع العلوم الأولية الضرورية أو ما يعرف ببدهيات العقول (وهو المشترك العقلي الذي أجمع عليه عقلاء البشر جميعًا)، كما يتجلّى في عدم وجود تعارض حقيقي مع الحقائق العلمية المُشاهدة.

إذن ننظر الآن في الأصول الاعتقادية لكل دين من الأديان الثلاثة لنرى أيُهم أكثر اتساقًا مع معيار المعقولية والمنطقية من خلال تجلياته المختلفة.

- **العهد القديم ومعيار المعقولية:**

- يُخبر العهد القديم عن صفات غير معقولة في حق الإله خالق الكون البديع:

وقد تقدم معنا ذكر أمثلة لتلك الصفات عند الحديث عن صفات الإله في العهد القديم ومنها أنّه إله عنصري قومي مُنحاز لشعب بني إسرائيل عن غيرهم من الأجناس والأعراق بغض النظر عن معيار التقوى واتباع الحق، وهذا وصف صريح للإله بالظلم والذي يتعارض تمامًا مع ما هو معلوم من اتصاف الإله بصفات الكمال ومنها العدل والحكمة.

هذا التعارض كما هو واضح تعارض في أصل من الأصول الاعتقادية في باب الإلهيّات.

- يُخبر العهد القديم عن صفات غير معقولة في حق أنبياء الله الذين من المفترض بدهيًّا وضروريًّا أن يكونوا صفوة الخلق الُمختارين بعناية من قِبَل الإله الحكيم الذي يضع الأمور في نِصابِها الصحيح، ومن ذلك وصفهم بالفواحش والرذائل والصفات الُمستقذَرَة (كالزنا والغدر والكذب والخداع حتى وصل الأمر إلى وصف نبي الله سليمان بالوقوع في الشرك) مع كونهم في النهاية هم صفوة الخلق! ومن المستحيل الجمع بين التصورين في حق الأنبياء!

هذا التعارض أيضًا يُعتبر تعارضًا في أصل من الأصول الاعتقادية في باب النّبوات.

- يُوجد تناقضات كثيرة في العهد القديم يستحيل معها الجمع والتأويل كما ذكرنا سالفًا مثل وجود اختلاف في أعداد أو أرقام مُحددة خاصة بنفس الواقعة الواحدة ولكن في روايتين مختلفتين، وهذه الأمثلة من الاختلافات الصريحة تمثل نقضًا لمعيار المعقولية لأنّه كما نعلم أن الجمع بين النقيضين هو من المستحيل العقلي الذي لا يمكن حدوثه؛ فالنقيضان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا.

وقد ذكرنا أمثلة على تلك التناقضات والاختلافات قبل ذلك في الفصل الخاص بتحريف العهد القديم فيُرجى الرجوع إليها، ونزيد على ما ذكرناه سابقًا هذا المثال:

الاختلاف بين رواية سفر نحميا ورواية سفر عزرا عند حديثهما عن أعداد العائدين من السبي البابلي:

سفر نحميا (٧/ ١٨): {بنو أدونيقام ستُّ مئةٍ وسبعةٌ وستون}.

سفر عزرا (٢/ ١٣): {بنو أدونيقام ستُّ مئةٍ وستةٌ وستون}.

سفر نحميا (٧/ ١٩): {بنو بِغْوَاي ألفانِ وستةٌ وخمسون}.

سفر عزرا (٢/ ١٤): {بنو بِغْوَاي ألفانِ وسبعةٌ وستون}.

ولا يحقّ لأحدٍ هنا من اليهود والنصارى أن يحتجّ بأنّ هذه الفروق إنّما هي فروق بسيطة لا تؤثر في المعنى كما يدّعون لأنّ مثل هذا الكلام يُقال في الصناعات البشرية لا في الوحي الإلهي المعصوم!

فإذا أرادوا أنّ هذا الكتاب هو جهدٌ بشريٌ خالصٌ حاول الوصول إلى الوقائع التاريخية الحقيقية بعد ضياع الوحي الأصلي، فهنا نُقدِّر لهؤلاء المُجتهدين جُهدهم ونوافقهم على هذا القول بأنّ هذه الفروق أحيانًا تكون بسيطة بالفعل إذا حاكمناها بموازين ضبط الروايات التاريخية، ولكن لا يحق لهم حينئذٍ الكذب والتقوّل على الله والادّعاء بأن ذلك العمل هو وحيٌ إلهيٌ معصوم وكتابٌ مُقدّس كُتب بتأييدٍ من روح القُدس.

- من الأمور اللامعقولة في العهد القديم التناقض في تفاصيل قصة الخلق بين روايتي الإصحاح الأول والإصحاح الثاني في سفر التكوين، ومن هذه التناقضات بين الروايتين اختلاف الترتيب الزمني لنشأة المخلوقات.

فقد جاء ذلك الترتيب الزمني وفق الرواية الأولى (في الإصحاح الأول من سفر التكوين) على النحو التالي: السماوات والأرض- النهار والليل والضوء- النباتات- الشمس

والقمر والنجوم- المخلوقات البحرية والطيور- الحيوانات البرية ثم الرجل والمرأة معًا.

ثم جاء الترتيب وفق الرواية الثانية (في الإصحاح الثاني من سفر التكوين) على النحو التالي: الرجل (آدم) - النباتات- الطيور والحيوانات البرية والبهائم- المرأة.

بخلاف ذلك التناقض في الترتيب الزمني للخلق فإنّ هناك أيضًا بعض التفاصيل الأخرى في قصة الخلق في سفر التكوين تُناقض صريح العلم مثل وجود النّهار والليل قبل خلق الشمس والقمر!

فقد جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين أن الله خلق النّهار والليل في اليوم الأول: {ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلًا، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومًا واحدًا}[1]، في حين أنّه جاء في نفس الإصحاح أن الله خلق الشمس والقمر في اليوم الرابع: {فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النّهار والنور الأصغر لحكم الليل والنّجوم... ورأى الله ذلك أنّه حسنٌ، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومًا رابعًا}[2].

فكيف إذن يمكن تصور وجود النهار والليل قبل وجود الشمس ونحن نعلم جميعًا الآن أنّ العلم الحديث المبني على المشاهدات الحسّيّة يقطع بأن النهار والليل هو نتيجة لحركة الأرض حول محورها أمام الشمس؟!

- يُوجد في العهد القديم بعض القصص تُناقض حقائق علميّة مستقرّة، ومن أمثلة تلك القصص ما جاء في سفر التكوين (٣٠/ ٢٨-٤٣) من أنَّ يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يرعى غنمًا لحماه (والد زوجته)، وكان ذلك الغنم نوعين أحدهما (سادة) بلا أيّ خطوط وهو كثير والآخر (مُخطَّط) وهو قليل، فاتفق يعقوب مع حماه على أن يأخذ هو الغنم المخطط

(١) العهد القديم، سفر التكوين (١/ ٥).

(٢) العهد القديم، سفر التكوين (١/ ١٦-١٩).

القليل ويترك لحماه الغنم السادة الكثير، ولكن يعقوب أراد أن يحتال عليه ويُزيد من عدد الغنم المخطط على حساب الغنم السادة في وقتٍ قصير، فماذا فعل يعقوب؟!

رأى أنّ الغنم السادة يحوى الكثير من الغنم الحامل، فقام بوضع مجموعة من القضبان التي بها خطوط بيضاء أمام مساقي الماء الذي تشرب منه الغنم السادة لِتَتَوحّم عند مجيئها للشرب، وبالفعل ولدت الغنم السادة جميعًا غنمًا مُخطّطًا هكذا في قفزةٍ عجيبةٍ على كل الحقائق المُستقرة في علم البيولوجيا والوراثة، مع العلم أنه ليس هناك أي ذكر في العهد القديم على أن تلك الواقعة مُعجزة مثلًا من المعجزات التي يؤيد الله بها نبيه، كما أن قارئ سياق القصة في العهد القديم لا يلمس ذلك إطلاقًا فالواقعة لم تحدث أمام الناس بقصد التحدي والإعجاز ولكنها حدثت مع يعقوب نفسه ثمّ قام بنقلها الكتاب المقدس، كما أن الإله بالتأكيد لن يُؤيّد نبيّه بمعجزةٍ قائمةٍ على الخداع والمكر.

في الواقع هذه القصة وغيرها الكثير تُسبّب إحراجًا شديدًا للمسيحيين واليهود في العالم كله وخاصة في الغرب حيث أنّها مثار سخرية واستهزاء العلماء الطبيعيين في مجالات العلوم المختلفة.

والحقيقة أنّ الحديث عن تناقضات العهد القديم سواء من خلال تناقض واختلاف النّصوص مع بعضها البعض أو تناقضها مع صريح العقل ويقين العلم المُشاهد لا ينتهي؛ وبناءً على ذلك فإنّ العهد القديم يفتقد لشرط ومعيار المعقولية والتماسك المنطقي ابتداءً من أُصوله الاعتقادية حتى سردياته وقصصه الكتابية، وبالتالي فهو قطعًا ليس من مشكاة النور والوحي الإلهي المعصوم.

إذن معيار المعقولية والتماسك المنطقي وافتقار العهد القديم لهما يدلّ دلالة واضحة على أنّ كلًا من اليهودية والمسيحية ليستا هي دين الله الحق الذي أنزله على الناس أجمعين إلى قيام الساعة.

- **العهد الجديد ومعيار المعقولية:**

عند القيام بدراسة بحثية أو نقديّة للعهد الجديد فإنّنا ستتطرّق ولا بد للحديث عن الأصول الاعتقادية التي أجمع عليها المسيحيون المؤمنون بالعهد الجديد بمختلف طوائفهم الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية -من خلال فهمهم وتفسيرهم لكتابهم المقدس أو أسفار العهد الجديد- حتّى ولو لم يكن هناك في المقابل تأسيس كتابي مُحكَم لتلك الأصول يتناسب مع مركزيّتها وأهميّتها في الإيمان المسيحي؛ وإذا ما وجدنا تناقضًا بين هذه الأصول وبين صريح العقل فهذا يعني بالضرورة افتقاد العهد الجديد لشرط المعقولية وبالتالي نقض وهدم الديانة المسيحية من أساسها.

- بمنتهى الوضوح فإنّ الأصول الاعتقادية للديانة المسيحية تُمثل أشد صور اللامعقولية والمخالفة الواضحة لصريح العقل والفطرة السليمة والتي تبلغ مداها في عقيدة التثليث والتي هي أصل من أصول الديانة المسيحية!

يعتقد النصارى في عقيدة التثليث أنّ الآب إله كامل مُنفصل، والابن إله كامل مُنفصل، وروح القدس إله كامل مُنفصل، كما أنّ الآب ليس هو الابن وليس هو الروح القدس، ثم يؤمنون بعد ذلك أنّ تلك الآلهة الثلاثة هم إله واحد!

المُحيّر في ذلك الأمر أنّ منهم من يُؤكّد ويقول: إن الذي يعتقد في تلك الأقانيم الثلاثة المستقلة والمنفصلة أنّها ثلاثة وليست واحدًا فقد وقع في الشرك وتعدّد الآلهة والعياذ بالله!

هذا الاعتقاد ببساطة هو مثال مباشر لتلك المعادلة الرياضية المستحيلة: ١+١+١=١!

علماء المسيحية أنفسهم يعجزون عن تفسير تلك العقيدة الوثنية ولذلك يعتبرونها سرًّا من الأسرار الإلهية التي يجب التسليم بها.

هذا الأصل المركزي في العقيدة والإيمان المسيحي يُخالف كل البدهيات العقلية والمعارف الفطرية الأوليّة التي اتّفق عليها عقلاء البشر جميعًا، ولا يمكن بحال تصوّر أن هذا الأصل مصدره الإله الحق، فالحق لا يصدر عنه إلا حقًّا.

- من الأصول الاعتقادية التي يستحيل تصوّرها في الإيمان المسيحي عقيدة تجسُّد الإله وظهوره في جسد المسيح والتي مقتضاها اتصاف الإله بكل صفات النقص البشري من أكل وشرب وقضاء حاجة ونوم وعجز ومرض وألم وموت وغيرها من الصفات التي لا تليق بالذات الإلهية المُنزّهة عن كل نقص وعيب.
- من تلك الأصول الاعتقادية التي تناقض معيار المعقولية لاستحالة تصوّرها وتعلُّقها بالإله عقيدة الخطيئة والفداء لِما فيها من وصف الإله بصفات تناقض صفاته الضروريّة البدهيّة مثل وصفه بالعجز والظُلم المنافيان للقدرة والعدل.

ومن الممكن القول بأن عقيدة الخطيئة والفداء هي الأساس الذي بُني عليه الإيمان المسيحي بأكمله على الرغم من أنّ الذي أسّس لها بشكل واضح هو بولُس الرسول وليس المسيح كما ذكرنا من قبل، والعقيدة باختصار تتحدّث عن أنّ الإله قد أشرك الناس جميعًا في إثم وشرّ الخطيئة التي ارتكبها آدم (حين أكل من الشجرة المحرمة) أي أنّها صارت خطيئة موروثة لكل ذرية آدم من بعده، فأصبح الأصل فيهم الخطيئة والشر والحرمان من ملكوت الرب بلا أي ذنب منهم!

هذا بالنسبة للنصف الأول من العقيدة وهو الخطيئة، ثم يأتي بعدها النصف الآخر وهو الفداء والذي يعني أنّ الإله عجز عن أن يغفر لآدم وبنيه تلك الخطيئة، ولم يجد حلًّا لتلك المشكلة إلا أن ينزل بنفسه إلى الأرض ويتجسّد في شخص المسيح ويموت موتًا على الصليب فداءً للبشرية!

هكذا نجد أن تلك العقيدة تصف الإله بالظلم حيث إنّه يُحاسب من لم يقترفوا الذنب،

كما تصفه بالعجز عن غفران هذه الخطيئة للبشرية وعن إيجاد حلًّا لهذه المشكلة يليق بألوهيّته إلا أن يتجسد بنفسه في شخص المسيح ويعيش بين الناس على تلك البقعة الزرقاء الباهتة في هذا الكون الشاسع والمسماة بالأرض ليُعذَّب ويُضطَّهد ويُبصَق في وجهه من أحط الناس وأحقرهم في تاريخ البشرية وهم اليهود المكذبين للرسل، بل وتُدق في يديه مسامير الصلب حتى يموت وفق اعتقادهم المزعوم!

- جميع صور التناقض والاختلاف في نصوص العهد الجديد والتي ذكرناها قبل ذلك عند الحديث عن تحريف الكتاب المُقدّس هي أيضًا مظاهر للامعقولية الكتاب المقدس ولامعقولية الديانة المسيحية وذلك لأن مؤداها اجتماع النقيضين، ومن أمثلتها الاختلاف في نسب المسيح بين إنجيل متى ولوقا، والاختلاف في بعض تفاصيل رواية صلب المسيح مثل موعد الصلب وموقف اللصين المرافقين للمسيح وشخصية من حمل الصليب بين المسيح وسمعان والاختلاف في الطريقة التي مات بها يهوذا الإسخريوطي الذي يدعي النصارى أنه هو الذي خان المسيح حيث يخبرنا إنجيل متى أنه قد خنق نفسه وانتحر، ويخبرنا سفر أعمال الرسل أنّه سقط على وجهه وانشق بطنه وانسكبت أحشاؤه وغير ذلك من أمثلة النقد النصي للعهد الجديد.

وهكذا كما هو واضح فإنّ الأمثلة على تناقضات العهد الجديد كثيرة وأنا هنا فقط أذكر بعض الأمثلة لإيضاح الفكرة المُرادة فكما قلت قبل ذلك إنّ الحديث عن وحي إلهي معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإنّه يكفي لنقضه المثال الواحد الدّال على التعارض مع صريح العقل أو التناقض النصي الداخلي الذي يستحيل معه الجمع أو التأويل لإثبات عدم عصمة الكلام وبالتالي استحالة نسبته للإله.

- تتجلى مظاهر عدم المعقولية واللامنطقية في المسيحية والعهد الجديد في بعض الطقوس التي يؤمن بها النصارى مثل طقس التناول أو الإفخارستيا وتحديدًا وِفق إيمان الأرثوذكس والكاثوليك، وهو من الأسرار السبعة للكنيسة والتي تُعرف بالإكليروس،

وفي هذا الطقس يقوم النصارى بإحياء ذكرى مائدة العشاء الأخير التي أكل فيها المسيح مع تلاميذه الخبز وشرب الخمر وذلك اتباعًا لوصية المسيح للتلاميذ كما جاءت في إنجيل لوقا (١٩/ ٢٢): (هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكري).

كل هذا ليس فيه إشكال؛ الإشكال في أنهم يقولون إن الخبز الذي يأكلونه في هذا الطقس الكنسي (سر الإفخارستيا) يجب أن يعتقد المسيحي أنه يتحول حقيقةً لا مجازًا إلى جسد المسيح، وأن الخمر الذي يشربونه يتحول حقيقةً لا مجازًا إلى دم المسيح!

ومن يُنكر ذلك ويقول بأن هذا التحول هو فقط تحول رمزي مجازي مثلما يعتقد البروتستانت فهو كافر خارج عن ملكوت الرب!

ومن الواضح بالطبع عدم معقولية ذلك الطقس لاستحالة تحول الخبز إلى جسد المسيح واستحالة تحول الخمر إلى دم المسيح.

في ختام الحديث عن عدم معقولية المسيحية وعدم معقولة الكتاب المقدس فإن هناك مسألة هامة جديرة بالتدبر وهي التعارض الصريح والمباشر بين العهدين القديم والجديد في كل شيء تقريبًا ابتداءً من صفات الإله فنحن نتكلم عن إلهين مختلفين تمامًا في كل شيء، مرورًا بروح الكتاب وفلسفته بين الإغراق في المادية في العهد القديم والإغراق في المثالية السلبية والروحانية الدروَشيَّة في العهد الجديد!

ولا أدري والله كيف يتحمل عقل المسيحي كل هذه التناقضات ثم تطلب منه الكنيسة أن يعتقد أن أسفار الكتاب المقدس كله بعهديه مصدرهم إله واحد؟!

إذن العهد الجديد يفتقد لشرط المعقولية والتماسك المنطقي ابتداءً من أُصوله الاعتقادية حتى تفاصيله ورواياته الكتابية، وبالتالي فهو قطعًا ليس خارجًا من مشكاة النور والوحي الإلهي المعصوم، وهذا يثبت أن المسيحية ليست هي دين الله الحق الذي أرسله إلى الناس أجمعين حتى قيام الساعة.

- **القرآن ومعيار المعقولية:**

في الواقع لا تجد في القرآن أبدًا ما يُناقض بعضه بعضًا تناقضًا يستحيل معه الجمع أو التأويل أبدًا، كما أنه ليس فيه ما يُعارض صريح العقل أو البدهيات العقلية والمعارف الفطرية الضرورية المشتركة عند جميع عقلاء البشر؛ فلا يمكن أن تتعارض آية قطعية الدلالة مع بدهية عقلية أو حقيقة علمية مُشاهدة، ولكن تبقى مساحة الجدل التي يتكلم عنها البعض بين بعض آيات القرآن وبين العقل أو العلم التجريبي التي دائمًا ما تكون في الظنيات وليس القطعيات، وبالتالي يكون المجال فيها واسعًا للاجتهاد، وهذا ما يجعل القرآن مرنًا (مع ثباته في أصوله الاعتقادية) مرونةً منضبطة بضوابط التأويل وأصول التفسير مما يجعله صالحًا ومُصلحًا لكل زمان ومكان.

القرآن نفسه يضع لنا معيارًا لمعرفة الدين الحق من خلال معقوليته وعدم وجود تناقضات داخلية بين نصوصه، ومن خلال عدم وجود تناقضات بينه وبين صريح العقل والعلم التجريبي، وذلك من خلال الآية: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢].

وكأن القرآن هنا يدعو غير المؤمنين به أن يقرؤوه ويتدبروه ليُدركوا أنه كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيُسلّموا أنه من عند الله وأنه لم تعبث به أيدي البشر.

إذا تأملنا القرآن فسنجد أن الأصل الاعتقادي المركزي الذي يُدندن حوله القرآن كله هو التوحيد، وكل ما عداه من عقائد وأحكام وتشريعات ومعاملات وأخلاق هي تجليات لهذا الأصل الاعتقادي المركزي.

نجد في القرآن اتساقًا منطقيًّا، وربط الأصول العقدية بالفروع التعبدية والمعاملاتية والأخلاقية في صورة متماسكة متسقة مُريحة لكل من يعتقدها ويعيش بمقتضاها.

نجد أيضًا أن فكرة القرآن المركزية التي تجمع آياته في وحدة موضوعية واحدة (وهي التوحيد) هي ذاتها فكرة الطبيعة المركزية التي تجمع بنية مادتها الحيوية العضوية والغير عضوية وعناصرها وقوانينها في وحدة موضوعية واحدة أيضًا (وهي التوحيد الذي ترى آثاره في تشابه الوحدات البنائية للطبيعة).

لذا فالقرآن كله وخاصة أصوله الاعتقادية يسير في سياق واحد مع العقل والعلم، وتربطهم وحدة موضوعية واحدة وهي التوحيد.

إضافة إلى ذلك نجد أن القرآن أزال اللامعقوليات الموجودة في الكتب السابقة المُحرفة ومن أمثلة ذلك:

- عدم ذكر القرآن لتلك الصفات اللامعقولة في حق إله العهد القديم بل وردَّ عليها وصححها مثل:
  - رد القرآن على وصف العهد القديم للإله بالتعب بعدما خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراحته في اليوم السابع فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].
  - رد القرآن على وصف العهد القديم للإله بالقومية والعنصرية، فنجد أن القرآن قد وصفه برب العالمين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وبأنه كرم الإنسان من حيث كونه إنسانًا فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والإيمان والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].
  - رد القرآن على وصف العهد القديم للإله بالظلم فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

- إنكار القرآن أيضًا ذكر الصفات اللامعقولة في حق الأنبياء مثل اتهام العهد القديم لنبي الله سليمان بالكفر والشرك في شيخوخته فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة:١٠٢]، ومثل اتهامه لهارون بصنع العجل وأمر بني إسرائيل بعبادته فبرأ هارون من تلك التهمة وقال إن الذي فعل ذلك هو السامري: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥]، ومثل اتهام أنبياء الله نوح ولوط وداود ويعقوب بالفواحش، فردَّ القرآن ذلك بوصفه لهم بالاصطفاء والعصمة وجميل الأوصاف في آيات كثيرة كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٠].
- تأكيد القرآن على بطلان اللامعقوليات الموجودة في المسيحية عن صفات الإله مثل عقيدة التثليث فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة:٧٣]، وعقيدة توارث الخطيئة فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨].

وأبطل القرآن أيضًا الادعاء بألوهية المسيح وتجسد الإله فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧]، وقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥].

كما أبطل أيضًا الادعاء بأن المسيح ابن الله فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدٗا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٨٨-٩٥]، وأنكر أيضًا فكرة ولادة الإله على العموم بكافة أشكالها وأنواعها ولم يفرق بين الولادة الحقيقة والولادة المجازية التي يفسر بها بعض النصارى العلاقة بين المسيح والآب عندما يستحيون من فكرة الولادة الحقيقية بسبب لوازمها الفاسدة وصورتها

الذهنية السيئة فقال القرآن بشكل حاسم وقاطع: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤].

وبهذا نجد أن القرآن قد انتصر بمنتهى الوضوح الذي لا يحتمل الشك لعقيدة التوحيد الصافي، وأزال عنها كل ما لحق بها من شرك وكدر.

وقد قام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (درء تعارض النقل والعقل) بوضع منهجية رائعة للتعامل مع ثنائية العقل والنقل، وقال إنه لا يمكن أن يتعارض نقلٌ صحيحٌ (قطعي الدلالة) مع عقل صريح قطعي، وإذا حدث إيهام عند أي أحد بالتعارض فسببه إما أن النقل ظنيٌ في دلالته أو أن العقل ظنيٌ غير صريح، وحينها نرد الظني منهما للقطعي فنفهم السياق بشكل متسق[1].

---

(١) نستطيع فهم هذه المنهجية بشكل أكثر وضوحًا وبساطة من خلال هذين المثالين:

المثال الأول: البعض يظن أن الآية القرآنية: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠] أو الآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ [ق:٧] تتعارض مع الحقيقة العلمية القائلة بكروية الأرض.

ولكن هذا تعارض في الظاهر وليس بتعارض حقيقي يستحيل معه الجمع.

فإننا بالفعل نجزم بكروية الأرض، فهي حقيقة علمية مُشاهدة، ولكن في الوقت ذاته الآية القرآنية ظنية الدلالة تحتمل أكثر من معنى، فتحتمل أن يكون معناها أن الأرض ممدودة بمعنى مُسطحة، وتحتمل أيضًا أن يكون معناها أنها مُسطحة فيما يبدو للناس المقيمين عليها وهي كذلك بالفعل وهذا الوصف جائز في اللغة.

و بتطبيق المنهجية التي ذكرناها فإن النقل هنا (الآية) ظني الدلالة في حين أن العقل (كروية الأرض) قطعيٌ.

وبذلك نفهم الظني في سياق القطعي، أو نفهم الآية على أساس الحقيقة العلمية.

إذن يكون المقصود من الآية أن الأرض مسطحة فيما يظهر لنا، وجعلها الله كذلك حتى تكون ممهدة ونستطيع العيش عليها ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النبأ:٦].

هذا بالإضافة إلى أن تعبير ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾ [الحجر:١٩] يدل في الحقيقة أصلًا على الكروية لأن الشكل الهندسي الوحيد الذي يُوصف سطحه بأنه ممدود من أوله لآخره هو الكرة، وبالتالي فليس هذا بتعارض حقيقي.

ولذلك نجد أن ابن تيمية قد نقل الإجماع على كروية الأرض، كما جاء في مجموع الفتاوي (٢٥/ ١٩٥).

المثال الثاني: يُخبرنا القرآن العظيم بآياتٍ قطعية الدلالة على أن آدم قد خُلق خلقًا مباشرًا وهذا يقطع بعدم كونه مُتطورًا من كائنات قبله، وفي الناحية الأخرى هناك نظرية علمية ظنيّة تحاول تفسير التشابه بين الكائنات الحية المختلفة =

قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٣٦].

خلاصة الفصل أنه بتطبيق معيار المعقولية والتماسك المنطقي نجد بكل وضوح أن القرآن الأكثر معقولية من غيره من الكتب الأخرى، بل إن الأمر أوضح من ذلك، فالقرآن ليس فيه ما يُعارض صريح العقل سواء في أصوله الاعتقادية أو فرعياته، في حين أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يحوي تناقضًا واختلافًا كبيرًا، ومظاهر ذلك الاختلاف الكبير تتجلى في رواياته الداخلية، وفي تناقضه مع صريح العقل وبدهياته مثل اجتماع النقيضين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وبالتالي معيار المعقولية يؤكد أن القرآن هو كتاب الله الذي أنزله على الناس إلى يوم القيامة، وأن الإسلام هو دين الله الحق.

وبمناسبة الحديث عن معقولية الأصول الاعتقادية وإمكانية التأسيس لها تأسيسًا عقليًّا نجد أن كل الأديان تقريبًا عدا الإسلام تحاول سد هذه الثغرة القاتلة بدوام مناشدة واستدعاء العاطفة بدلًا من التفكير العقلي في خطابها الدعوي أو التسويقي أو التبشيري.

هذا نجده يظهر جليًّا من خلال تركيزهم على طقوس معينة مُرتبطة بأحداث ووقائع تاريخية والتي تكون مشحونة بالعاطفة حيث يمكن استغلالها لاستدعاءات عاطفية وانفعالات وجدانية ينسى الإنسان فيها عقله تمامًا.

= (والذي يتضح في التشابه بين الجينات والشفرات الوراثية) والتي تعرف بنظرية التطور، ومن لوازمها أن آدم لم يُخلق خلقًا مُباشرًا، ولكنه تطور من كائنات أدنى.

وبتطبيق منهجية القطعي والظني، فإن القطعي هنا هو الخلق المباشر لآدم (النقل)، والظني هنا هو نظرية التطور، وبالتالي نقدم القطعي على الظني، فلا نترك آيات الخلق المُباشر القطعية الدلالة إلى نظرية علمية ظنية.

يظهر ذلك بوضوح في طقوس النصارى المُرتبطة بواقعة تاريخية مثل صلب المسيح، فدائمًا ما يحاول النصارى تذكر آلام المسيح ومعاناته والتي انتهت بأن يموت على خشبة الصليب فاديًا ومخلصًا ومُضحيًا من أجل البشرية حاملًا عنهم خطاياهم!

فلا تحدثني إذن عن الثالوث المقدس وعدم معقوليته.

ولا تُحدثني عن الخطيئة الموروثة وتجسد الإله.

فقط تَذَكَّر آلام المسيح الذي ضحى بنفسه فداءً لك.

هذا هو أسلوبهم دائمًا وبضاعتهم في التنصير.

اليهود أيضًا نجدهم يستغلون المواقف والأحداث التاريخية ولكن للترويج لقضاياهم أكثر من عقائدهم لأن اليهودية كما علمنا ديانة قومية ليس فيها دعوة ولكنها مقتصرة على من ولد من أم يهودية، فنجد اليهود يستغلون واقعة الهولوكوست مثلًا في الاستدعاء العاطفي وخلق حالة من تعاطف واهتمام المجتمع الدولي تجاههم وتجاه قضاياهم من خلال الحديث الدائم عن الواقعة واستغلال الأجهزة الإعلامية بكافة أنواعها حتى وصل الأمر أن صارت تلك الواقعة مبررًا لإقامة اليهود دولتهم المزعومة في فلسطين.

فلا تحدثني إذًا عن احتلال اليهود لفلسطين.

ولننسى أيضًا كل جرائمهم في حق الشعب الفلسطيني والشعوب العربية بمجرد مشاهدة تلك الأفلام التي تجسد معاناة اليهود على يد النازيين.

يظهر ذلك الاستدعاء العاطفي بوضوح أيضًا عند بعض الفرق البدعية في الإسلام مثل الشيعة في طُقوسهم المُرتبطة بواقعة تاريخية أيضًا وهي مقتل الحسين في يوم عاشوراء.

فهذه أيضًا واقعة تاريخية يتم استغلالها والترويج لها والدندنة عليها عاطفيًّا كل عام من خلال مشاهد حية، حيث يقومون بتعذيب أنفسهم حتى يظل هذا الموقف عالقًا باستمرار في أذهانهم.

فلا تُحدثني بعدها عن بعض عقائد الشيعة التي تُخالف العقل!

لا تُحدثني عن المهدي المُسردب منذ أكثر من ألف عام وغيرها من العقائد الأخرى.

فكيف لمثل هذا الذي يعيش في تلك الكربلائية المشحونة والانفعال الوجداني أن يفكر تفكيرًا منطقيًّا بمنهجية استدلالية برهانية؟!

لا أقول هذا الكلام تقليلًا من شأن العاطفة الإيمانية، ولكنني فقط أريد التأكيد على أهمية التأسيس الإيماني البرهاني على صحة المصادر الأصلية والأصول الاعتقادية للدين الذي تدين به ترافقه عاطفة إيمانية قوية تحاول تغذيتها وتعهدها قدر المُستطاع.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤].

الفصل الخامس

معيار ثمرات الدين

المقصود من هذا الفصل هو عقد مقارنة بين القرآن والعهد القديم والعهد الجديد من حيث أثر هذه الكتب في البشرية على مستوى الأفراد والمجتمعات.

لكي أقوم بعقد مقارنة موضوعية بين الكتب المقدسة للأديان الثلاثة من حيث ثمرات كل كتاب فإنه يجب مُقارنة النظرية بالنظرية أولًا ثم مقارنة التطبيق بالتطبيق، وألا يكون محل النظر هو الممارسة أو التطبيق فقط المستقل عن النظرية.

أعلم جيدًا أن لفظ (ثمرة) دلالته دائمًا متعلقة بالتطبيق والأثر الواقعي، ولذلك أريد أن أؤكد أنه إذا كان الأثر ليس ناتجًا عن أصل موجود في النظرية فإنه لا يكون وقتها ثمرة حقيقية من ثمرات البناء النظري أيًّا كان هذا الأثر إيجابيًّا أو سلبيًّا.

لذلك فإن الدين الحق هو الذي يجمع بين صحة البناء النظري ثم صلاحيته للتطبيق الواقعي.

إن معيار الثمرات هذا تحديدًا هو الذي ذكره العهد الجديد صراحةً لتحديد النبي الصادق من المدعي الكاذب حيث يقول يسوع في إنجيل متى الإصحاح (٧/ ١٦، ١٧): (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ١٦ من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبًا، أو من الحسك تينًا ١٧ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثمارًا رديّة).

هناك بعض الأسئلة التي نستطيع من خلالها تحديد الكتاب الحق من خلال معيار الأثر والثمرات، والإجابة عليها ستعيننا كثيرًا في إدراك أهمية ذلك المعيار وقدرته على الوصول بالباحث الجاد إلى الحقيقة التي يرجوها ويريد الوصول إليها.

وهذه الأسئلة هي:

- هل هناك أمثلة لتطبيقات ناجحة فردية أو جماعية أو أممية تبنت العمل بالنظرية؟!
- هل العلاقة بين نجاح التطبيق والتمسك بالنظرية علاقة طردية أم عكسية؟!

أي: هل يزداد نجاح التطبيق كلما اقتربنا من الأصل النظري أم العكس؟!

- هل الخطأ أو الفشل في التطبيق هو نتيجة لازمة لوجود خطأ في النظرية، أم أن هذا الخطأ في التطبيق ليس له علاقة بالنظرية؟!
- هل النظرية تحمل آليات وإجراءات لتصحيح المسار عند حدوث خطأ حتمي أثناء التطبيق لا بد من وقوعه، مع العلم أن هذا الخطأ الحادث ليس له أي مُستند في النظرية ولكنه حدث بسبب الطبيعة البشرية الناقصة التي تحاول تطبيق النظرية (حتى ولو كانت نظرية معصومة) ؟!

وسأحاول الإجابة على تلك الأسئلة من غير ترتيب في ثنايا الحديث عن كل كتاب من الكتب حتى أستطيع إيصال الفكرة بشكل أكثر وضوحًا وتكاملًا لأن الإجابة على هذه الأسئلة ستساعدنا كثيرًا في تحديد مكمن العلاقة الحقيقية بين الكتب المقدسة وتبني العمل بما فيها من عقائد وأفكار وتشريعات وبين ثمرات ذلك التطبيق وأثره في الواقع.

- **ثمرات العهد القديم:**

لقد أصبح من الواضح لدينا أنّ البناء النظري للعهد القديم بناء غير مُتماسك منطقيًّا لما فيه من الاعتقاد المُتناقض في الإله وفي أنبياء الإله وقدوة البشر والذي سيكون له بالتأكيد أسوأ الأثر في عقل ونفس وقلب من يؤمن بذلك حيث سيظهر ولا بد في صورة سلوك سلبي ناتج عن تصور مشوه، فالحكم فرع عن التصور وإذا فسد التصور فسد الحكم وبدوره فسد العمل.

هناك بعض العقائد والأحكام والقصص المحورية التي لها دور كبير في تشكيل عقلية من يؤمن بها ويعتبرها وحيًا معصومًا وتعاليم مقدسة للإله.

ومن هذه العقائد الهامّة المؤثرة في تشكيل عقلية من يؤمن بالعهد القديم من اليهود والمسيحيين:

- عقيدتهم في الأنبياء وصفاتهم وقصصهم والتي من ثمرتها المباشرة وأثرها الواقعي تكوين الشخصية اليهودية المادية المحبة للشهوات والمال والخداع والقتل والتي لا ترى في ذلك أي مشكلة تستحق اللوم والعتاب وتأنيب الضمير، فبالطبع هم ليسوا أفضل من الأنبياء!
- عقيدتهم المُشوهة في يوم القيامة، حيث إن اليهود أقرب إلى إنكاره منهم إلى إثباته.

فالعهد القديم على الرغم من كثرة ما فيه من تفاصيل دقيقة تافهة ليس لها أي قيمة إلا أنه تقريبًا لم يتكلم أبدًا عن يوم القيامة وبعث الأجساد للحساب، بل إن بعض النصوص ظاهرها إنكار البعث والقيامة كما في جاء في (سفر الجامعة إصحاح ٩ العدد من ٥-٧) حيث يقول الإله: (لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئًا وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نُسي، ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عمل تحت الشمس. اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك

بقلب طيب؛ لأن الله منذ زمان قد رضي عملك، لتكن ثيابك في كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن.

التذ عيشًا مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس، كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها).

والحقيقة أن ذلك النص ليس فقط يدل على عدم إيمان بالآخرة بل إنه تعدى ذلك وصرح بذكر أثر هذا الاعتقاد على سلوك الأفراد المؤمنين به!

وكأن إله العهد القديم لم يكتف بتهميش عقيدة البعث واليوم الآخر بل يُريد أن يُفصح بوضوح من خلال ذلك النص عن الأثر السلوكي (السيئ) لكل من لا يؤمن بهذه العقيدة لا من أجل التحذير وإنما من أجل الأمر والتوجيه الإلهي لانتهاز تلك الفرصة حيث إنه طالما ليس هناك حياة بعد الموت فليفعل الإنسان ما يشاء وليستمتع بالنساء ويأكل ويشرب كما يريد ولا يفكر في أي معنى ولا غاية من تلك الحياة.

هل يعقل أن يكون ذلك التوجيه توجيهًا إلهيًّا من خلال وحي إلهي معصوم أنزله الله للبشر كي يفهموا معنى الحياة والغاية من الوجود؟!

ولذلك وجدنا في التاريخ أن هناك طائفة كبيرة من اليهود كانت تُنكر البعث صراحة من خلال فهمها للكتاب المقدس وهي طائفة اليهود الصدوقين.

وبالطبع لا يخفى على أي عاقل الأثر والثمرة المُنتظرة بعد الاعتقاد بأنه ليس هناك بعث وقيامة وحساب وثواب وعقاب، بل إن مجرد ضعف الاعتقاد بذلك يسبب كوارث فردية ومجتمعية.

وهل كل ما نراه من مظاهر فساد وإفساد وفسق وانحلال ديني وخُلقي وسلوكي في العالم كله إلا ثمرة من ثمرات طغيان النزعة المادية وضعف الإيمان باليوم الآخر (وكلاهما موجود في العهد القديم) ؟!

- عقيدتهم في فكرة الاختيار (أي أنهم شعب الله المختار) كان لها ثمرة وأثر في غاية الخطورة نكتوي بآثاره حتى يومنا هذا، حيث النظرة العنصرية الاستعلائية للشخصية اليهودية على كل الأجناس، واعتقاد أن لهم الحق الإلهي المُشرعن في ارتكاب ما يحلو لهم في أي أحد دون أي شعور بالألم.

هذا بالطبع يُفسر لنا تلك القسوة والدموية في تعامل الكيان الصهيوني مع الشعب الفلسطيني دون أي اكتراث بأحد!

ومن ثمرات هذا الاعتقاد أيضًا رفع الصهاينة شعار معاداة السامية(١) في وجه أي فقط لمجرد أن قام بانتقادهم أو باتخاذ موقفٍ موضوعيٍّ من وقائع تاريخية مثل الهولوكوست، ولذلك تم حبس الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي بتهمة معاداة السامية لمجرد تشكيكه في بعض تفاصيل الهولوكوست!

- من القصص التوراتية أيضًا التي كان لها أثر كبير في تكوين الشخصية والعقلية اليهودية قصة يعقوب وأخذه للبركة بالخداع والكذب من أبيه إسحاق -والتي سبق ذكرها-.

فالبركة هي الأساس الذي كان سببًا في استحقاق بني إسرائيل (بني يعقوب) لعقيدة الاختيار.

فماذا ننتظر إذن من قوم يعتقدون اعتقادًا إلهيًّا مُقدسًا أن الكذب والخداع ونقض العهود هو السبب والوسيلة التي جعلت الإله يعطيهم البركة ويجعلهم فوق الناس أجمعين؟!

---

(١) مع أن العرب -وهم بنو إسماعيل- أيضًا من الساميين!

أقول بمنتهى الوضوح والموضوعية إن الكيان الصهيوني الآن هو المُعبِّر الحقيقي عن العهد القديم والمُلتزم بتعاليمه وعقائده[1].

في النهاية يتضح لنا أن الأمثلة والنماذج التي طبقت هذا الكتاب النظري (العهد القديم) -قديمًا من خلال قصص بني إسرائيل مع أقوامهم كالكنعانيين وغيرهم وما قاموا به من ظلم وإبادة جماعية، وأيضًا حديثًا من خلال الكيان الصهيوني وأفعاله التي تُعبر حقيقةً عن أفكار كتابهم المقدس- تؤكد أن هناك علاقة مباشرة وصريحة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها بين أخطاء التطبيق وظلم الممارسة وعنصريتها وبين مدى الالتزام والتمسك بالبناء النظري في العهد القديم، كما أن هذا البناء النظري ليس فيه أي إجراءات وقائية لمنع أو تصحيح مسار الخطأ بل إنه يُحرض عليه ويدعمه ويُشرعنه.

فهل يُجتنى من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا؟!

إذن معيار الثمرات وتطبيقه في العهد القديم يؤكد مدى ارتباط أخطاء الممارسة والتطبيق بعقائد وتعليمات العهد القديم ذاته مما يؤكد أن هذا الكتاب ليس هو الكتاب الحق الذي ارتضاه الله للعالمين.

إذن العهد القديم يفتقد لصحة البناء النظري كما يفتقد أيضًا لصلاحيته في التطبيق الواقعي.

(من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبًا، أو من الحسك تينًا؟!

هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا رديئة).

---

(١) ويا ليت قومي يعلمون أن اليهود لم ولن يحترموا عهدًا ولا ميثاقًا لأن نقض العهد عندهم دين وإيمان واقتداء برسل الإله وتعاليمه!

• ثمرات العهد الجديد

• إن البناء النظري للعهد الجديد أيضًا بناء غير مُتماسك منطقيًّا كما ذكرنا من قبل؛ حيث نجد الكلام عن إله متجسد متأنس يصيبه كل ما يُصيب الإنسان من صفات النقص كالولادة والاحتياج لأكل وشرب وخلاء وكالتعرض للأذى والألم ثم زيادة على ذلك الموت بالصلب.

إضافة إلى كل ذلك نجد أيضًا الكلام عن مستحيلات عقلية كعقيدة التثليث وتجسد الإله والخطيئة الموروثة ولوازمها من وصف الإله بالظلم والعجز.

كل هذه اللامعقوليات والتناقضات في الأصول الاعتقادية قطعًا تؤثر سلبًا في عقل وقلب من يؤمن بها فردًا كان أو جماعة.

• هناك بعض النصوص الواردة في العهد الجديد والتي تُؤسس حالة عامة من روح السلبية والتواكل والدروشة والتي هي أبعد ما تكون عن روح الدين الحق الذي ينشر الفضيلة ويقيم العدل ويحارب الشر والفساد.

مثل ذلك القول المنسوب للمسيح في إنجيل متى (٥/ ٣٨-٤٤): (سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر).

ومثله أيضًا قوله في إنجيل مرقس (١٢/ ١٧): (فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فتعجبوا منه).

هناك أيضًا نص مهم منسوب للمسيح يؤسس للعنصرية والتحيّز لبني إسرائيل بشكل صارخ، بل ويصف كل من سواهم بالكلاب!

فقد جاء في إنجيل متى (١٥/ ٢٤-٢٦) أنّ يسوع عندما جاءته المرأة الكنعانية لتسأله حاجةً فأجاب عليها قائلًا: (فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة،

فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني، فأجاب وقال: ليس حسنًا أن يُؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب).

ولك أن تتخيل كيف يمكن أن يُؤثر هذا النص في عقل من يؤمن به أنه كلمة الرب التي لا يجوز مخالفتها؟!

- من مشاكل العهد الجديد أيضًا تلك العقيدة التي أسس لها بُولس الرسول من خلال رسائله والتي مفادها أن الخلاص يتحقق فقط بالإيمان المعرفي النظري بيسوع المسيح مُخلِّصًا وفاديًا، وأن العمل لا يُؤثر إطلاقًا في الإيمان زيادةً ونقصانًا.

ولذلك أبطل بُولس العمل بناموس موسى، بل إنه يصف ناموس موسى باللعنة، وأن الإيمان النظري بيسوع المخلص افتدى البشر منها فيقول في غلاطية (٢/ ١٦): (الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما).

ويقول في غلاطية (٣/ ١٣): (المسيح افتدانا من لعنة الناموس).

ويقول في أفسس (٢/ ١٤، ١٥): (مبطلًا بجسده (المسيح) ناموس الوصايا).

ويقول في عبرانيين (٧/ ١٨، ١٩): (فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ الناموس لم يكمل شيئًا، ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله).

يقول بولس أيضًا عن ناموس موسى في عبرانيين (٧/ ٨): (فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب[1]، لما طُلب موضعٌ لثانٍ).

(١) في الحقيقة هذا القول بأن العهد القديم أو ناموس موسى كان به نقص وأخطاء ولم يكن مثاليًّا كثيرًا ما يردده المسيحيون خاصة في الغرب بدون خجل، ولا أدري كيف يؤمنون بأنه الجزء الأكبر من كتابهم المقدس ثم يكون ناقصًا ومعيبًا؟!

لك أن تتخيل كيف يكون أثر وثمرة الإيمان والاعتقاد الجازم بأن العمل لا يؤثر مُطلقًا في الخلاص؟!

فقط يكفي المعرفة النظرية بأن يسوع هو الفادي والمخلص بدون أن يكون لذلك الإيمان أي أثر إيجابي على سلوك الفرد أو الجماعة![1]

- أيضًا من مشاكل العهد الجديد المتعلقة بمعيار الثمرات أن هناك نصوصًا منسوبة لبولس الرسول تؤسس للكذب والخداع والميكافيلية لكل من يؤمن بها ويعمل بمقتضاها كما جاء في رسالة بولس إلى رومية إصحاح ٣ آية ٧: (فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لمجده فلماذا أدان أنا بعد كخاطئ).

هذا هو البناء النظري للعهد الجديد والذي قطعًا يؤثر سلبًا على من يعتنقه ويعمل به[2].

فالحديث ههنا عن أخطاء حقيقية في البناء النظري نفسه ستؤثر لا محالة على كل من يؤمن به أنه كلمة الرب، (وهل يُجتني من الشوك عنبًا) ؟!

إذن نجد أن العلاقة هنا علاقة طردية بين مدى التمسك بالنظرية (الكتاب) ومدى الانحراف الحادث في التطبيق.

فالنظرية هنا هي الجاني ولا يُمكن تبرئتها بحال.

كما أن الخطأ الواقع في التطبيق هو في الحقيقة نتيجة لازمة لخطأ في الأصل النظري.

---

(١) من باب الانصاف هذا التصور يؤمن به ويدافع عنه البروتستانت، ويُنكره على استحياء الأرثوذكس ويحاولون تأويل أقوال بولس التي تؤكد ذلك، وهكذا يظل المسيحيون في تناقض مستمر لا يتفقون على رأي.

(٢) بالطبع العهد الجديد يدعو إلى الكثير من مكارم الأخلاق كما ينهى عن الكثير من الأشياء السيئة، وبه إيجابيات أيضًا على المستوى السلوكي، ولكن هناك في الحقيقة مشاكل وطوام كبيرة لا يمكن التغاضي عنها على المستوى العقدي والتصوري وفي بعض النصوص النظرية والتي تؤدي إلى مشاكل حتمية كبيرة على المستوى السلوكي والمعاملاتي الفردي والجماعي.

لذلك نجد أن الفترة التي كانت تعاليم الكنيسة هي السائدة في الغرب هي فترة مليئة بالمشاكل على المستوى العلمي والحضاري والإنساني والاجتماعي، كما أنهم عندما ابتعدوا عن تعاليمها تقدموا تقدمًا ماديًّا وحضاريًّا فقط، ولكنهم ما زالوا مفتقدين لمعاني القيم والأخلاق خاصة من ناحية التأسيس النظري المعرفي.

إذن نستطيع أن نقول إن العهد الجديد يفتقد لصحة النظرية، ويفتقد أيضًا لصلاحية تطبيقها في الواقع.

وفي الحقيقة من الأمور التي تستوقفني كثيرًا ولا أكاد أجد لها تفسيرًا هي: (عقل المسيحي)!

كيف يمكن لهذا العقل أن يؤمن بالعهد القديم والعهد الجديد معًا في كتاب واحد اسمه الكتاب المُقدس؟!

لذلك نجد أن من ثمرة هذا الإيمان المتناقض ذلك التخبط الشديد في تاريخ المسيحية بين السلبية الاعتزالية المُتجلية في الرهبانية بكل صُورها، وبين المادية التسلطية المُتجلية في محاكم التفتيش والحروب الصليبية وإمبريالية الكنيسة في العصور الوسطى واضطهاد وحرق العلماء بتهمة الهرطقة أمثال برونو، بل وحرق من يحاول فقط ترجمة الكتاب المقدس أمثال جون ويكليف!

- **ثمرات القرآن:**

ذكرنا من قبل أن مما يُميز البناء النظري للقرآن أنه بناء متماسك للدرجة التي تستطيع معها أن تضع له وحدة موضوعية واحدة تربط أجزاءه بعضها ببعض ألا وهي التوحيد حيث إن كل ما فيه من عقائد وأحكام وتشريعات وقصص وأخلاق هي تجليات لعقيدة التوحيد المركزية.

ونجد القرآن يركز بشكل قوي على بعض العقائد والتصورات النظرية، ثم يربطها بتطبيقات واقعية فعلية والتي لها أثر إيجابي بالغ لكل من يؤمن بها مثل العلاقة المتكررة في القرآن الكريم بين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فنجد القرآن دائمًا ما يتكلم عن الجنة والنار وعاقبة الظالمين والمفسدين، وأيضًا عاقبة الصالحين والمُصلحين، ثم يتكلم بعدها عن التطبيق العملي للعلاقة بين الإيمان بالله واليوم الآخر ألا وهو العلاقة التطبيقية (المُتكررة أيضًا في القرآن) بين الإيمان بالله والعمل الصالح؛ ثنائية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والتي جعلت الإيمان بالله والعمل الصالح سببًا للخلاص.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

بل إن العلاقة في الإسلام بين الإيمان والعمل الصالح هي علاقة تراكبية[١] وليست علاقة انفصالية استقلالية.

يقول الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٢].

---

(١) العمل الصالح وفق التصوّر الإسلامي هو جزءٌ من الإيمان، فالإيمان قولٌ وعمل، ولا يمكن فصل العمل عن الإيمان، وبالتالي العلاقة بينهما فيها جزء من التداخل والتراكب فهي علاقة الجزء من الكل كما ذكرت.

(٢) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

هذه العقيدة (الإيمان باليوم الآخر ثم تجليها في العمل الصالح) قطعًا كان لها الأثر الكبير على سلوك الأفراد والمجتمعات التي تتبناها وتؤمن بها.

إن تاريخ المسلمين يشهد بأن النجاح الذي حققوه في التطبيق يتناسب طرديًّا مع مدى الاقتراب من الأصل النظري، فعندما ازداد تمسك المسلمين بالقرآن وتعاليمه كانوا في أوج قوتهم المادية والحضارية والعلمية بل والأهم من ذلك القيمية والأخلاقية، حتى إنهم سادوا الدنيا كلها بالقيم والعلم والمبادئ لا بالظلم والبغي، وخيرُ شاهد على ذلك فترة النبوة وما بعدها من الخلافة الراشدة حيث قمة التمسك بالبناء النظري مع قمة النجاح التطبيقي.

لكن عندما ضعُف تمسك المسلمين بالقرآن وتعاليمه على مستوى الفرد والأمة في جميع شؤونهم وصل الحال بهم إلى الحالة الغُثائية التي نراها الآن والتي لا تحتاج منا إلى مزيد وصف وبيان.

تقول أستاذة الأديان المقارنة في جامعة أوكسفورد كارين أرمسترونج في كتابها الذي يحمل اسم النبي محمد:

> "الصراع الدائر بين الدين والعلم في التاريخ المسيحي في العصور الوسطى لا نجد له مثيلًا في التاريخ الإسلامي، بل على النقيض لم ينشأ أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي، فنجد أنها خلفت تراثًا رائعًا في العلوم الطبيعية والرياضيات وغيرها لا ينكرها أحد".

من الأمور التاريخية الملاحظة أن روح الكتاب المقدس وتوجيهات الكنيسة كانتا سببًا في نشوء حالة من الخوف من الطبيعة مما أدى إلى التعامل معها برهبة بخلاف تلك الحالة التي أثمرها القرآن من التأكيد على أن الطبيعة مخلوقة لله كما الإنسان، وأنها تسير وفق نواميس الله وتحت فعل الله المتصف بالحكمة والرحمة والعدل.

ولذلك عندما قام الغرب في العصور الحديثة بهذا التقدم العلمي الهائل لم يقيموه إلا وفق رؤية علمانية مُنحيةً للدين سواء بالرفض والعداء أو بالفصل عن مناحي الحياة لأن روح الدين هناك في الغرب تسير في عكس اتجاه العلم والفكر والتأمل في الكون والإنسان والحياة، وهذا بالطبع خلاف ما هو موجود وحاصل عند المسلمين كما ذكرنا حيث إن التمسك بتعاليم القرآن كان سببًا في حركة النشاط العلمي والازدهار الحضاري التي تمتع بها المسلمون سنوات طويلة.

إذن فالحديث هنا في حالة القرآن عن علاقة طردية مباشرة بين نجاح التطبيق وبين التمسك بالنظرية (القرآن).

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن:١-٢].

ولكن قد يقول البعض: هناك فترات في التاريخ الإسلامي حدث بها فشل في التطبيق وحدثت صنوف من الظلم والبغي!

والواقع أن هذا حدث بالفعل، ولكن كما قلت في أول الفصل إن السؤال لا يجب أن يُطرح بهذا الشكل (إذا كنا بالفعل نبحث عن الحقيقة بموضوعية تامة وبدون تحيزات مُسبقة).

السؤال الصحيح هو: هل الخطأ الحادث في التطبيق مُؤسَسٌ له معرفيًّا ونظريًّا في الأصل النظري؟

هل هذا الخطأ في التطبيق هو من لوازم التمسك بالنظرية أم لا؟!

هذا هو ما أسعى في هذا البحث للإجابة عنه، فلا يعنيني هنا مجرد رصد الأخطاء التاريخية من هنا ومن هناك والتي قد تكون دوافعها أصلًا هي دوافع النقص البشري والنفس الأمارة بالسوء، ولكن كل ما أريد الوصول إليه هنا هو مدى العلاقة بين هذه الأخطاء وبين التمسك بالأصول المعرفية للنظرية.

ولذا فإن كل ما حدث من أخطاء في محاولات تطبيق الإسلام قديمًا وحديثًا ليس لها أي علاقة بالقرآن، حيث لا يدعو إليها ولا يحض عليها، بل على النقيض تمامًا دائمًا ما يُنكرها ويتبرأ منها ويدعو إلى تركها.

لذلك لا بد من التفرقة بين الوحي والتاريخ؛ فكما أن هناك تشريعات دينية مثل الجهاد والخلافة وغيرها فإن هناك أيضًا سياقًا تاريخيًّا وواقعًا كان موجودًا وقتها في تلك الفترة، وهذا الواقع المفروض في العالم كان لا بد للدولة الإسلامية من التعامل معه، ولذلك لا بد من التفرقة بين الوحي الإلهي المعصوم وبين التطبيق العملي في الواقع السياسي للمسلمين والذي يحتمل الصواب والخطأ.

ما يعنيني هنا في حديثي عن معيار الثمرات هو الشق المتعلق بالوحي والتعاليم الإلهية في القرآن والسنة وليس تلك الوقائع التاريخية في التاريخ الإسلامي بأسره والتي اختلط كما قلت فيها الوحي بالتاريخ.

إن البناء النظري في الإسلام مُمثلًا في القرآن كمصدر أساسي من مصادر تشريعه ليس فقط ما يدعو إلى تلك الأخطاء التي حدثت في التاريخ الإسلامي، بل إنه يحمل آليات للتعامل مع هذه الأخطاء التطبيقية (الغير مؤسَس لها) عند حدوثها حتى يتم تصحيح مسارها الخاطئ قبل أن يستفحل أمرها.

ومثال على ذلك نجد أن القرآن يفرض على كل مسلم النهي عن المنكر عند حدوثه، وهذا يعني أنه يلزم على كل مسلم رأى أمامه ظلمًا أو بغيًا أو منكرًا أن ينكره، ولا تسقط هذه الفريضة عن مجموع الأمة إلا بارتفاع المنكر وزواله، وهذا بالتأكيد وفق اعتبارات القدرة والعجز، والمصلحة والمفسدة.

هذا النهي عن المنكر أو ما يسميه البعض بالحِسبة هي في رأيي عملية إجرائية احترازية لمنع انتشار الخطأ بكل صوره في المجتمع.

أيضًا خطأ مثل نزوع البعض إلى فكر التكفير وإطلاق الأحكام على المسلمين بالتكفير والتفسيق بمجرد الشبهة والظن، وقد يحدث ذلك نتيجة لظلم اجتماعي شديد تعرضوا له مثلًا.

فنجد الإسلام يضع إجراءات للوقاية من هذه الظاهرة (التي لا يدعو إليها ابتداءً) مثل النهي عن التكفير بمجرد الظن، ووجوب استيفاء شروطه وانتفاء موانعه والتي لا تكون إلا من خلال المسار القضائي الشرعي لا من عوام الناس.

يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[1].

خلاصة ما سبق أن موطن الحديث هنا هو الممارسة أو التطبيق الذي تم تأسيسه والاستدلال عليه من خلال الأصل النظري الصحيح وليس التطبيق الغير مؤسس على ذلك الأصل النظري فضلًا على أن يكون أصلًا مرفوضًا أو محترَزًا منه مثل منهج التوسع في تكفير المسلمين الذي انتهجته داعش مثلًا وغيرها ممن أساء فهم الأحكام الشرعية كالتكفير واستحلال الدماء والجهاد وعلاقة المسلم بغير المسلم وغيرها ثم الحديث عن الاحترازات الشديدة في الشريعة الإسلامية من تكفير المسلمين والتأكيد على حرمة النفس من القرآن أولًا: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، والحديث عن تكريم الله للإنسان من حيث هو إنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، والحث الإلهي على التعارف الإنساني البعيد عن العنصرية والتعصب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، والحديث عن حسن معاملة الكفار المسالمين: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

إذن الإسلام يجمع بين صحة الأصل النظري وصلاحيته للتطبيق في الواقع، بل إن صلاحية التطبيق تزداد نجاحًا بزيادة التمسك بالنظرية.

وبذلك يكون معيار الثمرات دليلًا على صحة الإسلام وعلى أن القرآن هو الكتاب المعبر حقيقة عن الإله وهو الكتاب الذي أنزله الله وارتضاه للعالمين.

(من ثمارهم تعرفونهم).

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

- **استشكال فلسفي ورد صادم:**

قد يعترض البعض قائلًا: إنّه بالفعل لا يستطيع أحد إنكار تلك الآثار الكثيرة المتواترة التي تؤكّد صدق الرسول وأمانته وحُسن صفاته وأنّه لم يأت دليلٌ أو أثرٌ واحدٌ يُعارض ذلك، ولكن على الرغم من ذلك فإنّ هذا ليس كافيًا للوصول إلى اليقين العقلي المُجرد الذي لا يقبل معه أي شكٍ نظريٍ افتراضي!

ثمّ يستطرد هذا المُستشكل قائلًا: إنّ الصادق الذي يصدق دائمًا يُمكن ويُحتمل (في الإمكان العقلي المجرد) أن يكذب ولو لمرةٍ واحدة، كما أنه يُحتمل أيضًا في الإمكان العقلي المُجرد أن يَخِلَّ التواتر ولو لمرة واحدة!

فأقول ردًّا على ذلك الاستشكال إنه بالفعل مجرد استشكال عقلي افتراضي ليس له أي وجود في الواقع، فالعقل البشري لا يعمل بهذه الطريقة والكيفية في الحياة العملية، بل إنّنا لو فكرنا وفعّلنا ملكة الشك المُجردة هذه لن يستقيم لنا خبر ولن تستقيم لنا حياة!

فليشكّ إذًا صاحب ذلك الاستشكال (وهو الشخص الذي يُريد تفعيل ملكة الشك العقلية المجردة) في نسبته لأمّه العفيفة التي لم يُعهد عليها فاحشة طوال حياتها لمجرّد أنّه في العقل النظري المُجرد قد تكون أخطأت وتنازلت عن شرفها ولو لمرة واحدة!

بالطبع هذا لا يقوله عاقل لأنّ العقل البشري كما قلت لا يعمل بهذه الطريقة بل يعمل بقرائن الحال وكثرة الأخبار.

هذا الشخص لا يشكّ مطلقًا في نسبته لأمه، بل عنده اليقين الجازم على عفتها وشرفها لأنّ القرائن جميعها تؤكّد ذلك مع عدم وجود ما يُعارضها.

بل الأكثر من ذلك نجد هذا الشخص لا يقبل من أحدٍ كائنًا من كان أن يُشكّك في ذلك الأمر مطلقًا ليس لأسباب عاطفية ونفسيّة وأخلاقيّة فقط ولكن لأسباب ودوافع عقلية منطقية أيضًا.

نلاحظ أيضًا أنّ هذا اليقين الواقع في عقل وقلب ذلك السائل المُستشكل قد حدث مع خبرٍ يُمكن أن نعتبره من أخبار الآحاد (أي الذي لم يبلغ حد التواتر) لأنّ في الحقيقة تلك المسألة (الجماع الذي نتج عنه وجود صاحب الاستشكال) لم يشهدها ويعلم حقيقة أمرها إلّا تلك الأمّ فقط، فهي وحدها التي تملك اليقين الجازم المُجرّد على نسبةِ ابنها إليها، وعلى الرغم من كل ذلك فإنّ ما وصل إلى ذلك السائل من قرائن الحال كان كافيًا لوقوع اليقين المُطمئن للقلب والمُقنع للعقل.

فما ظنّك إذن والأخبار عن صدق الرسول وأمانته وحُسن صفاته ومعجزاته قد تواترت واتفق عليها الجمع الغفير من المعاصرين له -مسلمين ومشركين- مع عدم وجود أي دليل يُعارض ذلك ثمّ تناقل تلك الأخبار الجمع الغفير أيضًا جيلًا بعد جيل حتى وصلت إلينا محفوظةً ومسطورة؟!

فكيف يمكن لذلك السائل إذن بعد كل هذا أن ينكر تلك الأخبار الحقيقية المتواترة لمجرد إشكالٍ عقلي فلسفي مجرد أبعد ما يكون عن الواقع والحقيقة والتجربة والحياة؟!

قلت وأقول دائمًا: إنّ الأدلة على صدق الرسول كثيرةٌ متضافرةٌ في حين أنّ المُخالف ليس معه أي دليلٍ يُعارضها، وهذه في الحقيقة حجةٌ كافيةٌ لقبول الخبر وقيام المعرفة اليقينية عند جميع العقلاء؛ بالإضافة إلى ضرورة استصحاب أنّ الحكمة الإلهية تستلزم وضوح الحق وعدم ضياعه وعدم التلبيس على الناس، وبالتالي من ظهر منه أدلة واضحة على صدق نبوته اعتاد الناس على قبولها فهو نبيٌّ لله حقًّا صادقٌ في دعواه لأنّ الله في النّهاية هو الضامن لتلك الحقيقة كما أنّه سبحانه الضامن لكل الحقائق وكفى به كفيلًا.

الخاتمة

لقد قرأت القرآن كاملًا مرات عديدة، ودائمًا ما كنت أشعر بأن هذا الكتاب به شيء مختلف مميز يأخذ بعقل وقلب قارئه، ولكنني عندما قرأت الكتاب المقدس أدركت إدراكًا لا يقوم معه شك بأن هناك فرقًا واضحًا وبونًا شاسعًا بين كلام الله وكلام من سواه؛ لأنه بضدها تتميز الأشياء، كما شعرت أيضًا بمدى عمق الآية التأسيسية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

إن هذا الدين عظيم، وإن البشرية أحوج ما تكون إليه في هذه الأيام الحرجة لتخرج من حالة التيه والضياع واختلال موازين الفطرة والإنسانية.

إن حاجتنا لهذا الدين كحاجة الغريق الذي تغمره أمواج العبثية والعدمية في ليل مظلم من أطماع الدنيا وزينة الحياة الزائلة.

لطالما أحسست عند قرائتي لكتاب الله أو اطلاعي على شيء من سيرة ذلك الرسول العظيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنني لا أستطيع أن أُعبر عما بداخلي بكلمات هي أدق وأقرب من كلمات الرضا بهذا الدين.

(رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا ورسولًا).

فهرس المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) صحيح البخاري.

٣) صحيح مسلم.

٤) مسند أحمد.

٥) موطأ مالك.

٦) صحيح الترمذي.

٧) السنن الكبري – النسائي.

٨) صحيح أبي داود.

٩) صحيح ابن ماجه.

١٠) مستدرك الحاكم.

١١) مسند الروياني.

١٢) الأدب المفرد – محمد إسماعيل البخاري.

١٣) السلسلة الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني.

١٤) المشكاة – الخطيب التبريزي.

١٥) جامع بيان القرآن – ابن جرير الطبري.

١٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية الأندلسي.

١٧) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير.

١٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان– عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

١٩) شرح مشكل الآثار – أبو جعفر الطحاوي.

٢٠) السيرة النبوية – ابن هشام.

٢١) أسد الغابة – ابن الأثير.

٢٢) مختصر تاريخ دمشق – ابن منظور.

٢٣) الشعر والشعراء – ابن قتيبة.

٢٤) رسالة بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي، وهي منشورة ضمن كتاب واحد يحمل ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني.

٢٥) دلائل النبوة – البيهقي.

٢٦) تاريخ الإسلام – الذهبي.

٢٧) المثل السائر – ابن الأثير.

٢٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى – القاضي عياض.

٢٩) مقدمة ابن خلدون.

٣٠) الخصائص الكبرى – السيوطي.

٣١) النشر في القراءات العشر – ابن الجزري.

٣٢) المُحلى لابن حزم.

٣٣) النبوات – تقي الدين ابن تيمية.

٣٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح – تقي الدين ابن تيمية.

٣٥) درء تعارض العقل والنقل – تقي الدين ابن تيمية.

٣٦) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٣٧) شرح العقيدة الأصفهانية – تقي الدين ابن تيمية.

٣٨) مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية.

٣٩) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – ابن قيم الجوزية.

٤٠) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى – ابن قيم الجوزية.

٤١) سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة/ كتاب الرسل والرسالات – د. عمر سليمان الأشقر.

٤٢) الظاهرة القرآنية – مالك بن نبي.

٤٣) النبأ العظيم – محمد عبد الله دراز.

٤٤) لا أعلم هويتي – د. حسام الدين حامد.

٤٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي.

٤٦) وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي .

٤٧) المعجزة الكبرى القرآن – محمد أبو زهرة.

٤٨) الإسلام بين الشرق والغرب – علي عزت بيجوفيتش.

٤٩) أصول الدعوة – عبد الكريم زيدان.

٥٠) فقه السيرة – محمد الغزالي.

٥١) الرسول محمد – سعيد حوى.

٥٢) نبوة محمد من الشك إلى اليقين – فاضل صالح السامرائي.

٥٣) محمد (محاولة لفهم السيرة النبوية) – د. مصطفي محمود.

٥٤) فصل في إعجاز القرآن – محمود شاكر.

٥٥) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني – د. صلاح عبد الفتاح الخالدي.

٥٦) منتدى التوحيد – قسم المقالات.

٥٧) الكتاب المقدس – نسخة الأنبا تكلا هيمانوت St-Takla.Org، وهي ترجمة عربية لنسخة فان دايك Van Dyck Version فيما عدا الأسفار القانونية الثانية وتسمى الترجمة البيروتية لكونها نُشرت في بيروت عام ١٨٩٥.

٥٨) محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس امبراطورية المسلمين - جورج بوش.

٥٩) اللاهوت السياسي - كارل شميت.

٦٠) مختصر دراسة التاريخ - أرنولد توينبي.

٦١) قصة الحضارة - ويل ديورانت.

٦٢) محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى - عبد الأحد داود.

٦٣) استحالة تحريف الكتاب المقدس - مرقس عزيز خليل.

٦٤) التاريخ العام - إيمانويل كانط.

٦٥) رسالة في التسامح - جون لوك.

٦٦) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي.

٦٧) دائرة المعارف الكتابية.

٦٨) وصف تاريخي لتحريف نصين مهمين من الكتاب المقدس: التثليث والتجسد - إسحاق نيوتن.

٦٩) تاريخ الكتاب المقدس - ستيفن ميلر وروبرت هوبز.

٧٠) نسخة الترجمة اليسوعية.

٧١) المدخل إلى العهد الجديد - فهيم عزيز.

٧٢) مدخل إلى الكتاب المقدس (تحليل لأسفار العهدين القديم والجديد) - مجموعة من الباحثين.

٧٣) سيرة النبي محمد - كارين أرمسترونج.

٧٤) رواية الإخوة كرامازوف - فيودور دوستويفيسكي.

فهرس المحتويات

مقدمة ١٠

منهج الكتاب ٢٠

(انطلاقة تأسيسية) ضرورية الرسالات (وفيه ردٌّ على اللادينيين والربوبيين) ٢٤

- قواعد تأسيسية: ٤٢

الباب الأول: رسول الله

تمهيد: ظاهرة النبوة ٤٧

الفصل الأول: صفات النبي ٥٠

- خلاصةُ الفصل ٧٣

الفصل الثاني: مواقف من سيرته ٧٧

الفصل الثالث: المعجزات الحسية ٨٩

الفصل الرابع: بشارات الكتب السابقة ١٠٥

- أمثلة من بشارات العهد القديم: ١٠٨
- أمثلة من بشارات العهد الجديد: ١١٨

الباب الثاني: رسالة الله

مقدمة عن المعجزة القرآنية ١٢٥

الفصل الأول: الإعجاز البلاغي ١٣٧

- ملحق بالإعجاز البلاغي: أسرار أخرى في القرآن ١٥٠
- فصل في الصَّرْفَة: ١٦٩

- سؤال هام: ١٧٣

الفصل الثاني: الإعجاز الغيبي ١٧٦

الفصل الثالث: الإعجاز التشريعي ١٨٧

- قاعدة المُحكم والمُتشابه: ٢٠١
- متى تكون الشبهة سببًا في نقض الدين والحكم ببطلانه؟! ٢٠٣
- نظرية المركز: ٢٠٥
- خلاصة الفصل ٢١٤

الفصل الرابع: الإعجاز العلمي ٢١٥

- حثَّ القرآنُ الإنسانَ على فهم وتدبر الطبيعة. ٢١٦
- خلاصة الباب الثاني ٢٢٥

الباب الثالث: مقارنة بين القرآن والكتب السابقة

تمهيد ٢٣٥

- نبذة عامة عن الكتاب المقدس ٢٤١

الفصل الأول: صفات الإله ٢٤٤

- صفات الإله في العهد القديم: ٢٤٦
- صفات الإله في العهد الجديد: (وفق تفسير الكنيسة بمختلف طوائفها): ٢٥٤
- صفات الإله في القرآن: ٢٦٨

الفصل الثاني: صفات الأنبياء ٢٧٥

- صفات الأنبياء في العهد القديم: ٢٧٧
- صفات الأنبياء في العهد الجديد: ٢٨٢
- صفات الأنبياء في القرآن: ٢٨٧

الفصل الثالث: معيار الحفظ من التحريف ٢٩٢
• العهد القديم ومعيار الحفظ من التحريف: ٢٩٥
• العهد الجديد ومعيار الحفظ من التحريف: ٣٠١
• القرآن ومعيار الحفظ من التحريف: ٣١٧
الفصل الرابع: معيار معقولية العقائد الكلية للدين وفطريتها والتماسك المنطقي بينها ٣٣١
• العهد القديم ومعيار المعقولية: ٣٣٣
• العهد الجديد ومعيار المعقولية: ٣٣٧
• القرآن ومعيار المعقولية: ٣٤١
الفصل الخامس: معيار ثمرات الدين ٣٤٨
• ثمرات العهد القديم: ٣٥٠
• ثمرات العهد الجديد ٣٥٤
• ثمرات القرآن: ٣٥٨
• استشكال فلسفي ورد صادم: ٣٦٤

الخاتمة ٣٦٧

فهرس المصادر والمراجع ٣٦٨